مرايا-16

- كورونا.. الأزمة التي زادت من أوجاع سوق العمل في مصر
- أدب الأوبئة.. نصوص تنتصر لغريزة البقاء
- الاشتراكية في زمن الأوبئة
- رحلات بين أربعة جدران: تأملات حول العزل والعزلة

مرايا-16

كورونا.. الأزمة التي زادت من أوجاع سوق العمل في مصر

الناشر دار المرايا للإنتاج الثقافي

الكُتاب

أسامة دياب، أسماء سعد، أسماء يس، باسم عبد الحليم، حسام الخولي، حسين الحاج، خالد يوسف، ماجد وهيب، محمد جاد، محمد عبد النبي، منى أبو النصر، وليد الخشاب

محرر كتاب مرايا

دينا جميل

تحرير

أسماء يس، صفاء عصام الدين

تصميم فني

مصطفى علوان

تصميم الغلاف

محمد نور

مرايا-16

- «مرايا» كتاب ثقافي/ نظري يعنى بنشر المساهمات ذات القيمة في الفلسفة والفكر، والعلوم الاجتماعية والإنسانيات، والنقد الأدبي والفني.
- يعطي كتاب «مرايا» الأولوية لنشر الكتابات التي تلقي ضوءًا على الواقع المصري والعربي والشرق أوسطي.
- يرحب كتاب «مرايا» بالإسهامات المتميزة غير المنشورة سابقًا، ويترجم نصوصًا منتقاة منشورة بلغات أخرى.
- لا ينشر كتاب «مرايا» نصوصًا تروج للرجعية والطائفية والعنصرية والذكورية، أو تحرض على الكراهية، أو تحتوي على عبارات السب والقذف.
- يلتزم كتاب «مرايا» بالرد على مقدمي المقترحات والنصوص، مع احتفاظه بالحق في تحديد توقيت نشر النصوص المقبولة، وفى تحريرها وفقًا للحدود المتعارف عليها.
- يتلقى كتاب «مرايا » المراسلات على البريد الإلكتروني marayajournal@elmaraya.net

الآراء المنشورة تعبر عن رأي كتابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي كتاب «مرايا »

رقم الإيداع: 10713 / 2020

الترقيم الدولي: 5 – 68 – 6648 – 977 – 978

المراسلات

23 شارع عبد الخالق ثروت، وسط البلد، القاهرة ،

جمهورية مصر العربية

تليفاكس: 223961548

البريد الإلكتروني:

marayajournal@elmaraya.net

◆◆◆◆◆◆

١٦٠ صفحة

المقاس ١٩× ٢٧,٥ سم

يوليو - ٢٠٢٠

المحتويات

- **بداية** 7

- **هوامش**

كورونا.. الأزمة التي زادت من أوجاع سوق العمل في مصر ..... محمد جاد 11

- **رؤى**

1. رحلات بين أربعة جدران: تأملات حول العزل والعزلة ..... محمد عبد النبي 21
2. ما بعد الحقيقة واليقين والأبوكاليبس: "دكاكين" البارانويا ..... خالد يوسف 29
3. دمقرطة الإحصاءات الاقتصادية لمواجهة دلالتها الفارغة : التضخم في مصر ..... أسامة دياب 37

- **دراسات**

1. نيتشه في روايات ديستويفسكي ..... ماجد وهيب 51
2. الاشتراكية في زمن الأوبئة ..... چوزيف شونارا / ترجمة: أسماء يس 64

- **شخصية**

أمينة رشيد: المعلمة بالمثال.. شذرات من سيرة شخصية مفتوحة على المجال العام ..... وليد الخشاب 89

- **ذخائر**

جغرافية الثورة ..... جمال حمدان 101

- **مراجعات**

1. جرائم لاس فون تريير ..... باسم عبد الحليم 123
2. أدب الأوبئة: نصوص تنتصر لغريزة البقاء ..... أسماء سعد 136
3. تسخير الروح لخدمة الرأسمالية ..... حسين الحاج 143
4. "أحمر لارنج": شارل عقل المهرج المجدد ..... حسام الخولي 148
5. "أشباح بروكسل": جغرافيا سردية للخوف ..... منى أبو النصر 153

بـــدايـــة

يأتي الإصدار السادس عشر لكتاب مرايا في لحظة لا صوت فيها يعلو فوق صوت «الكورونا»، إذ ينتشر الوباء في مصر والعالم مُسقطًا عشرات الآلاف من المرضى والمتوفين. ويحوي هذا الإصدار من كتاب مرايا عدة مقالات عن وباء كورونا وتأثيراته على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والنفسية.

في مقاله عن «كورونا.. الأزمة التي زادت من أوجاع سوق العمل في مصر»، يناقش محمد جاد التأثيرات الكارثية للكورونا على أسواق العمل في بلدان عدة، والسياسات الجديدة التي ظهرت لتعويض العمال عن الأجور المفقودة بسبب سياسات حظر التجوال، وكذلك أشكال الدعم المختلفة التي قدمتها دول العالم إلى فئة العاملين خارج النطاق الرسمي. ويتطرق جاد إلى الوضع في مصر طارحًا أن الوباء المستجد جاء إلى مصر على خلفية عقود اتسع فيها نطاق العمل غير الرسمي بشكل سريع، الأمر الذي زاد من مصاعب حماية العمال تحت ظروف الوباء الضاغطة، لتصبح تلك الأزمة بمثابة لحظة كاشفة لمشكلات سوق العمل المتراكمة في مصر.

وتقدم الدراسة التي ترجمتها أسماء يس بعنوان «الاشتراكية في زمن الأوبئة»، تحليلاً لأسباب ظهور الأوبئة والسياقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تتداخل وتنتجها في نهاية المطاف. وتجادل الدارسة بأنه لا يمكن فهم طبيعة جائحة "كوفيد- 19" دون النظر إلى الرأسمالية في تكوينها الحالي. فوباء، على هذا المستوى، يزيد من حدة أخطاء الرأسمالية الموجودة بالفعل من قبل. وبشكل أساسي، هو يضعنا أمام خيارين: إما الدفاع عن الأرباح، أو إنقاذ الأرواح. وتطرح الدارسة أن الدلائل تشير، حتى الآن، إلى أن الخيار الأول كان الأولوية القصوى لأولئك الذين يترأسون هذا النظام. وفي مقال ممتع بعنوان «رحلات بين أربعة جدران.. تأملات حول العَزل والعُزلة»، يتأمل محمد عبد النبي في ما فعلته العُزلة المفروضة خوفًا من الوباء في ملايين البشر حول العالم. ويتنقل عبد النبي في مقاله بين عدد من الكتب والروايات والأفلام التي تناولت العزلة بمعانيها وظروفها المختلفة وكيف تؤثر على حيوات البشر. ويرصد عبد النبي كيف أسهمت التكنولوجيا في خلق مساحات للتواصل وكسر العزلة من خلال مساحات التلاقي الافتراضي التي تتيحها.

وتتجول أسماء سعد في مقالها «أدب الأوبئة.. نصوص تنتصر لغريزة البقاء» بين عدة أعمال أدبية تناولت الأوبئة. يطرح المقال أنه على الرغم من اختلاف بعض المعالجات لثيمة «الأوبئة» في الأعمال الأدبية، سواءً أعمال استبقت وتنبأت بما قبل وقوع الكارثة، أو أعمال استفاضت في وصف أحداث على نحو يبعث القشعريرة في الأبدان، أو حتى تلك التي ترصد عالم ما بعد التعافي من الصدمة، فإن المشترك الفريد بينهم، هو التعبير بشكل بليغ عن تلك اللحظات التي تستيقظ فيها غريزة البقاء من سباتها. ويتوقع المقال أنه بنهاية فترة الحجر التي دخلتها البشرية حاليًا بسبب الوباء، سيكون هناك صدى لتلك الفترة على صفحات الروايات، وستبرز آثارها وتتجلى بقوة، في أعمال أدبية وفنية تتناول فترة كورونا العصيبة، وتضيف أرففًا جديدة إلى مكتبة أدب الأوبئة والأزمات.

وبالإضافة إلى ما سبق من كتابات ركزت على تأثيرات الوباء، يتضمن الإصدار الحالي من كتاب مرايا مقالات ودراسات ومراجعات تتناول موضوعات مختلفة في الاقتصاد والأدب والسياسة.

هوامش

- **كورونا.. الأزمة التي زادت من أوجاع سوق العمل في مصر**

محمد جاد

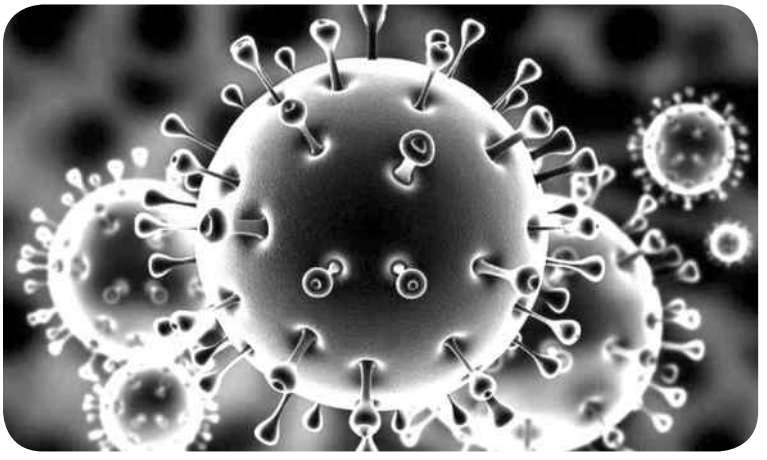

كورونا.. الأزمة التي زادت من أوجاع سوق العمل في مصر

محمد جاد

حمل وباء كورونا في طياته تأثيرات كارثية على أسواق العمل في بلدان عدة، وفي هذا السياق ظهرت سياسات جديدة لتعويض العمال عن الأجور المفقودة بسبب سياسات حظر التجوال، كما التفتت الكثير من الدول إلى فئة العاملين خارج النطاق الرسمي، وحاولت تقديم أشكال من المساندة لهم.

أما في مصر، فقد جاء الوباء المستجد على خلفية عقود اتسع فيها نطاق العمل غير الرسمي بشكل سريع، الأمر الذي زاد من مصاعب حماية العمال تحت ظروف الوباء الضاغطة، لتصبح تلك الأزمة بمثابة لحظة كاشفة لمشكلات سوق العمل المتراكمة في مصر.

كيف كان سوق العمل في مصر قبل كورونا؟

خلال عقود التحرر الاقتصادي كانت الدولة تتراجع تدريجيًّا عن التزامها بتعيين الخريجين داخل الجهات التابعة لها، وذلك على أساس فرضية أن سياسات السوق ستسهم في تحفيز القطاع الخاص على التوسع في دوره الاقتصادي، ومن ثَم خلق فرص عمل بديلة، ومستدامة أيضًا؛ بمعنى أنها لا تسبب عبئًا ماليًّا على الدولة مثل الوظائف الحكومية.

وبالفعل توسَّع القطاع الخاص في نشاطه، ولكن فرص العمل التي أسهم في توفيرها لم تكن تتسم في كثير من الحالات بالدرجة نفسها من الاستقرار التي كانت توفرها الدولة للعاملين، فالعديد من الوظائف الخاصة إما مؤقتة، لأنها في أعمال قصيرة العمر بطبيعتها مثل الإنشاءات، أو لا تتمتع بالحماية التأمينية.

بدا ذلك واضحًا في تقديرات عدة لتضخم حجم الاقتصاد غير الرسمي في مصر منذ حقبة الثمانينيات، وقت أن كانت البلاد تتجه صوب التحرر الاقتصادي.

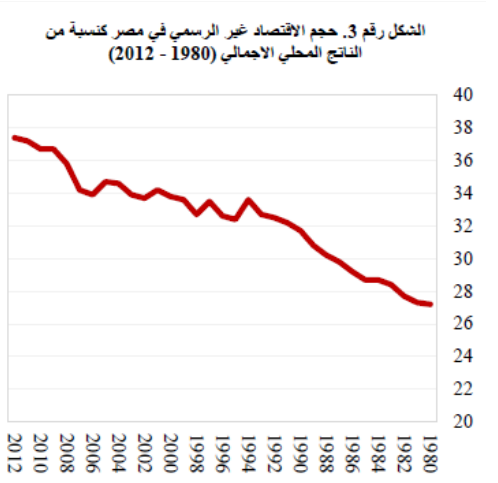

الرسم منقول من دراسة للمركز المصرى للدراسات الاقتصادية

وبحسب بيانات مسح سوق العمل، الذي يصدره منتدى البحوث الاقتصادية بالتعاون مع الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء، فإن إسهامات القطاع العام في التوظيف تراجعت خلال الفترة بين 1998 و2018 من 39 إلى 26 ٪، بينما لم تنمُ مساهمة الوظائف الخاصة الرسمية إلا بشكل محدود من 8 إلى 12 ٪.

وفي الفترة نفسها زادت مساهمة الوظائف الخاصة غير الرسمية داخل المنشآت من 11 ٪ إلى 16 ٪ والوظائف الخاصة غير الرسمية خارج المنشآت من 13 ٪ إلى 23 ٪.

وبسبب صعوبة العثور على وظيفة رسمية بعد التخرج أصبح الكثير من الخريجين يقبلون بالوظائف غير الرسمية عند بدء دخولهم سوق العمل، بحسب دراسة لمنتدى البحوث الاقتصادية، والتي تذكر أن «الانتظار أو طول فترة البطالة بعد الخروج من المدرسة لم يكن أمرًا مهمًا للطلاب المصريين، إذ أصبح الأجر غير الرسمي خيارًا بديلاً».[1]

وتعزى رداءة الوظائف المتاحة من القطاع الخاص جزئيًا إلى التحول الذي جرى في بنية الاقتصاد المصري خلال العقود الأخيرة.

وفقًا لـدراسة ثانية لمنتدى البحوث الاقتصادية فقد مر الاقتصاد المصري خلال العقود الأخيرة بعملية إهدار للتصنيع أو ما يُعرف بـ deindustrialization. وكما

1- Ragui Assaad, Caroline Krafft, and Colette Salemi - SOCIOECONOMIC STATUS AND THE CHANGING NATURE OF SCHOOL-TO-WORK TRANSITIONS IN EGYPT, JORDAN, AND TUNISIA - ERF - 2019.

جاء في الدراسة فإنه «خلال العشرين عامًا الماضية شهد الاقتصاد المصري تحولاً هيكليًا (...) نصيب الصناعة والتعدين والمرافق (من مجمل الوظائف) انخفض من 18 ٪ في 1998 إلى 14 ٪ في 2018؛ بما يشير إلى إهدار جزئي للتصنيع».

وفي دراسة ثالثة للمنتدى، يعتبر الباحثون أن هذا التحول في هيكل الاقتصاد المصري كان السبب في تفاقم مشكلة العمالة اللارسمية في مصر.

إذ تطرح الدراسة أن «النمو السريع لأنشطة الإنشاءات والنقل مقارنة بالزراعة والصناعة وبعض الخدمات مثل التعليم والصحة، أنتج نموًا غير متناسب للتشغيل غير الرسمي خارج المنشآت، وهو واحد من أكثر الأشكال الهشة للتشغيل في مصر».[2]

2- Ragui Assaad, Abdelaziz AlSharawy, and Colette Salemi - IS THE EGYPTIAN ECONOMY CREATING GOOD JOBS? JOB CREATION AND ECONOMIC VULNERABILITY FROM 1998 TO 2018 - ERF - 2019.

توقفت الأنشطة الاقتصادية خلال فترة الحظر الكلي في إيطاليا

وبحسب الدراسة فإن نصيب الوظائف المتاحة في مجال الإنشاءات من إجمالي الوظائف زاد من 8 ٪ إلى 13 ٪ بين 2006 و2018، والوظائف في قطاع النقل والتخزين من 6 ٪ إلى 9 ٪ خلال الفترة نفسها.[3]

انتقاد الإنشاءات كنموذج لتوفير الوظائف الرديئة لا يلغي فكرة أن قطاعًا عريقًا مثل الزراعة لا يزال هو المفرخة الرئيسية لهذا النوع من الوظائف الهشة في مصر، خصوصًا في ظل غياب الرقابة والإصلاح على العاملين به؛ إذ يستحوذ هذا القطاع على ٪44.8 من مجمل الوظائف غير الرسمية في مصر وفقًا لتقديرات منظمة العمل الدولية، ويأتي بعده قطاع الخدمات، وأخيرًا الصناعة.[4]

وبصفة عامة فإن الغالب على سوق العمل المصري هو إنتاج الوظائف غير الرسمية، إذ تمثل 63.3 ٪ من مجمل الوظائف وفقًا لمنظمة العمل، ونستطيع أن نتخيل كيف يستقبل بلد بهذا الوضع كارثة كبرى مثل وباء كورونا، حيث النسبة الأكبر من العمالة لا تتوفر لديها أشكال الحماية التأمينية التقليدية، ولا تعرف عنها الدولة الكثير من المعلومات حتى ترسل لها أي مساندة عبر سياسات مستحدثة لمواجهة مثل هذه الأحداث الطارئة.

نظرة على السياسات الدولية لمواجهة كورونا

فرض الوباء حظر التجول وتقييدًا للحركة، بشكل جزئي أو كلي، على معظم بلدان العالم، وهو ما أنتج تعطلاً هائلاً في سير أغلب الأعمال. وأمام هذه الأحداث التي أنتجت قفزات ضخمة في البطالة، قدمت البلدان المتقدمة سياسات استثنائية لمساندة المتعطلين، لتواكب هذا الحدث الاستثنائي، ويمكننا أن نقسمها إلى ثلاثة توجهات رئيسية:

التوجه الأول يُطلق عليه نزع الفيشة عن الاقتصاد، وكانت الدانمارك رائدة في هذا المجال؛ فقد فرضت قيودًا متشددة على الحركة، وأمام هذا اضطر القطاع الخاص إلى التخلص من الكثير من العمالة، لكن صناع السياسات في هذه البلاد رأوا أن ذلك سيساعد على إبطاء التعافي الاقتصادي. وذلك لأن عملية تسريح العمالة ثم البحث عن عمالة جديدة بعد رفع تدابير الوباء ستستغرق وقتًا طويلاً، لذا طلبت الحكومة من أصحاب الأعمال أن يحتفظوا بالعمال لديهم وتعهدت لهم بسداد نسبة من أجورهم لفترة مؤقتة.[5]

برونو لو مير - وزير المالية الفرنسي

واتبعت بلدان أخرى هذه السياسة بطرق مختلفة، مثل فرنسا التي عززت من سياسة إعلان البطالة الجزئية (partial unemployment) والتي تمنح الشركة الحق في تقليل العمل أو إيقافه تحت ضغوط الأزمة، على أن تمول الدولة النسبة الغالبة من أجور العاملين، وقد وسعت فرنسا من نطاق تطبيق هذه السياسة على أنماط العمل المختلفة ويسَّرت من إجراءاتها.[6]

3- Ragui Assaad - Is the Egyptian economy creating good jobs? A review of the evolution of the quantity and quality of employment in Egypt from 1998 to 2018.- ERF - 2019

4- ILO - Women and Men in the Informal Economy: A Statistical Picture - 2018.

5- Ulrik Boesen - Denmark Unplugs the Economy -Taxfoundation - 2020 - https://taxfoundation.org/denmark-coronavirus-relief-plan/

6- the local - Chômage partiel: How to access partial unemployment in France - 2020 - https://www.thelocal.fr/20200401/chomage-partiel-how-to-access-temporary-unemployment-in-france

الولايات المتحدة اتخذت إجراءات للحد من الآثار الاقتصادية لفيروس كورونا

أما التوجه الثاني فكان متعلقًا بالسياسات المالية، إذ وجهت الولايات المتحدة الجهة المسؤولة لديها عن جمع الضرائب Internal Revenue Service لصرف منح مالية لدافعي الضرائب تحت اسم Recovery Rebates.[7]

أما التوجه الثالث فكان تعزيز سياسات تعويض البطالة القائمة بالفعل، وكما هو معروف فإن نظم التأمين القائمة على الاشتراكات تشمل تأمينًا على البطالة يوفر تعويضًا مؤقتًا لمن يقع في هذه الأزمة، كي لا يتأثر دخله بشكل عنيف خلال الفترة الانتقالية بين وظيفة وأخرى.

وقد اتبعت الولايات المتحدة هذا التوجه، وذلك من خلال زيادة قيمة تعويض البطالة لفترة مؤقتة، مثلما اتبعت أستراليا سياسة مشابهة[8]. وظهرت في البلدان المتقدمة معضلة حماية الفئات التي لا تنتمي إلى منظومة التأمين القائمة على الاشتراكات، مثل الأفراد الذين يشتغلون لدى أنفسهم.

وقد ظهرت هذه المشكلة وقت الأزمة المالية العالمية في 2008 وطورت البلدان المتقدمة سياسات لمواجهتها. وتنوعت السياسات الموجهة لحماية العاملين بين تيسير وصول هذه الفئات إلى الامتيازات التي تقدمها الدولة لمحدودي الدخل، أو تقديم إعانة مباشرة إلى هذه الفئة من العمالة، خصوصًا ممن يتسمون منهم بتدني الدخل وذلك بشكل مؤقت.[9]

وظهرت في البلدان النامية سياسات موجهة لتوفير المساندة للعمالة غير الرسمية، على سبيل المثال خصصت شيلي منحًا للفئات المحرومة من العمل الرسمي والتي يصل عددها إلى 2 مليون عامل.[10]

ماذا جرى في مصر؟

أحد أوجه سياسات المساندة التي قامت بها الدولة المصرية إزاء أزمة كورونا كانت السياسات النقدية، وهي السياسات التي ركزت على مساندة أصحاب المشروعات والمقترضين من المستهلكين، بينما كان نصيب العمال منها محدودًا. وقد ركزت سياسات البنك المركزي الخاصة بالعمال على قطاع السياحة، وتمثَّلت في طرح مبادرة لتوفير التمويل الميسر للأجور، ولكنه قصرها على أجور العاملين في السياحة فقط.[11]

ويشبه هذا النهج سياسة دعم الأجور التي أشرنا إليها في نموذج الدانمارك، ويمكن أن نتفهم لماذا ركزت الدولة

7- Journal of accountancy - Recovery rebate payments to be issued within 3 weeks - 2020 - https://www.journalofaccountancy.com/news/2020/mar/irs-explains-coronavirus-recovery-rebate-payments.html

8- In daily - What's in the $66b second virus stimulus package - 2020 - https://indaily.com.au/news/2020/03/22/whats-in-the-66b-second-virus-stimulus/

9- OECD-Supporting people and companies to deal with the COVID-19 virus: Options for an immediate employment and social-policy response-2020.https://oecd.dam-broadcast.com/pm_7379_119_119686-962r78x4do.pdf

10- Reurtrs - Chile's Pinera unveils $11.7 billion coronavirus aid package - 2020 - https://www.reuters.com/article/us-health-coronavirus-chile-economy/chiles-pinera-unveils-11-7-billion-emergency-aid-package-to-counter-coronavirus-idUSKBN2163CS

11- يحيى أبو الفتوح: بدأنا تلقي طلبات بمبادرة السياحة لتمويل أجور العاملين واستحقاقات الموردين – حابي – 2020.

علقت مصر رحلات الطيران في 19 مارس 2020

على قطاع السياحة؛ فهو من أوائل القطاعات المتضررة من الوباء، خصوصًا مع وقف حركة الطيران وإغلاق الأماكن السياحية. وفي حال ما إذا اضطر القطاع إلى القيام بعملية تسريح واسعة النطاق للعمالة الماهرة تحت ضغط الخسائر، ستستغرق عملية استعادة هذه العمالة للعمل مع عودة النشاط في المستقبل وقتًا طويلاً. لكن لا تتوفر لدينا بيانات بخصوص عدد من استفادوا من القروض المدعمة لتمويل أجور السياحة، وإلى أي مدى كان الوصول لهذه القروض ميسرًا من قبل البنوك.

محمد معيط وزير المالية

وأعلنت وزارة المالية عن إصدار "ضمانة" للبنك المركزي بـ3 مليارات جنيه، لصالح البنوك الوطنية لإقراض المنشآت السياحية والفندقية بسعر فائدة 5 ٪ سنويًا، بحيث تدعم هذه القروض تغطية مرتبات الموظفين بالمنشآت السياحية والفندقية[12].

وقد قامت وزارة القوى العاملة أيضًا بصرف الدفعة الأولى والثانية من صندوق إعانة الطوارئ للعاملين في السياحة لنحو 56 ألف عامل في 275 منشأة، بقيمة 100 ٪ من الأجر الأساسي بحد أدنى 600 جنيه.[13]

12- معيط: قروض بـ3 مليارات جنيه للمنشآت السياحية والفندقية لتغطية أجور العاملين
https://bit.ly/2X1fCbf

13- بيان لوزارة القوى العاملة – 2020.

وعلى صعيد السياسات المالية فقد قررت الدولة زيادات استثنائية في أجور العاملين لدى الدولة، ورفع حد الإعفاء الضريبي،[14] بالإضافة إلى زيادة المعاشات هذا العام بنسبة 14 ٪.[15]

ومن الجيد أن يتم تشريع زيادات استثنائية في أجور العاملين بالجهاز الإداري للدولة، ولكنهم يمثلون فقط ما يقرب من ستة مليون موظف[16]، بينما يتجاوز عدد المشتغلين 25 مليونًا.[17]

كما أن حد الإعفاء بعد الزيادة أصبح يصل بالكاد إلى مستوى الحد الأدنى للأجور في العمل الحكومي (2000 جنيه شهريًا)، أي أن الدولة كانت تفرض قبل هذا الإجراء ضرائب على ذوي الأجور المتدنية، والتقدم الذي حدث أخيرًا كان بالكاد إعفاؤهم من الضريبة.

لم تستغل الدولة تأمين البطالة لاحتواء حالات التسريح التي وقعت في ظل وباء كورونا مثل التجارب الدولية التي عرضناها في الفقرات السابقة، وذلك على الرغم من النص على هذا التأمين في قانون التأمينات رقم 79 لسنة 1975، وفي القانون الجديد للتأمينات 148 لسنة 2019، فقد ظل هذا التأمين موجود نظريًا وغائب عمليًا.

14- محمد جاد – الآثار الاقتصادية لكورونا: إجراءات استثنائية في الموازنة الجديدة لإنقاذ الأقل دخلاً – المنصة – 2020
https://vww.almanassa.net/ar/story/13889

15- ولاء جمال ودعاء جابر- التضامن: زيادة المعاشات 14٪ أول يوليو – الدستور – مارس 2020
-https://www.dostor.org/3038959

16- حسن هريدي – التخطيط: أكثر من 5 مليون موظف في الجهاز الإداري بمتوسط 25 مليون عائلة- أخبار اليوم – مارس 2019 –
https://bit.ly/2xOUmvx

17- الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء – نشرة بحث القوى العاملة الربع الأول 2019
– https://www.capmas.gov.eg/Pages/Publications.aspx?page_id=5106&Year=16603

محمد سعفان - وزير القوى العاملة

هذا بالنسبة للعمالة المؤمن عليها، أما بالنسبة للعمالة غير المؤمن عليها، فقد تولت وزارة القوى العاملة توفير تعويضات مالية لها، تمثلت في إعانة لمدة ثلاثة أشهر بقيمة 500 جنيه في الشهر، بدءًا من شهر أبريل.

ويثير اسم المبادرة الذي تقدم من خلاله هذه المنحة الكثير من الالتباس (مبادرة دعم العمالة غير المنتظمة)؛ فهو يوحي للوهلة الأولى أنه موجَّه للعمالة اليومية فقط، سواء كان مؤمنًا عليها أم لا، ولكن بحسب تصريحات لوزير القوى العاملة فإن من شروط الاستفادة بهذه المنحة أن يكون العامل غير مؤمن عليه، وليس لديه حيازات زراعية وممتلكات ومنقولات[18]، لذا كان من الأولى تسميتها مبادرة دعم العمالة غير الرسمية، مما كان سيسلط الضوء بشكل أكبر على هذه المشكلة المتفاقمة في سوق العمل المصري.

وعلى أساس هذه المعايير فتحت الوزارة الباب للتقديم، وبلغ عدد المتقدمين للمرحلة الأولى مليون و900 ألفًا، استبعدت منهم الدولة نحو نصف المليون شخص.

وأظهرت تجربة هذه المبادرة معرفة الدولة المحدودة بالعمالة غير الرسمية؛ فقد احتاجت إلى بناء قاعدة بياناتها عن هذه العمالة في قلب الأزمة، ولو كانت اهتمت بالاستثمار في قاعدة بيانات تخص هذا النوع من العمل خلال السنوات الماضية لكان من الممكن أن توصل المنحة بشكل أسرع.

وبغض النظر عن أن الشريحة المستهدفة بالمرحلة الأولى من هذه المنحة تمثل نسبة صغيرة من مجمل من يعملون بشكل غير رسمي، فإن قيمة المنحة نفسها تعد متواضعة للغاية قياسًا بالأعباء المعيشية القائمة، فقد حدد الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء حد الفقر في2018 بقيمة 735.6 جنيه في الشهر، هذا بالنسبة للفرد الواحد فما بالنا بمن يعول أسرة!

18- وزير القوى العاملة في مقابلة تليفزيونية – 2020.

يضاف إلى الإجراءات السابقة اتجاه الدولة إلى توسيع نطاق تغطية معاشات تكافل وكرامة، والتي تستهدف الأسر متدنية الدخل، بعد إضافة 100 ألف أسرة جديدة، وقد يكون من بين هذه الأسر فئات تضررت من فقدان دخلها الأساسي خلال ظروف الجائحة.[19]

ما الذي تحتاج مصر إلى القيام به؟

تمثل هذه الأزمة فرصة للالتفات بشكل أكبر إلى العمالة غير الرسمية وبناء قواعد بيانات عنها، وكذلك إلى إعادة النظر في منظومتنا التأمينية وتفعيل تأمين البطالة. وتُلخص منظمة العمل الدولية في ورقة صدرت في مايو طبيعة الإجراءات التي يمكن أن تقوم بها الحكومات لمساندة العمالة أمام ظروف الجائحة بأنه «يمكن للبلدان التي لديها بالفعل نظم الحماية الاجتماعية القائمة على الاشتراكات وغير القائمة على الاشتراكات توسيع نطاق التغطية إلى الفئات التي لم يتم تغطيتها بعد، بناءً على نظم الإدارة والتوصيل القائمة. كما يمكنهم رفع قيمة الإعانة والتسريع بسدادها وتخفيف شروط التأهل، ويمكن القيام بذلك من خلال برامج مختلفة، بما في ذلك إعانات البطالة، والمعاشات المعممة، واستحقاقات الأطفال أو برامج المساعدة الاجتماعية».[20]

وقد طبقت مصر بعضًا من هذه السياسات الاجتماعية، لكننا لا نزال في حاجة إلى المزيد من الجهود، على رأسها بناء قاعدة بيانات عن العمالة غير الرسمية في مصر، وإدارة حوار مجتمعي حول كيفية دعمها في الأجل القصير، وتوفير الحماية التأمينية لها في المدى الطويل، مع النظر في سياسات للحد من الوظائف متدنية المهارة أو الأقل استقرارًا والأقل إسهامًا في التنمية.

وعندما نتحدث عن النظر في أحوال العمالة غير الرسمية علينا أن نسلِّط الضوء على العمالة الزراعية التي تمثل الفئة الأكبر من هذا النوع من العمالة وفقًا لتقديرات منظمة العمل الدولية، وكما ينوِّه الباحث صقر النور، في مقال بموقع المنصة، فإن ضمان قدرة استمرار هذه الفئة على العمل في ظروف الوباء تمثل ضمانة لأمننا الغذائي في الوقت الراهن.

19- مدحت وهبة – التضامن: 100 ألف أسرة جديدة تدخل «تكافل وكرامة» لمواجهة تأثيرات كورونا – اليوم السابع – 2020 - https://bit.ly/2TayjHp

20- ILO - COVID-19 crisis and the informal economy: Immediate responses and policy challenges - 2020.

عمال الزراعة الفئة الأكبر من العمالة غير الرسمية - موقع أصوات مصرية

ويسلِّط النور في مقاله ضوءًا على العمالة التي تشتغل على الحيازات المحدودة والتي تحتاج للدعم في الوقت الحالي، فيقول «اليوم، تبدو أهمية الزراعة العائلية التي يقوم بها صغار الفلاحين، خصوصًا وأنها قادرة على التنظيم الذاتي لاستمرار الإنتاج مع إمكانية أكبر لحماية الأرواح بحفظ المسافات. هذا النمط الإنتاجي المناسب أكثر للبشر أكثر قدرة على التكيّف مع الأزمات من أنماط الإنتاج الكثيفة والإنتاج الكبير».[21]

ويشير مقال آخر لمروة ممدوح إلى الضغوط التي يتعرض لها الفلاحون مع تدابير الحظر «مع إغلاق الأسواق الأسبوعية لم تعد النساء قادرات على بيع المنتجات المعدة منزليًا (...). تقول أم شريفة، 50 سنة، وأم لـ3 أولاد: (أنا عن نفسي كنت بستنى السوق أروح أبيع فيه كيلة ولا كيلتين غلة.. عشان أشتري للعيال كيلو لحمة ونطبخ وكيلو فاكهة.. عشان العيال دي عاوزه تاكل)».[22]

هذا بالإضافة إلى النظر في المنظومة التأمينية، وكيفية تفعيل إعانة البطالة لحماية العمالة الرسمية من مخاطر التعطل عن العمل.

علاوة على ذلك هناك حاجة للالتفات إلى العمالة المصرية في الخارج، والتي ستتراجع بالتأكيد مساهمتها في تدفقات النقد الأجنبي مع شيوع حالات الإغلاق الجزئي في بلدان الخليج. هناك حاجة لتوفير إعانات البطالة لهذه الفئة بعد عودتها إلى مصر كي لا تتعرض أسرها لصدمات مادية تؤدي إلى سقوطها في الفقر، خصوصًا من ينتمون من هذه العمالة إلى الفئات متدنية المهارة.

21- صقر النور - صغار الفلاحين ومعركة كورونا: غائبون عن خطط الدعم.. حاضرون في خطوط الإمداد -المنصة - 2020.

22- مروة ممدوح - مصر: شهادات حية عن أوضاع الفلاحات الريفيات في زمن كورونا - شبكة شمال أفريقيا للسيادة الغذائية- 2020

-https//:bit.ly2/YRHWyi

رؤى

- رحلات بين أربعة جدران: تأملات حول العَزل والعُزلة

محمد عبد النبي

- ما بعد الحقيقة واليقين والأبوكاليبس: "دكاكين" البارانويا

خالد يوسف

- دمقرطة الإحصاءات الاقتصادية لمواجهة دلالاتها الفارغة: التضخم في مصر

أسامة دياب

قال الشيخ عبد ربه التائه:

«حاولتُ يومًا العزلة، ولكن تنهدات البشر اقتحمت خلوتي».

أصداء السيرة الذاتية - نجيب محفوظ

رحلات بين أربعة جدران:
تأملات حول العَزل والعُزلة

محمد عبد النبي

-1-

في 1972 كان هنري جوزيف دراجر الابن، الحارس في مستشفى كاثوليكي بولاية شيكاجو إلينوي، والذي يعيش بمفرده تمامًا في غرفة بالطابق الثاني من بناية لسَكن الطبقة العاملة، مريضًا إلى درجة تمنعه مِن الاعتناء بنفسه، فَتمَّ إرساله إلى مركز كاثوليكي اسمه القديس أُغسطين ومات هنالك في المكان حيث مات والده. وعندما قرر مالك البناية تنظيف غرفته التي احتوت مخلفات أربعين عامًا بمساعدة عامل وأحد السكَّان الآخرين، لإخراج أكوام الصحف والأحذية القديمة والنظَّارات التالفة والزجاجات الفارغة، في لحظة ما اكتشفوا كنزًا مخفيًّا، وهو أعمال فنية بألوان مائية ممتدة لمناظر طبيعية ذات زهور عملاقة وفتيات صغيرات بأجنحة فراشات وأخريات عرايا بلا جنس محدد، وبدا كأن الرسوم تروي حكاية فانتازية ما، تلك الحكاية التي عرفت في ما بعد بقصة بنات فيفيان والتي وجدت مكتوبة في آلاف الصفحات، ثُمَّ نشرت لاحقًا إلى جانب صوره ورسومه ليصبح دراجر الابن أحد أكثر فناني القرن العشرين غرابة واغترابًا.

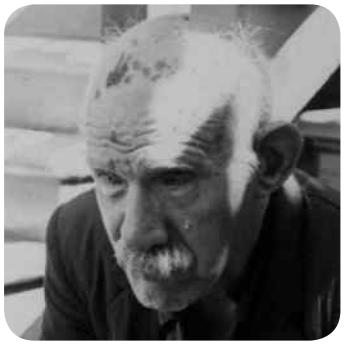

هنري دراجر

أوليفيا لاينج

هذه نسخة شديدة الاختصار من حكايته الغريبة ولغز تكوينه النفسي الذي حاولت الكاتبة البريطانية أوليفيا لاينج Olivia Laing أن تقترب منه، في كتابها المهم **المدينة الوحيدة** (مغامرات في فن البقاء وحيدًا)، الذي صدرَ في اللغة الإنجليزية عام 2016 ونُشر في اللغة العربية عام 2017 بترجمة محمد الضبع عن دار كلمات – الكويت. وَلم يكن هنري دراجر هو النموذج الوحيد الذي قدَّمته أوليفيا لاينج لوجوه العُزلة والوحدة المتنوعة في المدينة الغربية الحديثة، بل كان حلقة من سلسلة شبه متصلة لفنانين آخرين؛ مثل إدوارد هوبر وآندي وارهول وغيرهما من كتَّاب أو مصورين فوتوغرافيين. نماذج وتجارب ساعدتها هي نفسها على مجابهة وحدتها الاختيارية في مدينة نيويورك بعد انتقالها إليها إثر عَناء نفسي ممتد وتجارب عاطفية مخفقة. استطاعت عبرَ تسجيل رحلتها مع أولئك الفنانين، في حياتهم وأعمالهم، أن ترفعَ الوَصم الاجتماعي عن الوحدة وأن تسلط الضوء على ثمار العزلة المفروضة أو الاختيارية ألا وهي الأعمال الفنية شديدة الخصوصية والتي قد تعكس موقفًا شديد الاختلاف من العالَم والمجتمع خارج الجدران الزجاجية للذات المعزولة.

فرنسا لجأت للإغلاق الكامل لمواجهة الوباء

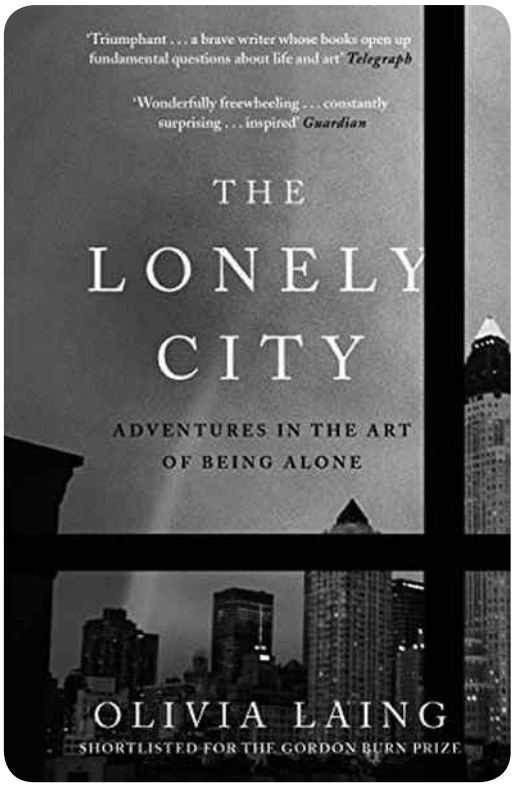

غلاف كتاب المدينة الوحيدة

أخيرًا، بدا أن لدى أوليفيا ما تقوله لنا جميعًا، بعد أن أصبحَ ثلاثة أرباع سكَّان العالَم، ومعظم أبناء المدن الغربية، محاصَرين في منازلهم، مقيدي الحركة بسبب إجراءات الإغلاق العام وأوامر التزام البيوت، في محاولة من السُلطات لوَقف تفشي وباء كوفيد19- المشهور بكورونا، والذي أعاد رَسم مشاهد الساحات والمدن والشوارع، على طريقته الخاصة، فَبدت خاوية مهجورة كأنَّ البشر هاجروا أو كأن الحضور الإنساني انكمش وتقلص وسكن الهامش إلى درجة ظهور نماذج من الحياة البرية، زوَّار من الغابات يسيرون عند خطوط مرور المشاة أو يختلسون النظر نحو واجهات المتاجر الموصدة.

وبعد أن أغلقَ الذُعر على الناس أبوابهم وأعاد ترسيم حدود حياتهم أعادَ مفاهيم العزلة والوحدة من جديدة إلى قلب الاهتمام، وتحت عنوان (كيف تكون وحيدًا) نشرت أوليفيا لاينج مقالاً في نيويورك تايمز أواخر مارس 2020، جاء فيه: «جميعنا وحيدون الآن. جميعنا معزولون عن بعضنا، محبوسون خلفَ جدران منازلنا، في نسخة

فيرجينيا وولف

لقاءات الوسائط الاجتماعية في الوقت الراهن والرسائل المتبادلة ومد كل الجسور الممكنة لتخطي احتمالات سوء التفاهم والتحامُل الخاطئ وتكريس الانعزال النفسي.

وعلى الرغم من تلك التحذيرات، لا تفوتها الإشارة إلى الجانب المضيء للعزلة، وهو ما كرست له جانبًا كبيرًا مِن كتابها الذي سبقت الإشارة إليه، وتحديدًا على مستوى التجربة الفنية كثمرة للعزلة، وتستدعي في هذا المقال العبارة نفسها التي استخدمتها في الكتاب، جملة فرجينيا وولف التي كتبتها في مذكراتها عام 1929: «فقط لو أستطيع القبض على هذا الشعور: إنه شعور سماع غناء العالَم الحقيقي، تأخذني إليه الوحدة والصمت لأبتعد عن العالَم المليء بالبشر».

إذن ليس كل ما يحدث حولنا وفي داخلنا الآن سيئًا ومهددًا للغاية، ما دام بعض أصحاب التجارب الروحية العميقة من الفنانين والرهبان كانوا قد اكتشفوا في العزلة الاختيارية كنزًا لا يمكن العثور عليه وسط الصخب والزحام، فَهل يمكن لبقية الناس أن يتعلَّموا أي شيء مِن تجاربهم تلك؟

-2-

لعل الروائي الأمريكي بول أوستر أحد أكثر المُنشغلين فنيًا بفِكرة العُزلة، عُزلة الفرد، لا عُزلة الجماعات والشعوب

How to Be Lonely

It's not just a negative state to be vanquished. There's magic in it too.

By Olivia Laing
Ms. Laing is the author of "The Lonely City."

March 19, 2020

Edward Hopper's "Nighthawks," 1942. 2020 Heirs of Josephine N. Hopper/Licensed by Artists Rights Society (ARS), NY, via Art Resource, NY

In the winter of 1942, shortly after Pearl Harbor was attacked, Edward Hopper began a new painting: a New York City diner at night, seen from outside, its four alienated inhabitants trapped behind a bubble of green glass. Of all Hopper's paintings, "Nighthawks" encapsulates urban loneliness, the feeling of being unable to connect despite being surrounded by millions of others. Over the

مقال كيف تكون وحيدًا

القرن الحادي والعشرين لنسَّاك العصور الوسطى، والمدينة المتأججة بالحياة في حالة إقفال تام، أو على وشك ذلك. التباعُد الاجتماعي ضروري، لكن ذلك لا يجعله سهلاً، وازدياد وحدتنا سيشمل إحدى تبعاته الحتمية.»[1]

تواصل حديثها حتى تصل للتنبيه إلى خطورة ما يحفزه الشعور بالوحدة من يقظة مفرطة لدرجة الشعور بالتهديد الاجتماعي، أي أن نخشى الاقتراب المادي والمعنوي من الآخَرين، وما يجعلنا شديدي الحساسية نحو علامات الرفض والاستبعاد وتركيزًا عليها أكثر من أمارات المودة والدفء. وهكذا تغذي مشاعر الوحدة حلقة مفرغة من الانعزال المضاعف، داخلنا وخارجنا، ويقوي جذوره مع مرور الوقت. وتنصح لاينج بأهمية الاعتراف بهذه الحالة وتصحيحها بوعي وقصد، عبرَ

1- ترجمته إلى العربية أمنية أبو بكر ونشر على مدونة كتب مملة (بورنج بوكس) بتاريخ 9 مايو 2020

بول أوستر

على طريقة ماركيز في روايته مئة عام من العزلة. ينشغل أوستر بعُزلة الفرد الاختيارية أو التي يُضطر إليها بسبب حبسه من قِبل آخرين، أو اضطراره إلى العيش بعيدًا في البرية أو في مكان شبه مغلق. وكثيرًا ما كان الشخص المعزول أو المنعزل فنانًا أو كاتب على وجه التحديد، وكأن شرط الوصول إلى مُنتَج فني له مغزى هو اتخاذ مسافة من الواقع وتيار الأحداث الذي لا ينقطع وصخب الحياة اليومية وازدحام الأيام بالناس والمواعيد. كتب بول أوستر في كتابه اختراع العُزلة[2]: «سواء أكان الكتاب عن الوحدة أم الرفقة، فإنه بالضرورة نتاج العُزلة».

غلاف رواية اختراع العزلة

غلاف رواية مئة عام من العزلة

لا تقف قيمة العُزلة الاختيارية عند حدود التجربة الفنية أو ضرورات التفرغ للكتابة، بل تتجاوزَ مجرد النشاط الفني إلى شرطه الأساسي وحاضنه النفسي، أي فِعل التأمُّل الصامت الهادئ، والذي لا يستقيم مِن غير اتخاذ مسافة آمنة مِن موضوع التأمُّل، قد تكون تلك المسافة زمنية حتى نتمكن أن نستوعب شيئًا أو حدثًا جرى فيما مضى، أو مسافة مكانية، لكي نستطيع أن نرى مواضع وإحداثيات حياتنا وعلاقاتها بدرجةٍ معقولة مِن التجرد والموضوعية.

تكاد لا تُوجد تجربة روحية كبرى أو قصة من قصص النبوة تخلو مِن عُزلة، إمَّا في قلب الطبيعة بعيدًا عن البشر مثل مدة الأربعين يومًا وليلة التي هامَ فيها المسيح في البرية، وإمَّا الانغلاق الآمن داخل موضع منعزل كأنه رَحم، مثل اختلاء النبي محمد بنفسه في غار حراء للتعبُّد.

الابتعاد عن ضجيج العالَم الخارجي ليس إلَّا خطوة، تتبعها خطوة أخرى أهم وهي مواجهة الضجيج الداخلي للمرء، الإنصات إلى أصواته الخاصة وغربلتها. ففي داخل كلٍ

2- ترجمة سامر أبو هواش، اختراع العزلة (بورتريه لرجل غير مرئي)، دار المتوسط، 2017.

أنطون تشيخوف

منا جوقة أصوات، جلبة متنافرة مِن الأدوار الاجتماعية والمواقف النفسية، تتنازعنا نغماتها وتتداخل أحيانًا لتصدر نشازًا مُفزعًا قد يدنينا مِن هاوية الجنون أو بئر الكآبة، فنتوق إلى عزف منفرد، ننشد الإنصات إلى نغمة واحدة واضحة نسلمها أنفسنا، وعندئذ تكون العزلة أيضًا هي الحل، لأن التأمل الصامت قادر على غربلة الأصوات الداخلية، سواء في تجربة روحية شديدة الوطأة يُمتحَن فيها إيمان صاحب الرسالة بمواجهات واختبارات مع كيانات شيطانية، أو عبر تنسيق فوضى الداخل وتنقية صخبه العنيف بالعَمل الفني عند الفنانين والكُتَّاب.

مع هذا، فبقدر ما للعزلة وللصمت مِن نِعم وهبات تحيط بهما أيضًا الفِخاخ والمخاطر، فماذا لو استمرأ المرء عُزلته، سواء أكان صاحب تجربة روحية أم فنية؟ ماذا لو استجاب لنداء شياطين الوحدة توسوس له بأن يكتفي بموضعه هذا عن العالَم كله، وألَّا يشغل نفسه بما هو خارج كهفه؟ عندئذ لَما كانت نبوة ولا رسالة ولا منتَج فني ولا ثورة ولا اختراع ولا تغيير، فمِن غير أن تتجسَّد أي تجربة في لغة وأفكار، حتى تُنقَل وتختبَر وتتطوَّر، ستبقى ألعابًا ذهنية واستمناءً نفسيًّا، شيء أقرب إلى زبد موجةٍ في حُلم يتبدد بمجرد اليقظة.

-3-

لأنطون تشيخوف قصة قصيرة عنوانها الرهان، استعيدت مؤخرًا بسبب ظروف العزل الذي نمر به.

يحيى الفخراني في مشهد من السهرة التليفزيونية الرهان

وهناك نسخة مصرية منها؛ سهرة درامية تليفزيونية من ثمانينيات القرن الماضي، متاحة على موقع يوتيوب، أعدَّ لها السيناريو والحوار شنودة جرجس وأخرجها أحمد صلاح الدين، وقام بالدورين الرئيسين فيها كلٌّ من يحي الفخراني وعبد الرحمن أبو زهرة.

تدور أحداث القصة باختصار حول رهان بين رجلين، مصرفي يتكلم بلغة المال ومدمن على الدخول في رهانات ومحامي شاب عنيد وطموح. بدأت اللعبة بخلافهما حول عقوبة الإعدام وهل هي أرفق وأرحم مِن السجن ولو مؤبَّد أم أن السجن أشد قسوة مِن الموت. رأى المصرفي أن الإعدام أهون من السجن، فتحدَّاه المحامي المثقف بأن السجن مهما كان يمكن احتماله، وأنه أفضل مِن الموت. وسرعان ما أخذتهما حرارة النقاش ودخلا في رهان قيمته مليونا روبل يدفعها المصرفي للمحامي إذا استطاع أن يعيش وحده تمامًا (بمعنى أصح مسجونًا اختياريًّا) لخمسة عشر عامًا، وقبل المحامي الرهان وكتبا عقدًا على ذلك وبدأ المحامي مسيرته الطويلة في غرفة صغيرة في قبو منزل المصرفي، وأخذ يمضي أوقاته في القراءة والكتابة وعزف البيانو وتعلم أشياء جديدة. هل يُذكرنا هذا كله بشيء ما؟ كيف كانت هذه القصة ستختلف لو جرت في عصرنا الحالي مع وجود الإنترنت؟

ترصد القصة التطور الروحي لهذا السجين الاختياري، مِن الكآبة والشعور الحاد بالوحدة إلى الاجتهاد في الدرس والمطالعة وتعلم اللغات والعلوم، ثم الاتجاه إلى العقائد والأديان والكتب المقدسة، وأخيرًا دراسة العلوم الطبيعية معَ الترويح عن نفسه بشيءٍ مِن شعر

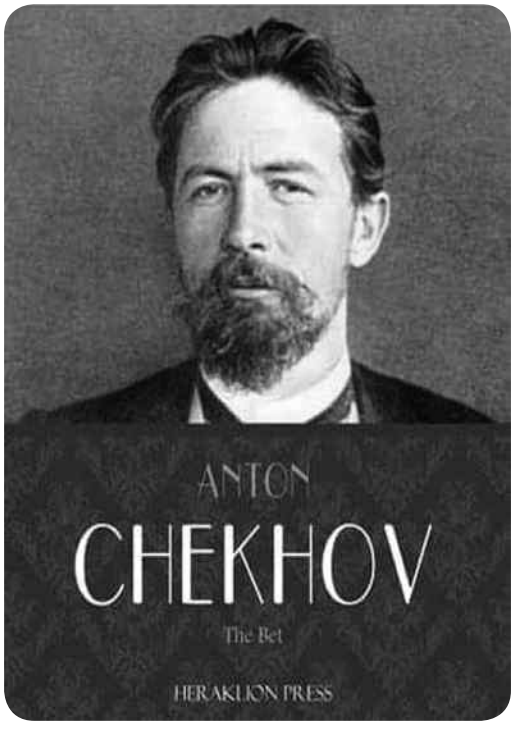

غلاف إحدى طبعات قصة الرهان وقصص أخرى

بايرون ومسرح شكسبير. تكتمل اللعبة الدرامية برغبة المصرفي بقتل المحامي، لأنه خسر معظم ثورته خلال تلك السنوات وإذا كسب صاحبنا الرهان فسوف يشهر إفلاسه، وهكذا قبل يوم واحد من المدة المتفق عليها ينزل إلى محبسه عازمًا على قتله، لكنه يجد هنالك بدلاً من المحامي رسالة تنازُل عن مكافأته المالية، لأنه عرف في محبسه ما هي الثروة الحقيقية للإنسان.

لماذا خرج المحامي الطموح المثقف من محبسه قبل يوم واحد فقط مِن فوزه بالرهان وحصوله على الثروة؟ وإذا كان بلغ السعادة الروحية في محبسه فلماذا خرج مِن الأساس؟ ألم يكن بوسعه التنازل عن حقه في المبلغ الكبير، وأن يطلب استمرار الوَضع على ما هو عليه، مستمرًا في القراءة والترقي الفكري والروحي؟ ألم يخشَ مواجهة العالَم الخارجي بكل ما طرأ عليه مِن تغييرات خلال تلك السنوات؟هل المعرفة التي اكتسبها عابرة للأزمان والأماكن وقادرة على الصمود حقًا في وجه أي متغيرات وموضات في المجتمع؟ هل توجد هذه المعرفة أصلاً؟ أم أن المسألة كلها لعبة درامية لإثبات التحول الروحي الذي طرأ على السجين مع عكوفه على ترقيه الروحي بدلاً مِن الصراع المتواصل في العالَم الخارجي بنتائجه غير المضمونة مثل ألعاب المقامرة؟ وأخيرًا هل سينتفع أي شخص غيره بما بلغه في عزلته وهل لم يزل يملك القدرة على التواصل مع الآخرين لنقل خبرته إليهم، أم أن مجانين الشارع سوف يزدادون واحدًا وينتهي الأمر على ذلك؟

-4-

تردد الحديث أخيرًا عن مخاوف مِن متلازمة نفسية تسرَّبت إلى ملايين مِن الإيطاليين والإسبانيين والصينيين (حتى مع ما يقال عن السيطرة على المرض هنالك)، وهي متلازمة الكوخ، وهي باختصار أن يجد المرء صعوبة بالغة في مغادرة منزله الذي أصبح ملجأ آمنًا بالنسبة له؛ يحميه من تهديدات العالَم الخارجي، وهو فيروس كورونا المستجد في حالتنا هذه. شُخِّص العَرض لأول مرة في مطلع القرن العشرين، وسط الصيادين والمنقبين عن الذهب في أمريكا، حيث كانوا ينتابهم قلقٌ بالغ إزاء الخروج من الأكواخ بعد ملازمتها لأشهر عديدة. وقد تصيب هذه المشكلة الشخص الذي اضطر لقضاء عطلة طويلة بمفرده في بيت ريفي، أو فترات طويلة في غواصة تحت الماء، أو انعزل عن الحضارة لسبب أو لآخر [لدى بول أوستر حالات شبيهة في روايته ثلاثية نيويورك].

لم يعد الخطر بيولوجيًّا فقط، ولم يعد في الخارج فقط. صارَ الخطر نفسيًّا، ويخالطنا في داخل الجدران كذلك، وهو ببساطة أن نعتادَ الجدران، بل أن نحبها إلى درجة ألَّا نتخيَّل إمكانية الابتعاد عنها. ولعل بعض الناس في مدن مثل القاهرة، المدن شديدة الازدحام والصخب والتلوث والمهددة للأعصاب والسكينة بألف طريقة، لعلَّهم أصيبوا بالفعل بمتلازمة الكوخ، حتى مِن قبل الوباء، وصاروا مستعدين لاستكمال ما تبقى من حياتهم في أمان بيوتهم، أمام الشاشات التي تتيح لهم تواصلاً افتراضيًا مع العالَم الخارجي.

وعلى عكس سجين تشيخوف وشخصيات أوستر المنحوسة، لم نُعزَل عن العالَم انعزالاً كاملاً، نخرج ونرجع ولو لقضاء مشاوير ضرورية سريعة، البعض مضطر إلى الاستمرار في العَمل والبعض فقدَ ذلك العمل، البعض يعمل من المنزل أصلاً ولكن عزلته أصبحت جديدة، شأنه شأن جميع الآخرين، بعد أن اتخذت سَمتًا اضطراريًّا بإضافة الحظر الليلي والإحساس بالخوف من التواصل مع الآخرين والاختلاط عمومًا.

صرنا على جزرٍ شبه مستقلة، حدودها ليست المياه التي تحيط بها بل هي جدرانها، وإن لم تكن جزرنا معزولة تمامًا، لأنه حتى في أشد حالات فرض الحجر الصحي في

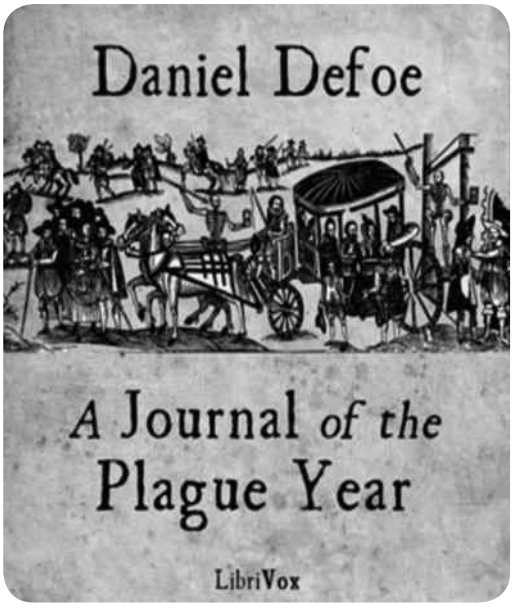

غلاف يوميات عام الوباء

بعض المدن الغربية تبقى لسكّان البيوت فرصة الإطلال على العالَم الخارجي عبر وسائط وشاشات عديدة. جزرنا الخاصة التي نعيش عليها ليست جزيرة روبنسُون كروزو، لأن فيها الراديو والتليفزيون وأجهزة الكمبيوتر والهواتف المحمولة وخدمات الإنترنت بما تكفله من إمكانيات تواصل وتفاعل لحظي مع مَن نشاء متى نشاء. هل هي مصادفة أن يكون كاتب أشهر رواية في أدب الانعزال عن العالَم (روبنسون كروز) هو نفسه دانييل دافو Daniel Defoe الذي شهدَ في مستهل حياته طاعون لندن العظيم، الذي أودي بحياة نحو سبعين ألف شخص، والذي كتبَ عنه في ما بعد كتابه يوميات عام الوباء؟ فكأنَّ العُزلة التامة عن الآخرين لا تنفصم عن الخوف منهم ومن شبح الموت الذي يهدد الاختلاط بهم؟

-5-

تُغرينا تلك النوافذ الإلكترونية والافتراضية، المطلة على العالَم الخارجي، بالاستغناء عنه مكتفين بصورته ونشرات أخباره، ربما كما فعلت الكتب مع بطل قصة الرهان. تلك النوافذ تزودنا أيضًا بإمكانات لا نهائية مِن فرص قتل الوقت والتسلية الرخيصة السهلة، الألعاب الإلكترونية على سبيل المثال، ثم ترسانة الأفلام والمسلسلات التي لا تنفد زخائرها مهما طال بنا العمر، والكتب الإلكترونية المجانية التي أتاحتها بعض المواقع مجانًا لوقت محدد، والبرامج والتسجيلات والندوات، إلى آخره. إنها مغارة على بابا الموجودة على شبكة الإنترنت تغري بتقبل السجن، بل والوقوع في غرامه، وعَدم الرغبة في الخروج منه ولو انقضى خطرُ الوباء بعد أشهر قليلة، أي تغري بفخ الكوخ وحالة السجين السعيد. لعل الصناعة الوحيدة التي يمكن أن تنتعش في مثل تلك الأجواء هي صناعات الترفيه والتسلية، لكنه ذلك النوع من الترفيه الذي يتجنَّب الأماكن العامة والتجمعات ويقدَّم للناس على انفراد في جرعات شخصية لا يزيد عدد متلقيها عن سكان البيت الواحد، بل لكل منهم على حدة في أغلب الأحيان.

الشوارع الخالية من التجمعات حلم كل نظام مستبد، وربما في هذه النقطة على الأقل تبدو إحدى نظريات المؤامرة التي ظهرت لتفسير الوباء محقة. تلك النظريات التي تعيد بدرجة ما أصداء وأجواء العصور الوسطى عند التعامُل مع الأوبئة، حيث الشر الخفي يتلاعب بنا ويسوق قطعان الجماهير لتصديق ما يريد. تجاهل أصحاب تلك النظريات أعداد الوفيات وصور طوابير التوابيت الخشبية المتوالية في بعض مدن إيطاليا، والأهم من ذلك تجاهلوا طغيان بعض الأنظمة، وانعدام حاجتها إلى خلق بُعبع إضافي لتستخدمه في إحكام السيطرة على شعوبها، وأن سجون تلك الأنظمة ممتلئة بالفعل بمَن تجاسروا وخرجوا عن الخطوط المرسومة للجميع.

ربما يخطر أولئك السجناء على البال كثيرًا في حبسنا الراهن، الذي لا نطيقه مع أنه محكوم بساعات، ومع كل المتاح لنا مِن خدمات ومن نوافذ على العالم وآليات للاتصال به والتفاعل معه، وهي كلها رفاهيات لا يحلم بها أي سجين في العالَم، وخصوصًا في الأنظمة الاستبدادية. أولئك السجناء أيضًا لهم رحلاتهم التي عليهم أن يقطعوها يوميًّا، بين جدران زنازينهم. رحلة تمرير الأيام، ورحلة التفاوض والمقاومة للحصول على بعض الحقوق أو الاعتراض على الحرمان من بعضها الآخَر، ورحلة الحكي والاستعادة والنقاش وتبادل الخبرات، ورحلة تخيل الحياة وسيرها وشكلها في الخارج. تلك أيضًا رحلات روحية وفكرية سمعنا بها وقرأنا عنها، لكنها لا تصبح خفيفة هكذا أو أليفة إلَّا بعد أن تنقضي مدة العقوبة أو ينتهي الاعتقال غير المبرر، أمَّا طالما امتدَّ زمن السجن فقد امتد الكابوس وظلت تلك الرحلات عبئًا ثقيلاً مثل صخرة يزحزحها السجين وأهله ومعارفه وأصدقاؤه كل يوم حتى رأس جبل، لتتدحرج من جديد عند نهاية اليوم، وهكذا إلى أجلٍ غير معلوم في كثير من الأحيان.

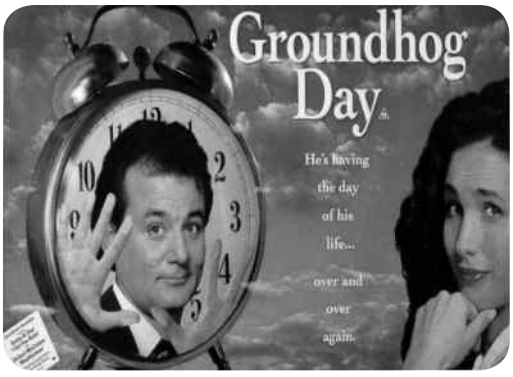

بوستر فيلم Groundhog Day

The Guardian

Sport | Comment | Culture | Business | Money | Life & style | Travel | Environment | TV | Video | Data | Mobile | Offers

A life inside

I'm about to get out, 20 years after I was sent down - but I still can't quite believe it's going to happen

Erwin James
Thursday 5 August 2004
The Guardian

مقال «حياة بالداخل» المنشور في صحيفة الجارديان

إن تَشابه وضعنا الراهن مع حياة السجناء ليس مجرد مجاز طريف، فعلى الأقل من ناحية الإحساس بالزمن هناك مشتركات. ما دفعَ جوناثان فريلاند، كاتب عمود في صحفية الجارديان، للاتصال بإروين جيمس، الذي قضى عقوبة عشرين عامًا في السجن بسبب تورطه في جريمة قتل، وظل طوال تلك الفترة تقريبًا يكتب عمودًا منتظمًا للجارديان بعنوان حياةٌ بالداخل. ومع إدراك فريلاند أن الفرق شاسع بين التجربتين، فقد فاجأه رد جيمس بأنَّ أشياء كثيرة للغاية تعيد أصداءَ أيام السجن «إن أي سجين سوف يتعرَّف على تلك المفارقة المُنهكة للأعصاب [...] الأيام تمضي بخطى ثقيلة لكنك تستيقظ ذات يوم وقد مرَّ شهر وتقول لنفسك: «أي لعنة خطفت ذلك الشَهر؟».

يتطابق جوهرُ هذا الوَضع مع أحداث فيلم يوم فأر الأرض (Groundhog Day 1993)، فَعندما لا يختلف أي يوم عن اليوم الذي يليه بالمرَّة، يصير الوقت مُتخثرًا بلا شكلٍ أو قوام، ويصعب القبض عليه. يقول السجين السابق: «كأن الواحد يسير خائضًا في الدِبس، بالحركة البطيئة». أو بتعبير فيكتور سيرج؛ الثوري الروسي الذي قضى فترات سجن متتالية: «هناك ساعاتٌ تمر في لمح البصر، وثوانٍ تدوم كأنها الأبد».

-6-

ليس في السجون فقط تتشابه الأيام، سواء السجون الحقيقية أو تلك التي يفرضها علينا الحظر والإغلاق والتزام البيوت. تتشابه أيام كثير من الناس عندما ينغلق عليهم روتين عمل غير إنساني يأكل أعمارهم ليكفلوا لأنفسهم ومَن يعيلونهم عيشَ الكفاف. تتشابه أيام كثير من الشعوب عندما تمر الأعوام والعقود مِن غير أن يقع فيها ما يحرك المياه الراكدة أو يهز نفوسهم.

حين تنعدم فرص اللقاء بالخارج، في الساحات والشوارع والميادين، وتحت الريح والشمس والنجوم، يتكرس مبدأ الاجتماع الافتراضي والتواصل عن بُعد، وتتبلور آليات النشاط الاجتماعي والسياسي من وراء الشاشات وحسب. وهكذا تضاعفت قدراتنا على السفر ونحن بين جدران غرفنا وبيوتنا، السفرِ عبر الكتب والأعمال الفنية، وعلى العمل مِن المنزل والحُب من المنزل والنضال من المنزل. القدرة الوحيدة التي يبدو أننا تنكمش وتتقلص مع الوقت حتى أمست مهددة بالانقراض هي قدرتنا على هدم تلك الجدران، أو تجاوزها ولو بخطوات قليلة، نحو بعضنا البعض، ونحو جميع المخاطِر القديمة الأليفة التي كنا نسميها ذات يوم حياتنا.

«هل رأيت قسم التعليقات في أي مكان بموقعنا؟ هل رأيت ذلك الغضب؟ قسم التعليقات هذا بالنسبة للبعض كان المجتمع الحقيقي الذي ينتمي إليه الكثيرون، ربما أكثر من مدنهم نفسها».

* ستيف بانون المنتج السينمائي والمدير السابق لحملة دونالد ترامب في الانتخابات الرئاسية الأمريكية 2016، وأحد مستشاريه السابقين بالبيت الأبيض، ورئيس التحرير السابق بموقع برايتبارت ذي التوجهات اليمينية المحافظة.

«الأمر يتعلق بطرف ملتزم بالقواعد في مواجهة طرف لا يظهر أي احترام لها مطلقًا، مطبقًا قواعد جديدة ملتوية. ولن تتعادل الكفتان حتى يتعرض الطرف الثاني لضربات صاعقة متوالية بفضل تلك القواعد التي وضعها نفسها، كان الأمر مجزيًا بالنسبة لي، أن يشرب الحزب الجمهوري من الكأس نفسها. التدليس كان قادمًا لا محالة. لقد وقعت ضحية له من قبل، فلماذا لا تتعرض له أنت بالقدر نفسه؟».

* توم أوسبورن أحد المناصرين للنائب الديموقراطي دوج جونز عن ولاية ألاباما لمجلس الشيوخ الأمريكي متحدثًا عن الاستراتيجية الناجعة لقهر المنافس الجمهوري المتشدد روي مور.

2

ما بعد الحقيقة واليقين والأبوكاليبس: "دكاكين" البارانويا

خالد يوسف

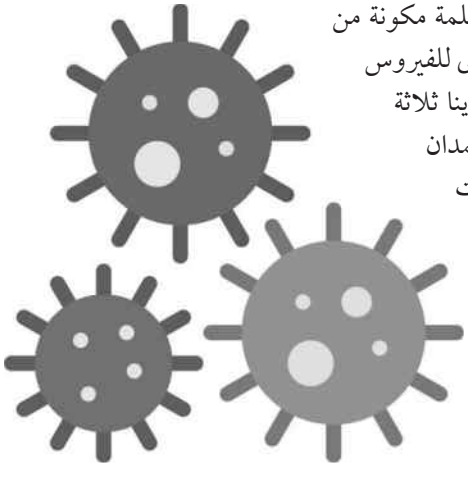

كورونا (بالعربية والإنجليزية وهو أمر لو تعلمون عظيم) كلمة مكونة من ست أحرف. ما أخفته وسائل الإعلام الصينية أن البؤرة الأولى للفيروس بمدينة ووهان في شارع معروف شعبيًّا بشارع 66، (إذن لدينا ثلاثة أرقام كلها ستة)، وهو الرقم الذي أشار إليه إنجيل يوحنا المعمدان اعتباره رقم الشيطان أو الوحش الكبير، المرتبط ظهوره ببدايات نهايات الزمان.

لم يبلغك أحد بأن المحاولات الأولى لبناء أبراج الجيل الخامس من الهاتف المحمول كانت في ووهان، (مصادفة أليس كذلك؟!)، تمامًا مثلما ارتبط كل وباء عرفه القرن العشرين بتحديث أو تطوير لشبكات الاتصالات في منطقة ما من مناطق العالم، (هل يذكركم اللاسلكي بالإنفلونزا الإسبانية؟ مصادفة أخرى)، لا أحد يريد إبلاغك عدم رغبة «النخب» من أمثال بيل جيتس، وإيلون ماسك، أو ستيف بيزوس، أو مارك زوكربيرج بالحديث عن طبيعة تلك التحديثات.

شوارع ووهان خلت من المارة والسيارات
خلال فترة الحظر لمحاصرة بؤرة الوباء

ليس فقط من أجل الحفاظ على أعمالهم، وليس فقط من أجل تمويل بزنس رابح يتعلق بصنع الوباء، وهو صنع لقاحه. بل من أجل زرع شرائح إلكترونية تستقر في أوردة البشر، يمكن من خلالها الاحتفاظ بكل معلوماته الأمنية والبيولوجية، ودفع الفواتير، والمرور من بوابات المطارات بعمل مسح كامل على الجسم. ستكون تابعًا وظيفيًّا كإنسان لشركة هي التي تدير تفاصيل حياتك، هل هذه مصادفة؟ حركة الصانعين الجدد أو المتنورين تتحدث في جزء كبير من خططها المستقبلية حول مغادرة الأرض والتواصل مع كائنات أخرى، وما هي أمنية أناس مثل ماسك وبيزوس والتي أفصحا عنها في أكثر من مناسبة؟ نعم، البدء في القيام برحلات إلى الفضاء وتأسيس حياة مستقرة على القمر؟ يا لها من مجموعة من المصادفات المتجاورة!

مشهد من فيلم "عاري"

قبل 27 عامًا كانت تلك النظرية العبثية ستصلح كمونولوج خاص بشخصية جوني في فيلم «عاري» للمخرج البريطاني مايك لي. ذلك الشاب الهارب من رمادية مانشستر إلى تعقيدات العاصمة لندن. جوني

أليكس جونز

شخص فائق الذكاء أضحى هائمًا على وجهه طول اليوم، يتحدث إلى غرباء عن النهاية السوداوية لعالمهم الهش. ومنهم فرد أمن لمبنى إداري أنيق، أفصح له جوني عن معتقداته الخاصة بقرب اكتمال كل علامات نهاية العالم، إنه لا يرغب في حدوث هذا، ولكنه يبدو مبشرًا فاقدًا الأمل. يلعن الدوامات التي تلهي رفاقه من البشر عن إدراك مثل هذه الحقائق.

إنه النسخة الأكثر ثقافة من هائمي السينما، والذين شغلوا موقعًا مميزًا من تفكير صناع أفلام من عقد التسعينيات، ذلك النوع من الشخصيات التي استحوذت على اهتمام مخرج مثل الأمريكي ريتشارد لينكليتر، المفتون بذلك الهوس الجامح لهؤلاء الهائمين، العاقدين لصداقات عابرة معظم الوقت. اليقين الشديد الذي يساورهم إزاء الشك في كل حدث سياسي مهم في القرن العشرين؛ فقاتل كينيدي حر طليق، وربما يشغل منصبًا سياسيًّا مرموقًا، وأبوللو 11 لم تهبط قط على القمر، وكل ما حدث هو من تنفيذ ستانلي كوبريك، والحكومة الأمريكية تجري اختبارات للمخدرات المتطورة بشكل دوري ممنهج على متطوعين من البشر، ومكتب التحقيقات الفيدرالية يزرع ميكروفونات للجميع.

جنة الهائمين الجديدة

هذا النموذج من الهائمين تحقق واقعيًّا من خلال شخصية حقيقية متمثلة في **أليكس جونز**؛ واحد من أوائل مشاهير نظرية المؤامرة، والذين حققوا شهرة عريضة كشخص «مخبول» خفيف الظل أحيانًا، لديه بعض من النظريات المسلية عن الحبكة المحكمة التي ترسمها الحكومة الفيدرالية للتحكم في مقدرات وحريات وحقوق المواطن الأمريكي. افتتان لينكليتر بجونز وصل مداه للاستعانة به

بشخصيته الحقيقية ضمن فيلم «حياة اليقظة» (2001) والذي عرض تجاريًّا في أسبوع هجمات سبتمبر على

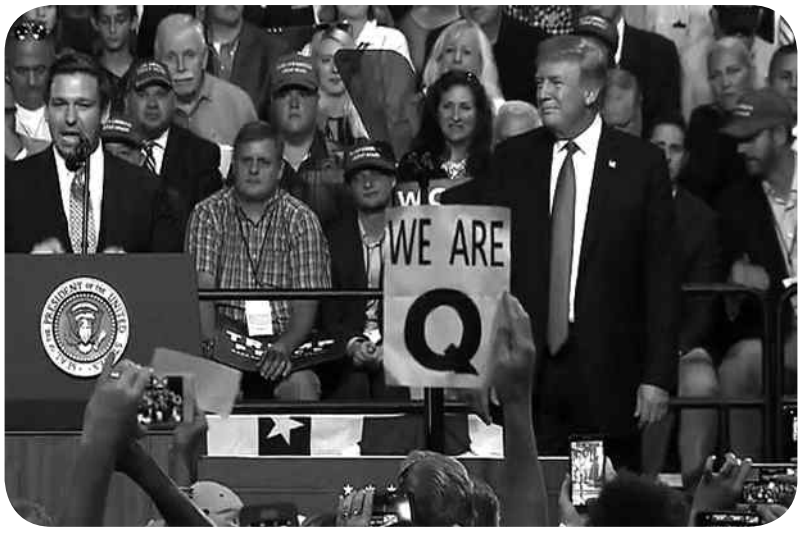

شعار كيو آنون مرفوعًا في أحد مؤتمرات ترامب

نيويورك. أليكس جونز كان واحدًا من بائعي الأفكار من بين عشرات الأيديولوجيات التي عرضها لينكليتر في فيلمه فائق الأهمية. ولعله الأكثر بقاءً في الذاكرة من بين شخصيات الفيلم بصوته الأجش، وصراخه المتواصل كمجذوبي القرية، المبشر بالمؤامرة اليومية الكبرى التي تمارس على مواطني بلده؛ صراخًا كان متسقًا في مصادفة مثيرة آنذاك، نظرًا إلى كل النظريات التي أحاطت بهجمات 11 سبتمبر دون إجابة شافية عليها.

بعد قرابة عقدين من الصراخ، أليكس جونز له ملايين من المتابعين لبرنامجه الإذاعي (على الرغم من حرص مؤسسة تويتر على حذف حسابه أخيرًا)، لديه القدرة على جذب ملايين آخرين في أي منصة إعلامية يحل عليها ضيفًا، ولكن الأمر لم يتوقف عند حد المنصات الإعلامية، بل حمل شهر مايو 2020، وفي وسط معمعة فيروس الكورونا خبرًا سارًا لعشاق ذلك النمط من حياة المؤامرات بفوز النائبة جو راي بيركينز بمقعد الحزب الجمهوري بولاية أوريجون الأمريكية، تمهيدًا لدخولها انتخابات مجلس الشيوخ في نوفمبر المقبل؛ موجهةً شكرها الأكبر لذلك الدعم الكبير من جمهور متابعي طائفة كيو أنون الافتراضية، والذي كان حاسمًا في الفوز بمقعد الحزب. خصوصًا فيما وصفته بين أوساط تلك النوعية الخاصة من المحافظين. في تحول حقيقي في نوعية الجمهور الذي أصبح مرجحًا في أي انتخابات مستقبلية بالمسرح السياسي الأمريكي، حسب تقرير مطول مفصل أجرته مجلة ذا أتلنتيك العريقة عن تلك الطائفة المثيرة.

ذا أتلنتيك خصصت واحدًا من أبرز تحقيقاتها لعام 2020 بعنوان «**أكثر أهمية مما تعتقدونه**» عن طائفة الكيو أنون، والتي كان من الممكن التعامل معها قبل 2016 باعتبارها منصة لمجموعة من المهاويس، من أصحاب أوقات الفراغ. فتلك المنصة التي بدأت كحساب مجهول على موقع «**فورتشان**» التفاعلي عام 2017 أضحت أكبر طائفة لترويج نظريات المؤامرة المفضلة لدى اليمين الأمريكي، خصوصًا في جناحه الأكثر تطرفًا.

باراك أوباما

كوكتيل من السيناريوهات عن الحبكات العديدة التي قام بها رموز الحزب الديموقراطي خلال عهد أوباما

لحظة الهجوم على مسجد نيوزلندا التي وثقها منفذ العملية بالفيديو

لقلب هوية النظام السياسي الأمريكي. منصة تزعم تقديم ملفات ووثائق سرية عن الشبكات التي تنخر في عظام ذلك النظام (كيو إشارة إلى تصريح الأمان الذي يكفل بالاطلاع على الملفات السرية لوزارة الطاقة الأمريكية، وتحديدًا في قطاع الأسلحة الذرية). كل هذا ممزوج بمجموعة من الإحالات إلى معظم نبوءات الكتاب المقدس فيما يتعلق بعلامات الساعة، تحت شعار موحد يطغى على مشاركات أعضاء الطائفة إلكترونيًّا «**حيثما يذهب أحدنا، سنذهب جميعًا**».

مذهب ديني إلكتروني جديد يضم نخبة من أوفى مناصري الرئيس دونالد ترامب. منهم ليونيل ليبرون الذي يعتبر بأنه أكبر مروجي الطائفة، والذي حظي بفرصة التقاط صورة مع ترامب في زيارة تأييد بالمكتب البيضاوي في أغسطس 2018. بعدها بعام كان مكتب التحقيقات الفيدرالي يضع تلك المنصة ضمن القائمة المحتملة لتنشيط الإرهاب الداخلي بالولايات المتحدة.

من البيتزا حتى نهاية العالم

كيو أنون استحوذت على اهتمام متصاعد في السنوات الأخيرة إلى الحد الذي أجبر شبكة قنوات HBO على إنتاج وعرض الفيلم الوثائقي «**ما بعد الحقيقة**»، الذي يقتفي أثر الأخبار الكاذبة الفادح على عالم السياسية الأمريكية، خصوصًا ما أحدثته منصة كيو أنون في إطلاق شرارة ما أطلق عليها «بيتزا جيت» في أكتوبر 2016. والتي انتهت بهجوم شاب يميني غاضب على مطعم البيتزا «بينج بونج كوميت»، الذي يدير حلقات لاستغلال المراهقين والأطفال جنسيًّا في قبو تحت المطعم (وفقًا لما زعموه بعد تفريغ رسائل البريد الإلكتروني الخاصة بهيلاري كلينتون).

كيو أنون لم تسهم فقط بهذه الإنجازات، بل إنها ساعدت في التحفيز المعنوي لأحد خريجي المنصة، وهو منفذ الهجمات على مسجد في نيوزلندا في ربيع عام 2019. من خلال سلاسل المحادثات التي أجراها الذئب المنفرد مع رفاقه بالمنصة وخلال غرف الدردشة التي تعج بها منصة أخرى «إيتشان». إلى جانب بعض الإنجازات الجانبية مثل محاولة إثبات مكان ولادة أوباما، وأن عائلة كلينتون قد تكون تسببت في مقتل أعضاء بالحزب الديموقراطي على خلفية واقعة تسريبات هيلاري، وأخيرًا وليس آخرًا إيجاد الوثائق التي تثبت أن أنجيلا ميركل هي واحدة من حفيدات هتلر شخصيًّا.

عامل الدهشة كان لافتًا من خلال السطوة التي تحظى بها طوائف نظريات المؤامرة منذ تفشي وباء كورونا، وارتباطها بالحركات الموازية للحركة في مواقع أخرى من العالم. إلى الحد الذي جعل من الفيديوهات والحوارات التي أجراها برايان روز مؤسس **قناة لندن رييل** على اليوتيوب (مع نخبة من المشككين في جدية ظاهرة كوفيد 19) هي الأسرع في الوصول إلى رقم المليون مشاهدة، وتحديدًا مع محلل نظريات المؤامرات «المحترف» ديفيد آيك. تلك الشعبية التي حظي بها روز أقنعته بتسمية ملايين المتابعين بـ«جيش لندن رييل»، خصوصًا في أعقاب إجراءات الحذف والرقابة التي قامت بها منصات التواصل الاجتماعي ضد فيديوهات آيك المثيرة للجدل.

بوستر مسلسل النهاية

وتكتمل صورة الدهشة بشكل أكبر في حالتي السيولة والرواج التي حظيت بها العديد من القنوات الداعمة لنظريات كيو أنون، ولكن في نسختها الشرق أوسطية. لتضحى الفيديوهات التي تتناول القدوم المرتقب للمسيخ الدجال وتحليل شفرات مسلسل النهاية ليوسف الشريف أكثر عددًا من قنوات متابعة الدوريات الأوروبية لكرة القدم. مع تعميق الفلسفة نفسها التي يدعمها التيار اليميني الجديد بأن المعركة هي صراع على الهوية، معركة إيمانية في المقام الأول. ومن الخطأ الفادح قياسها أو تحليلها بمسطرة العلوم السياسية، فهي أكبر حجمًا وأعظم جلالًا.

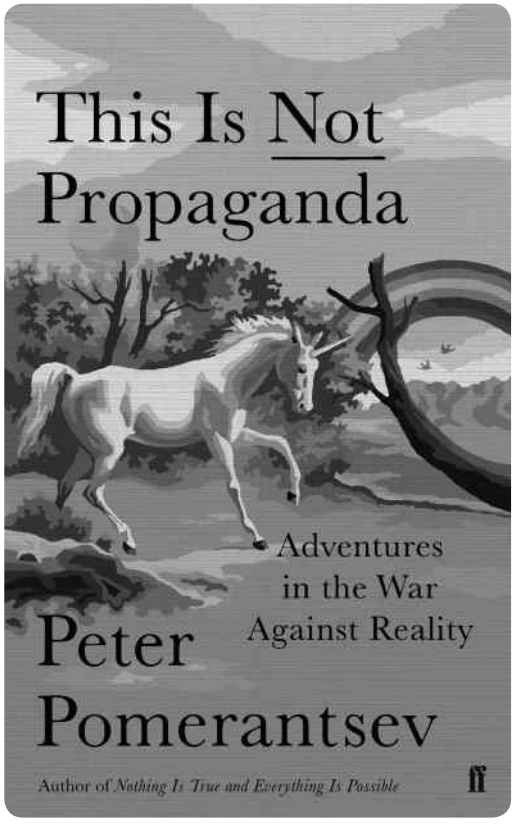

غلاف الطبعة الإنجليزية من كتاب هذه ليست بروباجندا

أحد أهم الأصوات التي شغلتها علاقة الديموقراطية بالإنترنت كان الكاتب والباحث الروسي بيتر بوميرانتسيف، الذي أصدر كتابه الأخير «**هذه ليست بروباجاندا**» العام الماضي، متناولًا الظواهر المثيرة التي جمعت «الشامي والمغربي» سياسيًّا خلال العام الماضي، خصوصًا على مستوى توظيف وسائل الاجتماعي ضمن التيار الشعبوي الجديد في الديموقراطيات الغربية، وفي مواقع مماثلة بالشرق الآسيوي، مثل الفلبين التي خصص لها بوميرانتسيف فصلًا كاملًا.

استراتيجيات بافلوفسكي

الكاتب الروسي الأربعيني يؤكد أن طفولته خلال آخر سنوات العصر السوفييتي ثم فترة الانتقال الفوضوي للنموذج الغربي السياسي كانت خير إعداد له لتفهم التقلبات التي تسبب بها الإنترنت. خصوصًا على صعيد الحملات الدعائية، وتحديدًا تخصيص الحملات السوفيتية الرسمية التي أشارت مثالًا إلى أن فيروس الإيدز في الثمانينيات هو صناعة المخابرات الأمريكية للقضاء على أفريقيا «**هل يتشابه هذا مع التراشق الأمريكي الصيني حاليًا؟**».

إنها الاستراتيجية نفسها التي روجت لفكرة صناعة فيروس زيكا البرازيلي لاستهداف الروس المقيمين في أوكرانيا المارقة. استراتيجية متسقة للغاية سياسة عرض الباقة الكاملة من المؤامرات الراسمالية لاستهداف التجربة السوفيتية خلال الحرب الباردة وصولًا إلى عام تولي جورباتشوف مقاليد الحزب الشيوعي في منتصف الثمانينيات.

جليب بافلوفسكي

يكاد بوميرانتسيف في لقاء مع أستاذ العلوم السياسية والكاتب جليب بافلوفسكي إلى أن التجربة الروسية الانتخابية خلال التسعينيات كانت أرضًا خصبة لما تختبره العديد من الديموقراطيات حاليًا. بافلوفسكي خصص قسطًا كبيرًا من حواره عن إدارته للحملات الانتخابية التي أهدت بوريس يلتسين مقعد الرئاسة مرتين. من خلال عدم التركيز على ترسيخ خطاب أيديولوجي تقليدي. في المقابل كانت الاستراتيجية هي استهداف المجموعات المتناثرة المتناقضة للناخبين، وجمعهم في فئات كالعرائس الروسية الشهيرة.

يقول بافلوفسكي «**يكفيك أن تجمعهم معًا لفترة قصيرة، ربما للحظة عابرة واحدة، هي لحظة التصويت فقط كمجموعة واحدة مستقلة سياسيًّا، قبل أن يتفرقوا في اليوم التالي. من أجل ذلك يجب عليك أن تصنع أسطورة تقنعهم بأنهم ينتمون جميعًا إلى كيان واحد**».

حسب بافلوفسكي، كانت الأسطورة التي استخدمها في انتخابات عام 1996 هي إقناع الناخب الروسي أن عدم انتخاب يلتسين كفيل بإشعال حرب أهلية. وأن انتخاب الرجل ضمان وحيد لعدم انهيار البلاد، حتى لو لم تكن مناصرًا له؛ البقاء على قيد الحياة كان الأسطورة المطلوبة في تلك اللحظة.

بافلوفسكي استخدم أساليب مبتكرة – أضحت نبراسًا لصناع الحملات الإلكترونية لاحقًا، مثل الاستعانة بممثلين باعتبارهم أعضاء في الحزب الشيوعي في تصوير إعلان يقومون فيه بحرق الكتب المقدسة، بالإضافة إلى اسكتشات كوميدية تليفزيونية يظهرون خلالها استعدادهم شن حرب آنية على أوكرانيا.

المفارقة الأكبر أن بافلوفسكي الذي قضى السنوات الأخيرة من الاتحاد السوفيتي منفيًّا كمعارض شرس عانى الأمرين من رجال الكي جي بي أضحى نفسه أحد مديري حملة تقديم فلاديمير بوتين كـ«مشروع رئيس» عام 1999، وهو الضابط السابق بالكي جي بي نفسه. وتحت شعار جذاب مفاده «مساعدة روسيا على النهوض مجددًا من ركوعها»، وهو شعار قد يجد نغمًا خاصًا لعشاق الرئيس ترامب في تنويع أمريكي مختلف على اللحن نفسه.

جحيم النوستالجيا

في واحد من أهم فصول الكتاب يشير بوميرانتسيف في تناوله لبدايات تأسيس الشعوبية الإلكترونية الجديدة. وتحديدًا لما أشارت إليه مواطنته سفيتلانا بويوم عالمة اللغة إلى أن القرن العشرين بدأ برغبة في بناء يوتوبيا وانتهى بشعور من النوستالجيا، والحادي والعشرين بدأ برغبة أكبر مضاعفة تلك النوستالجيا، وتضيف أنه يوجد نوعان من النوستالجيا: الأول هو«**نوستالجيا متأملة تبحث عن الفوارق بيت الماضي والحاضر والمستقبل. والثانية هي نوستالجيا رجعية، تحاول بناء الوطن الضائع بإصرار فولاذي من البارانويا ـ تهمل التفكير النقدي لشراء نوع من التعاضد العاطفي، تلك النوستالجيا يمكنها أن تصنع الوحوش**».

يكاد يصل العديد من علماء السياسة الذين يكتظ بهم كتاب «هذه ليست بروباجاندا» إلى أن الشعبوية الجديدة ليست أيديولوجية، ولكنها أضحت استراتيجية في المقام الأول. بإمكانها أن تجمع طرفي النقيض تحت مظلة واحدة في لحظة قلق مشتركة. تمامًا كما حدث في استفتاء البريكست. والذي استخدم فيه صقور اليمين البريطاني التكتيكات والشعارات نفسها التي رفعها رموز الحركة النسوية اليسارية الأمريكية في السبعينيات، والتي كان مفادها «**أن ما تمت تسميته بالرؤية لموضوعية، ما هي إلا رواية ذاتية كتبها الذكر الأبيض**».

إنها النتيجة التي توصل إليها بوميرانتسيف في فصل آخر من كتابه أنه «**عندما تكون الجماهير مفتتة، دون شعور بوجود أمة واحدة تجمعهم، يجب عليك إعادة تخيل هذه الجماهير في سياق جديد تمامًا**». سياق مختلف عن التحزب السياسي التقليدي. إنها الإستراتيجية التي جعلت من حركات عمالية مستقلة ومجموعات يمين متطرف، وأفراد كارهين للنخب السياسية، ومؤمنين مخلصين لنظريات المؤامرة في بوتقة واحدة، في لحظة واحدة. تصادف أنها كانت يوم الثامن من نوفمبر 2016. وليس هناك أفضل من الإنصات للاستراتيجيات العديدة التي استخدمها ستيف بانون مدير حملة ترامب الانتخابية، مستخدمًا مئات الدعايات على الفيسبوك التي صنعت شعورًا بوجوب التصويت لترامب دون حتى ذكر اسمه مرة واحدة.

الباحث الإيطالي والتر كواتروشيوكي من جامعة فينيسيا قدم العديد من الحقائق الصادمة في ورقته الدراسية المستفيضة «**الديناميكيات العاطفية في عصر التضليل**»، عارضًا نتيجة جمعه لـ 55 مليون تعليق على وسائل التواصل الاجتماعي، ملاحظًا أنه كلما زاد زمن الحديث في موضوع ما، فإن نبرة الحوار تصبح أكثر تطرفًا وعدوانية

بين الأطراف المتحاورة. كواتروشيوكي وصل إلى قناعة ما بأن وسائل التواصل الاجتماعي ترسخ التشتت الفكري. فالوسيلة الوحيدة التي يمكنها أن تثبيت قناعاتك في الأرض هو التشدد في الرأي وصنع دوائر مستمرة من الاستقطاب «لتصبح الأخبار الكاذبة عرضًا منطقيًّا من أعراض استخدام ما يسمى بالسوشيال ميديا».

قد يكون مبهرًا الإشارة إلى التكتيكات العديدة التي يلجأ إليها اليمين الشعبوي في التواصل مع مريدين جدد عبر الإنترنت ومنصات التواصل، وتطابق تلك التكتيكات مع نظيرتها المستخدمة من قبل اليسار في حملاته الانتخابية. والتي تبدو كنسخة محدثة من استراتيجيات بافلوف.

العناصر الإلكترونية من اليمين المتطرف تبحث عن أسماك جديدة من محبي ألعاب الحرب العالمية الثانية، من قاموا بالضغط على زر الإعجاب على فيديوهات حقبة الحكم النازي على اليوتيوب. إضافة إلى تكتيكات حظر استخدام لهجة عنصرية صريحة، واستخدام بدلًا منها لهجة دفاعية ضد سياسيات الهجرة في أوروبا. كما تلجأ بعض العناصر للعب أدوار تمثيلية زائفة بالظهور كمعلق يساري ضعيف الحجة في البداية، يسهل التهامه من قبل المتحمسين الجدد، محفزًا لفكرة مفادها أن دحض منطق «الآخر» ليس فقط ممكنًا، ولكنه مسلٍ للغاية أيضًا.

كأس عصير البارانويا

مع كل شخص يلتقي به بوميرانتسيف تزداد قناعته بأن وسائل التواصل الاجتماعي تعمل بكامل طاقتها عندما تصبح مجرد قاعة نحاسية لا يسمع فيها أحد سوى صدى صوت الموسيقى التي تعزفها نفس الفرقة. وأحد هؤلاء الذين استوعبوا تلك الحقيقة مبكرًا، ومنذ نوفمبر 2016 كان توم أوسبورن، المنتمي إلى الحزب الديموقراطي، وأحد أهم المتحدثين في فيلم «**ما بعد الحقيقة**» الوثائقي.

روي مور

أوسبورن كان شاهدًا على استخدام الجمهوريين والمتعاطفين مع اليمين الجديد لوسائل التواصل الاجتماعي كأداة لتحطيم المنافسين واغتيالهم معنويًّا، خصوصًا في ولاية ألاباما التي شهدت أخيرًا صراعًا محتدمًا على مقعد مجلس الشيوخ بين الحزبين الأكبر في الانتخابات الاستثنائية عام 2017، إلا أن الأخبار الجديدة تمثلت في المزاحمة الشرسة التي أظهرها المرشح الديموقراطي دوج جونز في ولاية عرفت تاريخيًّا بأنها مرتع لصقور الجمهوريين لعقود طويلة، ممثلة في المرشح الجمهوري روي مور. والذي يحمل في جعبته كوكتيلًا من المواقف المتشددة فيما يتعلق بقوانين الهجرة، حيازة الأسلحة النارية، وتشجيع الإسلاموفوبيا، والتضييق على مجتمعات المثليين. إلى جانب أنه من أكبر المتحمسين لنظريات المؤامرة التي تتعلق بمحل ميلاد باراك أوباما، في القضية التي تتعلق بإثبات شهادة ميلاده في الولايات المتحدة.

في الوقت الذي استغرق فيه مناهضو مور وقتهم في توثيق تعدياته الجنسية على العديد من البنات اليافعات في سنوات سابقة، كان أوسبورن يعمل على مشروع أكثر طموحًا من خلال إشرافه على منصة إلكترونية تتقمص دور مجموعة يمينية متشددة تقيم دعاية مكثفة لانتخاب مور، مطالبةً إياه بتفعيل قانون منع الخمور الذي تم تطبيقه قبل قرن كامل، وذلك في سعي تلك المجموعة للحفاظ على «أخلاق الجنوب الأمريكي».

كان أوسبورن يعلم تمامًا أن إنتاج مئات الإعلانات على الفيسبوك المنادية بمنع الخمور كفيل بإثارة فزع قطاع كبير من الجمهوريين المعتدلين، والذين أفزعهم توجهات مجموعة أوسبورن «الوهمية» المتطرفة. لتصبح النتيجة فوزًا تاريخيًّا نادرًا لدوج جونز بفارق 22 ألف صوت فقط في الولاية.

وللتدليل على أهمية تلك الاستراتيجيات العدمية الجديدة أكد أوسبورن في حواره بالفيلم «**ربما تكفلت حملتي في تغيير موقف ألفين من الجمهوريين المعتدلين، وهو رقم كاف تمامًا لقلب الأمور بانتخابات ذات منافسة شرسة في ولايةٍ مثل ألاباما**».

هذه الاستراتيجيات تلتقي مع نماذج عديدة التقى بها بوميرانتسيف. في مقدمتها نموذج السيد الثلاثيني الشاب «ب»، والذي أحدث مفاجآت عديدة في الانتخابات الرئاسية الفلبينية، كمدير لحملة الشعبوي المغمور آنذاك رودريجو دوتيرتي. والذي كانت فرصه في جذب انتباه الناخبين أقرب لحالتها الصفرية في مطلع عام 2019.

رودريجو دوتيرتي

اليافع الذي بدأ مسيرته الرقمية في سن الخامسة عشرة بإنشاء منصة مجهولة تشجع المراهقين على مشاركة قصصهم العاطفية، تمكن قبل أن يتخرج من شد انتباه المراقبين لدوتيرتي قبيل الانتخابات، ليصبح المرشح الوحيد الذي ينتبه لحقيقة أن متابعي «ب» اقتربوا من ال15 مليون متابع بفضل منصته العاطفية.

من ناحية أخرى وجد «ب» ضالته في حملة دوتيرتي، من خلال تطبيق تجربة درسها في الجامعة تعود إلى عقد العشرينيات من القرن الماضي، باسم «ألبرت الصغير».

من خلال تلك التجربة، أدرك السيد «ب» مبكرًا أن فرصة دوتيرتي الوحيدة تكمن في موقفه العنيف تجاه تجار المخدرات، لذا سارع «ب» بتأسيس العديد من صفحات الفيسبوك المتابعة للأخبار المحلية في كل إقليم من أقاليم البلاد، مع الوضع في الاعتبار استخدام اللغة الدارجة لكل إقليم، والتي يوجد منها المئات في الفلبين. مع الالتزام بنشر خبر واحد عن جريمة ما في موعد موحد هو الذروة لدخول المستخدمين تلك الصفحات، مع التشديد على ربط تلك الجريمة دومًا بتجار المخدرات، مع مرور الوقت كانت تلك الصفحات تقوم بنشر ثلاث أخبار من ذلك النوع يوميًا.

ارتفع مؤشر قبول دوتيرتي انتخابيًا إلى السماء في استطلاعات الرأي، إلا أن «ب» أدرك «متأخرًا هذه المرة «أن الحملة اعتمدت بشكل أساسي على إثارة الفزع كاستراتيجية بدلًا من القضايا الاقتصادية الملحة. ولكن كان الوقت قد فات، فقد فاز المرشح المغمور بمقعد الرئاسة، بل امتدت تلك الاستراتيجية من قبل دوتيرتي لاحقًا في حملات منتظمة للاغتيال المعنوي ضد منافسيه خلال السنوات الأربع الماضية، مستغلًا خدمات نماذج متحمسة من أمثال السيد «ب».

تلك الاستراتيجيات الناجعة بالنسبة لقادة الشعبوية الجديدة أضحت محل اختبار حقيقي في ظل أزمة الكورونا، وتحديدًا مع القلق المتزايد من دونالد ترامب. في سياق يتقاطع فيه هذا العام الانتخابي مع ملفات كفاءة النظام الصحي المحلي، معدلات البطالة، الفوارق الطبقية، وملف تعامل الشرطة مع الأقليات، وكلها ملفات تسببت لترامب في أزمة مباشرة، وعلى نحو غير متوقع مع منصته الاجتماعية المفضلة تويتر. من خلال الأسلوب الذي ذيلت به إدارة تويتر تغريدات الرئيس الأمريكي الأخيرة عن الوباء وأحداث العنف في مينيسوتا على خلفية مقتل جورج فلويد بالتشديد على «الاعتماد على الحقائق العلمية المؤكدة» في ذلك الشأن.

وهذا يعتبر اتهامًا مبطنًا لترامب بترويجه للأخبار الكاذبة نفسه، بل واتهمته بـ «الترويج لاستخدام العنف» ضد المتظاهرين في مينيسوتا. وهو ما أثار غضب الرئيس الأمريكي، كاشفًا عن خطة لتعديل قوانين عمل منصات التواصل الاجتماعي داخل الولايات المتحدة، في إطار ما أسماه «محاولة مقاومة عملية تكميم الأفواه للتيار المحافظ الأمريكي»، حتى لو كانت أصوات ذلك التيار تشغل مواقع عديدة مدفوعة الأجر في يوتيوب، وفيسبوك، وإنستجرام. ومنها بطبيعة الحال المنتمين إلى طائفة الكيو أنون الإليكترونية، والتي تُحشد على نحو موسع للنزول بثقلها في انتخابات نوفمبر 2020، وهي الفرصة النادرة التي يتمكن فيها مهاويس الماضي في نظر محترفي السياسة التقليدية من رسم خريطة المستقبل، ولو لمرة واحدة.

في عصر ما بعد الحقيقة يبدو أن أبرز الحقائق المريرة في الوقت الراهن هو ما عبر عنه السيد «ب» صراحة في حواره بكتاب لبوميرانتسيف «**أنا أجد سعادة حقيقية لأن بمقدوري التحكم بالناس. ربما يبدو هذا أمرًا مكروهًا، ولكنه يرضي كبريائي. الأمر يجعل مني شبه إله في الفضاء الرقمي**».

3

دمقرطة الإحصاءات الاقتصادية لمواجهة دلالاتها الفارغة: التضخم في مصر

أسامة دياب

حازت مسألة الإحصاءات الاقتصادية في مصر على قدر من الأهمية مؤخرًا بسبب التحول الاقتصادي الضخم الذي تشهده البلاد، والذي يعد من ضمن أهم التحولات الاقتصادية في تاريخها الحديث. بدأت الحكومة المصرية، بدعم ودفع من صندوق النقد الدولي، في نهاية عام 2016 بتنفيذ برنامج تقشف يتوقع أن تكون توابعه الاقتصادية والاجتماعية والسياسة عنيفة وطويلة المدى. كان التضخم العالي واحدًا من أهم النتائج المباشرة لسياسات البرنامج؛ إذ وصلت نسبة التضخم التراكمية إلى أكثر من 50 ٪ في السنوات الثلاث التالية على بدء البرنامج.

وكأحد الشروط الأساسية للبرنامج، أدى تخفيض قيمة الجنيه المصري المتعثر إلى خسارته لأكثر من نصف قيمته بين عشية وضحاها، مما جعل سعر جميع المنتجات المستوردة، أو تلك التي تحتوي على نسبة كبيرة من المكونات المستوردة، تزيد بما يقرب من ثلاثة أضعاف. أدت تدابير التقشف أيضًا إلى انخفاض الإنفاق الحقيقي على الأجور العامة والرعاية الصحية والتعليم وجميع الخدمات والسلع العامة تقريبًا. ومع ذلك غالبًا ما تفشل هذه الإحصاءات الاقتصادية الوطنية الخاصة بالتضخم وغيرها من الظواهر الاقتصادية والاجتماعية في إخبارنا بمدى تباين التجارب بين الفئات الاجتماعية المختلفة.

تفترض الإحصاءات الاقتصادية الوطنية التي تعتمد على الإجماليات أو المتوسطات أن الأفراد داخل الاقتصاد الوطني لديهم تجارب مماثلة لتكون هذه الإحصاءات الوطنية ممثلة بما يكفي لتجارب الناس الحية على اختلاف أوضاعهم

أنتوني أتكينسون

الاقتصادية والاجتماعية. وقد دوّن المقال تفاصيل البيانات حسب فئات الدخل والجنس والمناطق، إلخ. تشبه هذه الأرقام المفهوم اللغوي/ الخطابي للدلالة الفارغ، مما يعني علامة لا تشير إلى مفهوم واضح، ومن ثَم يصبح من الممكن ربط مجموعة واسعة من المعاني بها.

سيأخذ هذا المقال على سبيل المثال إحصاءات التضخم في مصر، كدراسة حالة للكيفية التي تفشل فيها المتوسطات الاقتصادية الوطنية في كثير من الأحيان في تمثيل التجارب الحقيقية لمعظم الناس، وغالبًا ما تخفي مصادر ودوافع اللامساواة (عن قصد أو غير قصد) أو على الأقل تسيء تحديد موقعها. بالاعتماد على بيانات مسح الدخل والإنفاق الرسمية، تتناول هذه المقالة مستويات التضخم التي يعاني منها النصف الأدنى في سلم الإنفاق، بهدف تحديد إلى أي مدى يتشابهون أو يختلفون عن معدلات التضخم الوطنية «المتوسطة».

في كل مكان تقريبًا، وعلى مدار جميع الفترات الزمنية، تنفق المجموعات ذات الدخل المنخفض نسبة أكبر بكثير من إجمالي إنفاقها على الغذاء، وغالبًا ما يكون هذا المعدل أعلى كثيرًا مما تقترحه سلة البضائع الافتراضية التي يتحدد على أساسها معدل التضخم الوطني. يقول أحد أهم رواد دراسات اللامساواة، أنتوني أتكينسون، إن هناك طريقتين يختلف فيهما مؤشر أسعار الفقراء عن المؤشر الوطني لأسعار المستهلكين؛ الاختلاف الأول هو الوزن المرتبط بالسلع والخدمات المختلفة، والثاني هو الأسعار المطبقة عند قياس التضخم. «الفرقان -في الأوزان وفي أسعار السلع- يحتمل أن يكونا كبيرين. وينفق الفقراء حصة أعلى من دخلهم على الضروريات وخصوصًا الغذاء. وقد تختلف الأسعار التي يواجهونها».

الآثار المترتبة على هذه الفروقات قد تكون كبيرة. يعني هذا أن غالبية السكان قد يواجهون معدلات تضخم أعلى بكثير من معدل التضخم الوطني، إذا كان التضخم في الغذاء أعلى من معدلات التضخم الوطنية، والعكس بالعكس. كما تؤكد هذه الفروقات المحتملة على الحاجة الماسة إلى بيانات تضخم مصنفة لمراعاة تجارب مختلف الفئات الاجتماعية، وخصوصًا تلك الموجودة في أسفل سلم الدخل والإنفاق؛ سيساعد ذلك على زيادة الوعي حول الفئات الاجتماعية التي تتحمل في الغالب العبء الأكبر من برامج الإصلاح من أجل اعتماد سياسة تعوضهم بشكل كافٍ عن خسارتهم غير المتناسبة. من المؤكد أن إتاحة بيانات أكثر تفصيلية للتضخم ستكون مفيدة في كل مكان لدعم المجهودات الرامية إلى مكافحة الفقر وعدم المساواة؛ ومع ذلك، فهناك أهمية خاصة لإتاحة تلك المعلومات بالنسبة لدول مثل مصر تعاني من معدلات تضخم مرتفعة بشكل مزمن وهيكلي، وذلك بسبب ضعف التمويل الحكومي وعائدات الضرائب التي تقل عن المتوسط العالمي، وإذ يتفاقم الفقر بمعدل سريع، فإن 16.7 ٪ من المصريين كانوا يعيشون في فقر في عام 2000 حتى تضاعف معدل الفقر الرسمي تقريبًا ليصل إلى 32.5 ٪ من السكان المصريين في عام 2018. في سياقات التضخم المرتفعة، يمكن أن يساعد إظهار عدم تناسق معدلات التضخم بين الفئات الاجتماعية المختلفة في جعل النقاش حول التضخم أكثر ارتباطًا بمعدلات اللامساواة والفقر المتزايدة.

علاوة على ذلك، يظهر التضخم أيضًا كآلية محايدة نظرًا إلى أنه ظاهرة تؤثر بشكل أولي على السلع، وتؤثر على المواطنين بشكل ثانوي. في المقابل، تختلف الضرائب على مستوى العالم بناءً على أنماط دخل وإنفاق المواطن، ومن ثَم يصعب إخفاء حساسيتها تجاه الوضع الاجتماعي والاقتصادي لدافعي الضرائب. من ناحية أخرى، لا يُنظر إلى التضخم باعتباره تراجعيًّا إلا لأن الأثرياء أكثر قدرة على التحوط ضده، لكنه يظل مقبولًا على نطاق واسع كضريبة ثابتة ومحايدة على المعاملات النقدية.

ومع ذلك، يمكن أن تُظهر بيانات التضخم المصنفة حسب الفئات الاجتماعية أنه مثله مثل الضرائب، يمكن أن تكون أيضًا ضريبة شديدة التراجعية على المعاملات النقدية، ليس فقط لأن الأثرياء أكثر قدرة على التحوط ضده، ولكن أيضًا بسبب الاختلاف الكامن بين أنماط استهلاك المجموعات الاجتماعية المختلفة. كما ذُكر

أعلاه، إذا كان الغذاء، الذي يشكل الجزء الأكبر من إنفاق الفئات ذات الدخل المنخفض، يختبر معدلات ارتفاع الأسعار أسرع من مجموعات السلع والخدمات الأخرى، فمن المرجح أن تعاني الفئات ذات الدخل المنخفض من معدلات تضخم أعلى مقارنة بفئات الدخل الأعلى. كان هذا هو الحال بالفعل في العديد من البلدان في جميع أنحاء العالم في السنوات الأخيرة.

على سبيل المثال، كان معدل التضخم العالمي في عام 2018 يقدر بـ2.5 ٪، في حين بلغ معدل تضخم الغذاء العالمي نحو 4 ٪ في العام ذاته. في بنجلاديش، يُظهر مؤشر أسعار الاحتياجات الأساسية (Basic Needs Price Index)، والذي يتكوَّن بشكل أساسي من المواد الغذائية، ارتفاعًا في سعر زيادة الاحتياجات الأساسية بلغ 85.8 ٪ خلال الفترة من 2005 إلى 2010، مقارنة بـ 44 ٪ في السلسلة الرسمية لمؤشر أسعار المستهلكين.[1]

الوضع المتميز للإحصاءات في اللغة والخطاب

طالما كان هناك قدر كبير من النقاشات والبحوث حول التضخم في جميع مدارس الفكر الاقتصادي. في الغرب، يمكن على الأقل تتبع دراسات التضخم في العصر الحديث إلى ديفيد هيوم عندما صاغ نظريته الكمية عن النقود.[2] في فترة ما قبل الحداثة، صاغت أيضًا أسماء مثل ابن خلدون والغزالي والمقريزي نظريات عن التضخم. تُركز معظم النظريات الحديثة للتضخم على القضايا المتعلقة بالعلاقة بين التضخم والعمالة وتأثير زيادة المعروض من النقود على الطلب الكلي (مثل المدرسة الكينزية والكينزية الجديدة)، وبالطبع تأثير المعروض النقدي على السعر واستقرار السوق (مثل المدرسة النقدية). عندما يتم الربط بين التضخم وعدم المساواة، فإن معظم التركيز ينصب على السلوك التوزيعي للأموال التي تُضخ في السوق حديثًا، وعلى القضايا المتعلقة بالتوقع والمعلومات التي تتيح للأثرياء التحوط بشكل أفضل ضد التضخم (مثل المدرسة النمساوية).

نظرت المدرسة النمساوية، وهي المدرسة التي وضعت أكثر الروابط بين التضخم وعدم المساواة، إلى التضخم في الغالب من منظور تآكل الثروة الذي يؤثر على المقتنيات النقدية ويفيد المستقبلين الأوائل للنقد الجديد كما في نظرية عدم حياد المال،[3] فضلًا عن الوصول إلى المعلومات حول جوانب التضخم التي وفقًا لهذا الرأي تزيد من عدم المساواة. ومع ذلك، لا يزال هناك القليل من الأبحاث والفجوة المعرفية الكبيرة في التضخم باعتباره من العوامل التي تؤدي إلى تفاقم عدم المساواة؛ فيما يتعلق بتفاوت أنماط الاستهلاك والإنفاق بين مختلف الفئات الاجتماعية والاقتصادية، والتي غالبًا ما تُخفى بمعدلات تضخم موحدة. يمكن استخدام عدم التناسق في أنماط الاستهلاك بين المجموعات الاجتماعية والاقتصادية المختلفة للدفع بأن معدلات التضخم الوطنية تشبه المفهوم اللغوي والخطابي للدال الفارغ أو الدلالة الفارغة.

يعرف دانيال تشاندلر (2018) مفهوم الدلالة الفارغة بأنها «دلالة ذات مدلول غامض أو شديد التغير أو غير محدد أو غير موجود».

وقد شكَّلت الدلالة الفارغة مفهومًا بارزًا في دراسات الخطاب والعرق والدراسات الجنسانية، وخصوصًا في التقليد ما بعد البنيوي. ستيوارت هول، على سبيل المثال، اشتهر بوصفه للعرق بأنه دلالة عائمة.[4] يهدف هذا المقال إلى توسيع نطاق استخدام هذا المفهوم ليشمل قضية الإحصاءات الاقتصادية الوطنية ويحاول اقتراح طرق لتحسين إنتاج الإحصاءات الاقتصادية لتحسين دلالاتها وجعلها أقرب إلى التجارب الحية لأغلب الناس.

وقد طوِّر مفهوم «الدلالة العائمة» وثيق الصلة بالدلالة الفارغة في مجال الأنثروبولوجيا من قبل كلود ليفي شتراوس، باعتبارها دلالة «تمثل كمية غير محددة من الاستدلال، في حد ذاتها فارغة من المعنى ومن ثَم عرضة لتلقي أي معنى». وفقًا لإشارات ليفي شتراوس فالدلالة العائمة «إعاقة لكل الفكر المحدود» و«ضمانة الفن كله، كل الشعر، كل اختراع أسطوري وجمالي».[5] بالنسبة لـليفي شتراوس، تعد الدلالة العائمة «رمزًا في أكثر حالاته نقاءً، ومن ثَم يمكن تحميله بأي محتوى رمزي».[6]

أما عند إرنستو لاكلاو، فإن الدلالة الفارغة هي نتاج عملية هيمنة سياسية تدل على عدم وجود شيء ما؛ يُبنى هذا النقص نتيجة لتوحيد العديد من المطالب من خلال سلسلة من التكافؤ التي تمحو المنطق التفاضلي لهذه المطالب. تؤدي هذه المطالب غير الملباة إلى إنشاء

1- Atkinson, 2019
2- Balac، 2008
3- Mises, 1939
4- Jhally, 1997
5- Levi-Strauss, 1987, p 63
6- Mehlman, 1972

إرنستو لاكاو

كلية غير مكتملة (مثل الحرية أو الاستقرار أو العدالة الاجتماعية، إلخ). تصبح هذه الكليّات دلالات فارغة تنتظر قوة سياسية لتقديم برنامج يعد بملء هذا النقص. بالنسبة للاكلاو «لتهيمن على شيء هو بالضبط أن تقوم بملء هذا النقص».[7]

في مجالات اللغويات السوسيرية (نسبة إلى فرديناند دي سوسير)، تتكون اللغة في الغالب من دلالات تشير إلى أشياء أو مفاهيم محددة من الواقع (مدلولات)، ولكن نظريات اللغة ما بعد السوسيرية عطلت هذه العلاقة من خلال إبراز أن علامات اللغة ليست مجرد تمثيل لمفاهيم (مدلولات)، ويمكن أن تقع في عملية لا نهائية من الإحالات لدلالات أخرى كما هو الحال في مفهوم جاك ديريدا عن الاختلاف والإحالة ***différance*** (أو يمكن بالطبع أن تكون فارغة أو عائمة كما نوقشت بالفعل).

ليفي شتراوس

أكد ليفي-شتراوس أيضًا أن العلاقة بين الدلالات والمدلولات ليست مجرد علاقة تكافؤ، أي أنه لا يوجد مخزون متساو من الدلالات والمدلولات، إذ تشير كل دلالة إلى مدلول واحد. يقول ليفي شتراوس إن كل

7- Laclau, 2007, p 36-40

فرديناند دي سوسير

إنسان لديه تحت تصرفه مجموع من الدلالات، وهو في حيرة من أمره لمعرفة كيفية تخصيصها لمدلولات معينة، وأن هناك دائمًا عدم تكافؤ أو عدم كفاية (أي عدم ملاءمة أو فائض) بين الاثنين. يعتبر فائض الدلالات ضروريًا، من وجهة نظر ليفي شتراوس، في عملية سعي الإنسان لفهم العالم.[8]

هذا الاختلال بين الدلالات والمدلولات هو ما يجعل ظهور الدلالات العائمة أو الفارغة ممكنًا كفائض من الدلالات دون مدلولات واضحة (أي رمز في شكله النقي) أو ما وصفه ليفي شتراوس بـ«رمز صفري». بمعنى آخر، هو عبارة عن مجموعة من الدلالات التي تدور وظيفتها حول كونها متاحة بسهولة لينسب إليها معان مختلفة حسب الاقتضاء.

كذلك زعم المحلل النفسي الفرنسي جاك لاكان، أن المدلول لا ينتظر أن تُمثله دلالة، لكن الدلالة هي التي تُنشئ المدلول. بالنسبة للاكان، هذا مؤشر على أن اللغة تسبق دائمًا العالم الذي تمثله، وأن الكلمات التي نستخدمها لها وظيفة تتجاوز الحاجة إلى التواصل. توفر لنا الدلالات طريقة لفهم كيف يمكن للتجربة أن تترك أثرًا غير مرتبط مباشرة بها. يستخدم لاكان بعد ذلك هذا المفهوم لتشبيه اللاوعي ذاته باللغة في تعبيره الشهير بأن «اللاوعي مبني مثل اللغة» ما دام اللاوعي ليس ببساطة مستودع للدوافع أو غرفة تخزين للأشياء/ *representation* لكنه في الوقت نفسه، مثل اللغة، يسبق العالم الذي يمثله.[9]

8- Levi-Strauss, 1987, p.62
9- Feher-Gurewich, 2003

جاك لاكان

كما رأينا، ظهر مفهوم الدلالات العائمة/الفارغة في أنثروبولوجيا ليفي شتراوس، ودراسات هول الثقافية، ونظرية لاكلو السياسية، وحتى تحليل لاكان النفسي. ومع ذلك يبقى المفهوم غائبًا عن الإحصاءات الاقتصادية.

ربما يرجع السبب في ذلك إلى أن الإحصاءات نادرًا ما تقع في نطاق دراسات اللغة أو الخطاب، ومن ثَم تظل علاقات الدلالة بين الإحصاءات من جهة والمفاهيم في الواقع من جهة أخرى غير مستكشفة. ولكن ربما يكون هذا جزءًا من مشكلة أكثر عمومية؛ إذ بقيت الإحصاءات الاقتصادية خارج نطاق وتركيز العلوم الاجتماعية بسبب الفصل الكيفي/الكمي الحاد بين الاقتصاد والعلوم الاجتماعية الأخرى؛[10] ومن ثَم، فقد تُرك التعامل مع الإحصاء الاقتصادي إلى حد كبير لعلماء الاقتصاد القياسي *econometrics* وخبراء الاقتصاد السائد *mainstream economics*، ويهيمن عليه إلى درجة كبيرة نهج كمي.

ولكن ما هو الخطاب بالضبط، ولماذا هو مهم لدراسة الإحصاءات الاقتصادية؟ الخطاب مفهوم شائك يصعب تحديده بشكل خاص، أُنشئ من قبل علماء الاجتماع للدلالة على دراسة اللغة التي تأخذ السلطة والقوة في الاعتبار. يقول كيث سوير أن الخطاب أصبح يحل محل مفاهيم «الثقافة» و«الأيديولوجية» و«اللغة» إلى حد كبير في مجالات العلوم الاجتماعية بسبب معناه السائل.[11]

يجادل سوير بأن الخطاب جاء ليحل محل الإيديولوجية لأن الأخيرة ترتبط منذ فترة طويلة بقراءة أرثوذكسية للقاعدة/البنية الفوقية الماركسية، إذ تُقدَّم الأيديولوجية بتبسيط مخل كنتيجة فقط لعلاقات الإنتاج في المجتمعات. الاهتمام المتزايد بالثقافة الذي ربما بدأ بمدرسة فرانكفورت أو ما أطلق عليه «الماركسية الثقافية»، انتقد لاحقًا بسبب كونها (أي الماركسية الثقافية) مفرطة أيضًا في اختزاليتها. بالنسبة للغة، يجادل سوير بأن الخطاب حل محلها لأن اللغة كانت مركزة بشكل ضيق للغاية على النظم الرمزية والرموز. البعد الخطابي الذي يهم هذه المقالة هو الذي يميزها عن اللغة من خلال تضمين دلالات القوة والصراع، أي اللغة مجالًا للنزاع.

تعرضت دراسة الخطاب لانتقادات على العديد من الجبهات. من ضمن تلك الانتقادات هو كونها مجالًا لاتاريخانيًّا، وتركيزها على المجتمعات الفردية كنظم قائمة بذاتها،[12] ولكن هناك شيء واحد تجاهله بالكامل منظرو ومنتقدو دراسات الخطاب على حد سواء، وهو الفشل في جلب الإحصاءات تحت مظلتها. الإحصاءات –تمامًا مثل اللغة النحوية مليئة بالتحيزات ودلالات القوة، وتساهم بشكل كبير في إساءة تحديد أوجه عدم المساواة الصارخة، كما سيتم مناقشته في مثالنا أدناه عن التضخم.

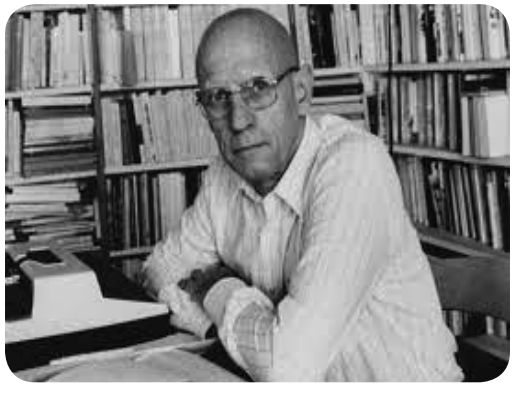

ميشيل فوكو

ولكن ما هو الخطاب وما هو الذي يميزه عن اللغة النحوية؟ ميز الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو في كتابه الشهير حفريات المعرفة بين نوعين من العلامات، وهما العبارة والجملة.[13] لا يمكن فهم العبارة إلا من حيث علاقتها بمفهوم الخطاب. بالنسبة لفوكو، فإن العبارة

10- White, 2002
11- Sawyer, 2002
12- Blommaert, 2005
13- Foucault, 2002

هي حجر بناء الخطاب أو ذرة الخطاب. يكتب فوكو أنه قبل الشروع في كتابة حفريات المعرفة، استخدم مصطلح «الخطاب» بثلاث طرق مختلفة؛ الأولى تمثل المعنى الأكثر «عمومية» و«غموضًا» وتدل على مجموعة من العروض اللفظية التي تنتجها مجموعة من العلامات. والثانية هي الخطاب كمجموعة من أعمال الصياغة، أي سلسلة من الجمل أو الافتراضات. المعنى الثالث، وهو المعنى المستخدم في حفريات المعرفة، فيه الخطاب «يتكون من مجموعة من متواليات الإشارات، بقدر ما هي عبارات، أي بقدر ما يمكن نسبتها إلى نمط معين من أنماط الوجود».

يجادل فوكو بأن العبارات تختلف عن الجمل النحوية وأنه «من السهل ذكر العبارات التي لا تتوافق مع التركيب اللغوي للجمل» بما في ذلك «الجداول التصنيفية للأنواع النباتية، وأشجار الأنساب، ودفاتر الحسابات، وحسابات الميزان التجاري.» يعتبر فوكو إذن وبوضوح أن محتويات دفاتر الحسابات والأرصدة التجارية وما إلى ذلك عبارات؛ حتى لو كانت لا تشكل جملًا نحوية، ومن ثَم ينبغي أن تكون وحدات أولية (أو ذرات) يتشكل منها خطاب أوسع. ومع ذلك، عندما يتعلق الأمر بمناقشة الخطاب نفسه، لا تختفي الإحصاءات فقط من عمل فوكو، ولكن أيضًا من عمل معظم منظري وممارسي الخطاب الآخرين. إن ما ركز عليه معظم محللي الخطاب فعليًا هو الجمل النحوية وليس العبارات.

وبسبب عدم خضوعها لتحليلات وانتقادات مماثلة للغة النحوية، انتهى الأمر بالإحصاءات الاقتصادية إلى الحصول على معاملة مميزة كتعبيرات قبل خطابية أو خارج الخطاب. لم تتعطل العلاقة بين الإحصاءات كدلالات من جانب ومدلولاتها من جانب آخر بطريقة الأشكال الأخرى من العلامات نفسها. بالنسبة للأشكال الأخرى من العلامات مثل الكلمة المكتوبة، تخبرنا نظرية الخطاب أن المعاني (في صيغة الجمع) تكمن مع القارئ ومن ثَم فهي متعددة ومفتوحة للتفسير[14]، لكن صمتها حول الإحصاءات يجعل معانيها لا تزال كامنة في الأعداد نفسها، أو النص ذاته، ومن ثَم لا يزال التعامل معها إلى حد كبير كبديهية وكمجال خاليًا من الخلاف.

من المهم أن نلاحظ هنا أن الإحصاءات تُحفز بعض أشكال الخطاب الاقتصادي النقدي، مثل مناقشة مسألة جدوى الناتج المحلي الإجمالي كمؤشر للرفاه. ومع ذلك، فإن عددًا قليلًا جدًا سوف يتساءل عن حقيقة وقيمة تمثيل معدلات الناتج المحلي الإجمالي، وسوف يتحدى فقط فائدة هذه الحقيقة لقياس جوانب معينة من الحياة الجماعية لسكان معينين، مثل رفاههم، وغيره. على سبيل المثال، لورنزو فيورمينتي، الذي بحث بشكل مكثف فائدة بعض الإحصاءات الاقتصادية بما في ذلك الناتج المحلي الإجمالي يكتب: يجب أن يكون المجتمع الصحي قادرًا على التمييز بين مجالات السياسة التي يكون فيها القياس مفيدًا، ومجالات السياسة التي لا يكون فيها مفيدًا. هناك حدود لما يمكننا قياسه. إذا تمادينا في عقلانيتنا الرقمية بعيدًا، فسوف ينتهي بنا الأمر إلى تبسيط الواقع. عندما يحدث هذا، تصبح أدوات القياس لدينا أكثر أهمية مما نقيسه. لقد انتهى بنا المطاف بالرغبة في قياس ما يمكننا قياسه، بدلًا من قياس ما نريد قياسه. ينتهي الأمر بالتلاميذ إلى دراسة ما هو مهم للاختبارات فقط، ويركز الأزواج على الكمية وليس على جودة العاطفة، ويصبح العمال من جميع الأنواع عبيدًا لشروط الإنتاجية المفروضة عليهم.[15]

هنا فيورمينتي لا يلقي أدنى شك على قوة تمثيل الأرقام، ولكن كل ما يطرحه هو جدواها واحتمال أن تكون هناك مبالغة في تبسيط الواقع؛ ومع ذلك، لا يزال الاتصال بحقيقة معينة موجودًا حتى إذا كانت هناك مخاطر من التبسيط المفرط لهذه الحقيقة. بهذا المعنى، لا تزال الإحصاءات موجودة خارج الخطاب وقبله حتى لو نشأت عنها بعض أشكال الخطاب. لذلك من المهم عدم الخلط بين «الخطاب حول الإحصاءات» الموجود بشكل متطور إلى حد ما و«الإحصاءات كخطاب» التي تجادل المقالة بأنه غائب إلى حد كبير.

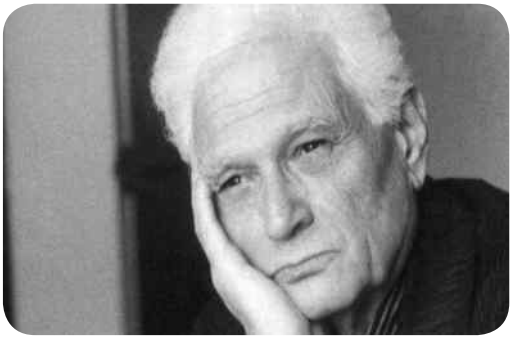

جاك دريدا

14- Foucault, 1969, Bart, 2017

15- Fioramonti, 2014, p.8-9

شعار الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء

لجعل هذه النقطة أكثر وضوحًا، تعمل الإحصاءات بهذا المعنى مركزًا بالمعنى الدريدي (نسبة للفيلسوف الفرنسي جاك دريدا) للمصطلح؛ عندما حاول شرح طريقة عمل البُنى في محاضرته المهمة عام 1966 بعنوان «البنية والعلامة واللعب في خطاب العلوم الإنسانية». طرح دريدا أن المركز يحد من اللعب في البنية بأكملها، ويقوم المركز كذلك بتوجيه وتنظيم البنية ككل. المركز الدريدي هو النقطة التي تحكم البنية، النقطة التي لم يعد من الممكن فيها استبدال المحتويات أو العناصر أو المصطلحات. إنها أرضية أساسية، تقع خارج متناول اللعب. بهذا المعنى، إذا كان الخطاب الاقتصادي بنية فإن الإحصاءات تعمل مركزًا لها، حيث تقوم بتوجيه وتنظيم الخطاب الاقتصادي ولكنها تقع خارج نطاق لعبه (أي الخطاب).

ما الذي يكمن وراء معدلات التضخم الوطنية؟

يعتمد المقال على بيانات الدخل والإنفاق لعام 2015 الصادرة عن الجهاز المركزي المصري للتعبئة العامة والإحصاء (*CAPMAS*). تتكون مجموعة البيانات من نحو 12000 أسرة، صُنفت إلى مجموعات اجتماعية بدلًا من الشرائح العشرية المعتادة. المجموعات الاجتماعية التي يركز عليها هذا المقال هم أولئك الذين يعيشون تحت خط الفقر، والفقراء، والمهددون بالفقر، ويشار إليهم مجتمعين باسم الفئات ذات الدخل المنخفض.

تتكون المجموعة الأولى من الفقراء المدقعين من أسر تقل نفقاتها السنوية عن 322 جنيهًا مصريًّا للفرد شهريًّا في عام 2015، وتشكل نحو 904 أسرة. المجموعة الثانية تتكون من أسر فقيرة، وتشمل الأسر التي يتراوح إنفاقها بين 322 جنيهًا مصريًا و482 جنيهًا مصريًّا للفرد شهريًّا في عام 2015 وتتكون هذه المجموعة من 2858 أسرة. المجموعة الثالثة والأخيرة هي مجموعة المهددون بالفقر، والتي تتألف من أسر تتراوح نفقاتها بين 482 جنيهًا و626 جنيهًا مصريًّا للفرد شهريًّا وتتألف من 2626 أسرة. تتبع هذه التعريفات القائمة على الدخل التعريفات الوطنية للمجموعات الثلاث في عام 2015.

يؤكد تحليل مُفصل لبيانات الدخل والإنفاق التي تغطي نحو 12000 أسرة أن السلة الافتراضية التي تحدد معدل التضخم الوطني بعيدة جدًا عن تجربة الغالبية العظمى من السكان، مما يجعل معدل التضخم الوطني هذا دلالة فارغة أو عائمة، أو عبارة تدعي أنها تمثل التجربة الحية للسكان، لكنها في الواقع تفشل في تحقيق ذلك.

المجموعة التي تمثل أكبر قدر من الابتعاد عن معدل التضخم الوطني هم الفقراء المعدمون، أو أولئك الذين أنفقوا أقل من 382 جنيه للفرد شهريًّا في عام 2015. على سبيل المثال، تنفق هذه المجموعة على الغذاء نحو 54.96 ٪ من دخلها. في سلة الرقم القياسي لأسعار المستهلكين الرسمية، لا يُشكل الغذاء سوى 39.92 ٪ من إجمالي سلة النفقات. جزء من السبب وراء هذه الفجوة هو أنه في مؤشر أسعار المستهلكين الرسمي، يحتسب الإيجار كنفقات، ولكن نظرًا إلى عدم كونه نفقات فعلية، قرر فريق البحث أنه ليس له أي تأثير على معدلات التضخم، ومن ثَم حذفناه. وقد ساهم ذلك في زيادة أكثر من 6.5 ٪ في الإنفاق على المواد الغذائية لفئة الفقراء المعدمين، ويشبه ذلك أنماط الإنفاق الفعلية بشكل أفضل مقارنةً بالسيناريو الذي يضيف نفقات افتراضية كالإيجار المحتسب.

مواطن يحصل على زجاجة زيت من سيارة بيع المواد التموينية - أصوات مصرية

إن إدراج الإنفاق الافتراضي مثل الإيجار المحتسب هو عامل آخر يؤدي إلى انخفاض متوسط جميع عناصر

مؤشر أسعار المستهلكين الأخرى بشكل مصطنع، مما قد يجعل معدل التضخم الإجمالي أقل مما تواجهه الغالبية العظمى من السكان، لأنه يؤدي إلى تضخيم وزن الإنفاق على السكن والذي تقل معدلات تضخمه عن المواد الغذائية في السنوات الأخيرة (انظر الجدول 1). على سبيل المثال، بلغت الزيادة في مؤشر أسعار المستهلكين الغذائي بين عامي 2015 ويونيو 2019 ما نسبته 98.3 ٪، في حين بلغت 40.5 ٪ للسكن. بمعنى آخر، كلما تضخمت البنود ذات التضخم المنخفض، كلما قل معدل التضخم الإجمالي.

علاوة على ذلك، هناك سبب قوي للاعتقاد بأن معدل الإنفاق على الغذاء البالغ 54.96 ٪ بالنسبة للفقراء المدقعين منحاز لأسفل، لأن صندوق النقد الدولي والجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء يحسبان سلة الغذاء للفقراء (ناهيك بالفقراء المعدمين) بنسبة 74 ٪ (البنك الدولي، 2011). كان الغذاء هو ثالث أكثر النفقات تضخماً منذ ما قبل بداية برنامج الإصلاح الاقتصادي (انظر الجدول 1) من أصل 12 فئة من فئات الإنفاق أو مؤشر أسعار المستهلك. يأتي الغذاء، وهو وجه الإنفاق الرئيسي للفقراء، بعد «الترفيه والثقافة» و«السلع الأخرى»، وهما بندان صغيران للغاية، ولا يوجد تباين كبير في الوزن بين سلة الفقر المدقع والسلة الوطنية اللتان تشكلان معًا ما لا يزيد عن 6.23 ٪ من إنفاق الفقراء المدقعين، وهو قريب بما يكفي من الـ6.16 ٪ التي تمثلها في مؤشر أسعار المستهلكين الرسمي الذي يحدد معدلات التضخم الوطنية (انظر الجدول 2). لذلك لا يزال الغذاء يمثل البند الذي به أكبر قدر من التباين بين سلة الفقر المدقع والسلة الوطنية.

يصبح من الواضح أنه كلما ارتفعت في سلم الإنفاق، انخفض الإنفاق على الغذاء كنسبة من إجمالي الإنفاق. بالنسبة للفئة الاجتماعية الفقيرة، يصبح الإنفاق على الغذاء 51.35 ٪ باتباع طريقة إزالة «الإيجار المحتسب» نفسها، ويصبح المهددون بالفقر 47.5 ٪، ولا يزالون بعيدون عن النسبة الرسمية البالغة 39.92 ٪، خصوصًا بعد معرفة احتمالية أن يكون هناك انحياز لأسفل في نسب إنفاق الفئات ذات الدخل المنخفض على الغذاء.

الغذاء البند الأكثر إنفاقًا في الأسر الأكثر فقرًا

الجدول(1): مؤشر أسعار المستهلكين لبنود الإنفاق الرئيسية من عام 2015 (المتوسط) إلى يونيو 2019

بند رئيسي	2015	يونيو 2019	معدل الزيادة
الغذاء الكلي	194.8	386.3	٪ 98.3
الكحول والتبغ	316.2	576.2	٪ 82.22
الملابس والأحذية	126.1	218.3	٪ 73.11
السكن	128.5	189.5	٪ 40.5
الآثاث ومستلزمات المنزل	139.6	237.9	٪ 70.4
الصحة	137.5	241	٪ 75.54
النقل	139.2	268.2	٪ 92.67
الاتصالات	97.4	110	٪ 12.93
الثقافة والترفيه	166.9	349.5	٪109.4
التعليم	201.5	339.8	٪ 68.63
المطاعم والفنادق	182.8	337.8	٪ 84.79
أخرى	100.5	210.5	٪ 109.45

الجدول (2): حصص بعض بنود مؤشر أسعار المستهلكين بالنسبة للمتوسط الوطني والفقراء المدقعين والفقراء والمهددين بالفقر

بند رئيسي	المتوسط الوطني	الفقراء المدقعين	الفقراء	المهددين بالفقر
الطعام والمشروبات	٪ 39.92	54.96	51.35	47.5
الكحول والتبغ	٪ 2.19	4.68	5.39	5.62
الملابس والأحذية	٪ 5.41	6.25	6.39	6.31
السكن	٪ 18.37	6.51	6.35	6.6
الآثاث	٪ 3.77	4.13	4.28	4.35
الصحة	٪ 6.33	5.87	6.81	8.03
النقل	٪ 5.68	3.72	4.3	5.04
الاتصالات	٪ 3.12	1.97	2.1	2.33
الثقافة والترفيه	٪ 2.43	0.82	1.02	1.32
التعليم	٪ 4.63	1.71	2.5	3.27
المطاعم والفنادق	٪ 4.43	3.97	3.89	3.35
أخرى	٪ 3.73	5.41	5.61	5.88

دفاعًا عن البيانات المُفَصلة والكيفية

تجدر الإشارة هنا إلى أن هذه الفئات الثلاث تمثل أكثر من 63 ٪ من العينة، مما يعني مرة أخرى أن أكثر من نصف السكان على الأقل لا يمكنهم ربط تجربتهم بمعدلات التضخم الوطنية. في الوقت نفسه من المستحيل وجود إحصاءات تستند إلى إجماليات ومتوسطات لا تشبه الدلالات العائمة أو الفارغة لأنها بالتعريف لن تشير إلى تجربة أي شخص في الواقع. كما أن تصنيف معدلات التضخم وفقًا لمعايير مختلفة قادر على الأقل على تقريب معدلات التضخم المختلفة من تجارب الفئات الاجتماعية المختلفة. كلما كانت المعدلات تفصيلية ومتعددة أكثر، كلما تحسنت قابليتها لتمثيل الفئات الاجتماعية المختلفة.

ولا تقتصر مشكلة عدم تمثيل معدلات التضخم لتجارب المواطنين الحية على مصر بطبيعة الحال. على سبيل المثال، لاحظت مبادرة أبحاث الفقر (*Poverty Research Initiative*) أنه في أيرلندا بين عامي 1996 و2001، ارتفعت الأسعار بالنسبة لفقراء الحضر بشكل أعلى مقارنة بالسكان ككل.[16] وذكرت المبادرة في تقريرها:

"يجب على المكتب الإحصائي المركزي الأيرلندي حساب مؤشرات أسعار مستهلك منفصلة لفئات الأسر المختلفة وإتاحتها لواضعي السياسات والجمهور. ببساطة نشر مؤشر أسعار المستهلك للمعدل الوطني يعني أنه لا توجد معلومات متاحة عن الزيادات الحقيقية في الأسعار التي تختبرها الفئات المختلفة في المجتمع. لا ينبغي أن يتضمن تجميع مثل هذه المؤشرات المتنوعة للفئات المختلفة زيادة كبيرة في الموارد من جانب المكتب الإحصائي الأيرلندي».[17]

في المملكة المتحدة أيضًا، تبيَّن أن أفقر 20 ٪ من السكان يواجهون معدل تضخم أعلى من جميع شرائح الدخل الأخرى في كل الأعوام بين 2003 إلى 2013 باستثناء عام واحد.[18] لدى الوكالات الإحصائية البيانات، والعديد منها يُفَصَلها؛ لذلك، لن تكون هناك حاجة إلى موارد إضافية لجعل بيانات التضخم مصنفة ومتاحة بشكل دوري.

بالإضافة إلى ذلك، يمكن أن تستفيد دراسات التضخم من البحث الكيفي لتوفير تحليل متعمق للتجارب الحية التي لا يوفرها الاقتصاد الكلي الكمي وعادة ما يفشل في رصدها. لطالما افتخر مجال الاقتصاد بنماذجه الكمية «الصارمة»

16- Murphy & Garvey, 2004
17- Murphy & Garvey, 2004
18- Monaghan, 2014

مقابل نماذج العلوم الاجتماعية «الأضعف» التي تعتمد بدرجة أكبر على التحليل النوعي «الأقل صرامة».[19] وعلى الرغم من ذلك، لقد ثَبُت مرة تلو الأخرى أن هذه الصرامة المزعومة مليئة بأوجه القصور، وقد يكون الوقت قد حان للاقتصاد لتبني بعض تقنيات العلوم الاجتماعية الأخرى.

على سبيل المثال، في السعي إلى تحديد مؤشر أسعار المستهلكين الفقراء، يجب أولًا تحديد تعريف للفقر. وفقًا للنُهُج الكمية التقليدية، عادة ما يكون الدخل والنفقات القابلة للقياس الكمي هو المحدد الوحيد لما يعنيه أن يكون المرء فقيرًا. ومع ذلك، يمكن للأساليب الكيفية أن تسمح للناس بأن يقرروا بأنفسهم ما إذا كانوا يعتبرون أنفسهم فقراء أو لا؛ اعتمادًا على فكرة الحرمان الناتج عن عوامل متعددة، وليس فقط الناتج عن الدخل.[20] يمكن أيضًا تصميم هذا النهج الكيفي مع وضع غرض محدد في الاعتبار، على سبيل المثال، فهم تجارب التضخم الخاصة بالنوع الاجتماعي (الجندر) بشكل أفضل.

خاتمة

طرح هذا المقال أن معدلات التضخم الوطنية القائمة على أنماط استهلاك افتراضية يمكن أن تخفي التراجعية الشديدة لمعدلات التضخم المرتفعة التي شهدتها مصر مؤخرًا. ودعا إلى التحدث عن «معدلات التضخم» في صيغة الجمع بدلًا من «معدل التضخم» في صيغة المفرد. من خلال الحصول على معدل تضخم وطني موحد، فإن الافتراض هو أن الجميع يتحملون العبء الأكبر للتضخم بشكل متساوٍ وأن الجميع يعانون منه بالقدر نفسه.

وختامًا، لا يمكن اعتبار الإحصاءات التي تركز على المتوسطات كما هو الحال في معدلات التضخم والإجماليات كما في الناتج المحلي الإجمالي تمثيلًا للواقع، لأن سؤال «واقع من؟» سيطرح نفسه حينها. تخبرنا المتوسطات والمجاميع ربما بشيء عن مجموع تجارب كل الأفراد، ولكنها لا تخبرنا شيئًا تقريبًا عن تجارب المكونات المختلفة لهذا المجموع. لذلك، فإن هذه الإحصاءات تشبه الدلالات الفارغة المرتبطة بمدلولات غير موجودة، وتبدو أشبه بالخطاب أكثر من كونها حقيقة خارجة عنه وسابقة عليه.

19- White, 2002
20- Carvalho& White, 2010

كذلك طرح المقال أنه من خلال تصنيف البيانات ودعم التحليل الكمي بالتحليل الكيفي الذي يعتمد بدرجة أقل على المسوحات واسعة النطاق ويعتمد أكثر على مقابلات مطولة على عينات صغيرة، يمكن للإحصاءات الاقتصادية أن تتحرك خطوة أقرب إلى تمثيل أفضل للحقائق الحية المتنوعة والفئات الاجتماعية المختلفة. ومن الممكن أن يساعد ذلك في تحسين جودة السياسات العامة حال توافرت إرادة سياسية للقضاء على الفقر والحد من اللامساواة، ومساعدة مجموعات الدعوة والمناصرة في مجالات العدالة الاقتصادية ومحاربة الفقر على تبني نضالات مبنية على قدر أكبر من المعرفة. بالإضافة إلى ذلك، يمكن أن تساعد البيانات المصنفة على الكشف عن المسببات الخفية لعدم المساواة وإضفاء الطابع الديمقراطي على إنتاج الإحصاءات.

* *شكر خاص للباحث الاقتصادي محمد سلطان والذي ساهم بعدة أشكال مباشرة وغير مباشرة في عمليات البحث وتطوير الأفكار التي اعتمد عليها المقال، والشكر أيضًا موصول لوحدة الحقوق الاقتصادية بالمبادرة المصرية للحقوق الشخصية، وتحديدًا سلمى حسين وعبد الحميد مكاوي ومي قابيل، لزمالتهم في مشروع مؤشرات التضخم البديلة والتي أيضًا اعتمد المقال على الكثير من المناقشات والأفكار والبيانات المرتبطة بالمشروع. ومع تثمين هذه الأدوار الملهمة، أظل وحدي مسؤولًا عن أفكار المقال وأي نقاط ضعف محتملة فيه.*

المراجع:

- Atkinson, A. B. (2019). *Measuring poverty around the world*. Princeton and Oxford: Princeton University Press.
- Balac, Z. (2008). Monetary Inflation's Effect on Wealth Inequality: An Austrian Analysis. *The Quarterly Journal of Austrian Economics*, 11(1), 1–17. doi: 10.1007/s12113-008-9028-4
- Barthes, R. (2017). The Death of the Author. *The Continental Aesthetics Reader*, 519–524. doi: 10.4324/9781351226387-35
- Blommaert, J. (2005). Discourse: A Critical Introduction. Cambridge: Cambridge University Press.
- Carvalho, S., & White, H. (2010, July 01). Combining the quantitative and qualitative approaches to poverty

wps4594.pdf

- Jhally, S. (1997). Stuart Hall: Race, the floating signifier. USA: Media Education Foundation. Retrieved August 16, 2019, from http://bufvc.ac.uk/dvdfind/index.php/title/av75800
- Laclau, E. (2007). Emancipation(s). London: Verso.
- Lévi-Strauss, C. (1987). *Introduction to the Work of Marcel Mauss*. London: Routledge & Kegan Paul.
- Mehlman, J. (1972). The 'Floating Signifier': From Lévi-Strauss to Lacan. *Yale French Studies*, (48), 10. doi: 10.2307/2929621
- Monaghan, A. (2014, December 15). Britain's poorest households face higher rates of inflation, research suggests. Retrieved from https://www.theguardian.com/business/2014/dec/15/poorest-households-inflation-spending-income
- Murphy, E., & Garvey, E. (2004, October). A Consumer Price Index for Low-Income Households in Ireland (1989-2001). Retrieved from http://citeseerx.ist.psu.edu/viewdoc/download?-doi=10.1.1.499.3875&rep=rep1&-type=pdf
- Sawyer, R. K. (2002). A Discourse On Discourse: An Archeological History Of AnIntellectual Concept. Cultural Studies, 16(3), 433–456. doi: 10.1080/09502380210128324
- Sultan, M. (2019, May 1). Retrieved from https://www.youtube.com/watch?v=l9v2WoRrkpg
- Von Mises, L. (1939). The Non-Neutrality of Money. Retrieved August 17, 2019, from https://mises.org/library/money-method-and-market-process/html/p/377
- World Bank. (2011). Arab Republic of Egypt Poverty in Egypt 2008-09: Withstanding the Global Economic Crisis. World Bank.

measurement and analysis : The practice and the potential. Retrieved August 16, 2019, from http://documents.worldbank.org/curated/en/443151468739272919/Combining-the-quantitative-and-qualitative-approaches-to-poverty-measurement-and-analysis-the-practice-and-the-potential

- Chandler, D. (2017). Semiotics: the basics (3rd ed.). New York, NY: Routledge.
- Derrida, J. (1970). Structure, Sign, and Play in the Discourse of the Human Sciences. Retrieved from http://www2.csudh.edu/ccauthen/576f13/DrrdaSSP.pd
- Feher-Gurewich, J. (2003). A Lacanian approach to the logic of perversion. In *The Cambridge companion to Lacan*(pp. 191–207). Cambridge: Cambridge University Press.
- Figuera, S. (2018). Considerations on Islamic Economic Thought Regarding Monetary Matters in the Middle Ages. *OEconomia*, (8-1), 1–28. doi: 10.4000/oeconomia.2928
- Fioramonti, L. (2014). How numbers rule the world: the use and abuse of statistics in global politics. London: Zed Books.
- Flower, T., & Wales, P. Variation in the inflation experience of UK households: 2003 - 2014 (2014). Office for National Statistics.
- Foucault, M. (1969). What is an author? Retrieved from https://www.open.edu/openlearn/ocw/pluginfile.php/624849/mod_resource/content/1/a840_1_michel_foucault.pdf
- Foucault, M. (2002). The Archeology of Knowledge. London: Routledge.
- Ivanic, M., & Martin, W. (2018, April). Implications of Higher Global Food Prices for Poverty in Low-Income Countries. Retrieved from http://documents.worldbank.org/curated/en/253001468150585777/pdf/

- نيتشه في روايات ديستويفسكي

ماجد وهيب

- الاشتراكية في زمن الأوبئة

جوزيف شونارا

ترجمة: أسماء يس

دراسات

ديستويفسكي

1

نيتشه في روايات ديستويفسكي

ماجد وهيب

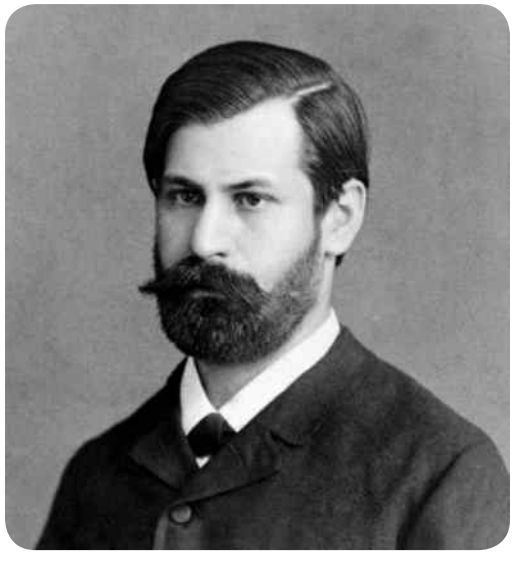

فرويد

يُعرف ديستويفسكي بأنه روائي نفساني، استطاع من خلال دراميات كبرى شديدة الحبكة أن يقدم لقرائه شخصيات فريدة وخالدة في التاريخ الأدبي، وتأتي فرادتها من كونها شخصيات رسمت بدقة شديدة. وما يجعل ديستويفسكي نفسانيًّا في سرده الروائي هو أنه حين رسم شخصياته استطاع، بعبقرية لم يصل إليها أحد من قبل، أن يقدم تصويرًا دقيقًا لنفسية شخصياته، الأمر الذي جعل عالم النفس الكبير سيجموند فرويد شديد الإعجاب برواياته، وبجانب الدراما والتحليل النفسي في أعماله الأدبية كان ديستويفسكي، شأنه شأن كل الكتاب الكبار، صاحب رؤية خاصة للإنسان وللعالم وفلسفة ينقلها لنا من خلال رواياته، وهكذا كان روائيًّا يصنع دراما ومحللًا نفسيًا وفيلسوفًا ومفكرًا كبيرًا. وكما كان فرويد معجبًا به لما في رواياته من تحليل نفسي دقيق، كان نيتشه أيضًا من معجبيه.

وإعجاب نيتشه به يقودنا إلى ما نريد أن نقوله من هذا المقال، وهو أن نبين بأبسط تعبير، دون التعرض لأفكار الاثنين سواء بالرفض أو الموافقة، أن بين شخصيات ديستويفسكي شخصيات نيتشوية، بمعنى أن فيها من فلسفة نيتشه، وفيها أيضًا من حياته، وهذا من مشيئة القدر أو المصادفات وحدها، أن يجري معها قريبًا مما جرى معه، ومبدئيًا فالقول

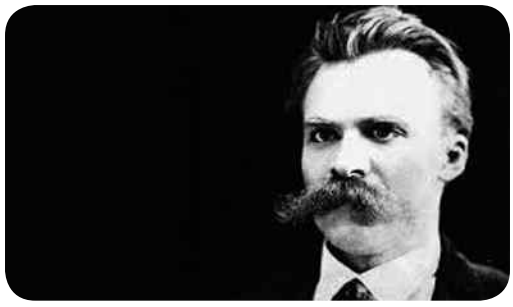

نيتشه

بوجود نيتشه في روايات ديستويفسكي ليس معناه أبدًا أن هناك رواية لديستوفيكسي سنجد فيها شخصية تشبه نيتشه إلى حد التطابق، وإنما يمكننا أن نجد جانبًا من فلسفته، وحياته الشخصية أيضًا، في رواية، وجانبًا آخر في رواية آخرى. جرى هذا طبعًا دون أن يكون ديستويفسكي قد سمع عن نيتشه وتأثر به واستفزته شخصيته فكتب نماذج بشرية تشابهه. المنطقي، والمثبت بناء على قول نيتشه نفسه بأنه من محبي ديستويفسكي، أن العكس هو ما جرى، وهو أن نيتشه تأثر وتفاعل مع شخصيات ديستويفسكي، أعجب بأشياء وعارض أشياء أخرى. نقاط الاختلاف بينهما يمكن بسهولة الإشارة إليها، وهي الأكثر والأوضح والأهم، دون التمعن حتى في قراءة الاثنين. يكفي أن نعرف أن أكثر ما يميز نيتشه هو إلحاده الشديد وانتقاده لأخلاقيات المسيحية حتى إنه أسماها بأخلاقيات العبيد، حتى اتهمه أندريه جيد بأنه كان يغار من المسيح إلى حد الجنون، وهو صاحب الإعلان عن موت الإله وهو المبشر بالإنسان الفائق. وكان ديستويفسكي على النقيض، شديد الإيمان، محبًا للمسيحية والمسيح، بل لا يرى الخلاص للإنسان إلا من خلال الله ولا يرى ضياعه إلا في محاولته بأن يكون إلهًا، ويرفض أن نطلق العنان لعقل الإنسان. أما نقاط التلاقي فلا بد من التمعن حتى نراها، إنها موجودة بين السطور، وفي هذا المقال سنحاول أيضًا الوصول إليها والتوقف عندها.

لنفهم كيف يكون نيتشه حاضرًا في شخصيات ديستويفسكي، وكيف يكون بين الاثنين نقاط تلاقٍ واختلاف، أو لنذهب إلى أكثر من هذا ونقول، تخيلًا وليس جزمًا، إنه ربما تكون قراءة نيتشه لديستويفسكي وإعجابه بكثير من شخصياته الروائية قد ساهما بقدر كبير في تشكيل فلسفته، بل وفي تشكيل شخصيته نفسها وسلوكه ووعيه، علينا أن نتبع طريقًا من اثنين، أولهما أن نتخيل نيتشه يقرأ ديستويفسكي ويتأثر به، سلبًا وإيجابًا، فيكتب، وهو الطريق المنطقي، أما ثانيهما فهو العكس تمامًا، وغير منطقي بالمرة، لكننا سنفترضه جدلًا، وهو أن نتخيل ديستويفسكي حيًّا معاصرًا لنيتشه ويقرأ كتبه، فيتفق معه فيما يتفق، وهو القليل، ويختلف معه فيما يختلف، وهو الكثير. سيختلف معه حين يقرأ هجومه على المسيحية وأخلاقها وعلى الفضيلة باعتبارها في وجهة نظر نيتشه نموذجًا للانحطاط، وحين يقرأ إعلانه عن موت الإله وتبشيره بالإنسان الأعلى. ستثير كتابات نيتشه غيظ ديستويفسكي لأنها ضد فلسفته، ويريد أن يرد عليه بالطريقة التي يعرفها، وهي تأليف الروايات، ماذا سيفعل؟ سيرسم شخصيات تشابه نيتشه وتتبنى فلسفته، أو جزءًا منها، ولكي يثبت خطأ رؤية نيتشه وصحة رؤيته هو، لا بد أن يعطي لهذه الشخصيات النيتشوية نهايات تبدد سعادتها، أو تحيدها عن الطريق أو تغير وجهة نظرها، وفي المقابل ستكون هناك شخصيات على النقيض من نيتشه وفلسفته، وهذه الشخصيات هي التي سينبثق منها النور. يساعدنا على تخيل ذلك أن ديستويفسكي، على الرغم من عبقريته الروائية، لم ينج من فخ الوقوع في الايدولوجية وصبغ رواياته بها، فكان يطرح السؤال وفي النهاية يقدم الجواب حسب وجهة نظره. وهكذا ستكون الشخصيات النيتشوية في روايات ديستويفسكي هي نقاط اختلاف بينهما وليست نقاط تلاقي، لأن الأخير لا يرسمها متبنيًا وجهة نظرها أو راضيًا عن سلوكها، وإنما يرسمها ناقدًا لها رافضًا لما تعتنقه من أفكار.

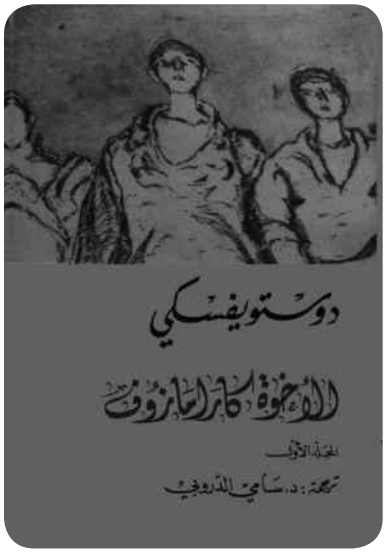

إحدى طبعات رواية الأخوة كارامازوف

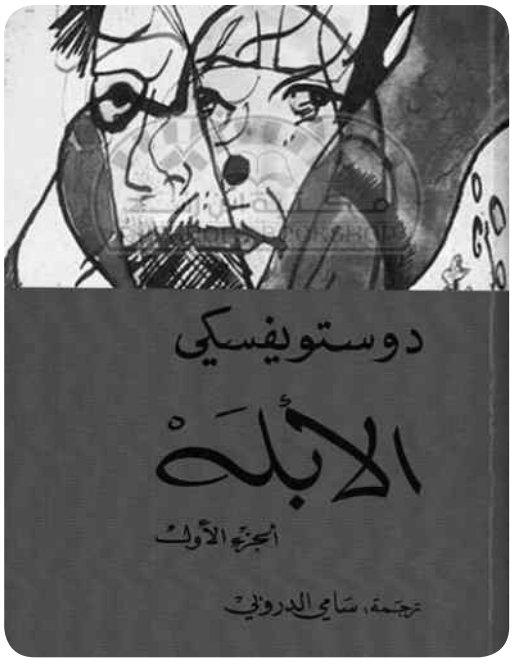

إحدى طبعات الجزء الأول من رواية الأبله

يمكننا البدء من نقطتين، يمكن اعتبارهما نقطتي تلاقي، أولاهما طبيعة شخصيات ديستويفسكي وطبيعة نيتشه وفلسفته. القارئ لأعمال ديستويفسكي يعرف أن شخص ياته في الغالب كانت شخصيات شديدة الانفعال، لا تعرف الاعتدال في مشاعرها ولا في سلوكياتها، تذهب إلى أقصى الطريق، فإذا سلكت، كما في الأخوة كارامازوف، طريق القداسة، أصبحت الأب زوسيما أو أليوشا، وإذا سلكت في الطريق المعاكس، أصبحت إيفان أو فيدرو كارامازوف.

وفي الأبله يسير الأمير ميشكين إلى أقصى طريق النبل والطيبة والصفاء، وفي الشياطين تسير شخصيات كثيرة في الطريق المعاكس، حيث طريق القسوة والعنف والإرهاب. الانفعالية الشديدة هي ما تميز فلسفة نيتشه أيضًا، قمة الثورة والتمرد، هو نفسه قال عن نفسه إنه ليس بإنسان وإنما حزمة ديناميت."ابن مدنك على سفوح جبل فيزوف"، هكذا قال في كتابه: "العلم المرح"، ولدى ديستويفسكي شخصيات كثيرة عاشت على سفوح جبل فيزوف، وكأنها قرأت مقولة نيتشه واقتنعت بها فاختارت أن تعيش فوق حمم بركانية، أو العكس، وهو الأسهل تخيله، أن نيتشه قرأ شخصيات ديستويفسكي المنفعلة المليئة بالدينامية والشطط، فكتب جملته: "ابن مدنك على سفوح جبل زيزوف"، تأثرًا بها. ديستويفسكي لم يكن يهتم بالإنسان في حالته الساكنة، لم يرصده في عاديته، وإنما رصده في حركته وجموحه، شخصياته دائمًا في احتكاك مع الطبيعة والله والمجتمع والأفكار والآخرين، ومع نفسها قبل أي شيء. هكذا كانت فلسفة نيتشه أيضًا، وكان نيتشه نفسه، فلا هو ولا فلسفته كانا في حالة سكون وإنما في دينامية وشطط وجموح. وهكذا تكون هذه النقطة ليست نقطة تلاقي بين نيتشه وديستويفسكي في وجهات نظر، وإنما هي فقط نقطة تلاقي بين طبيعة شخصية الأول وطبيعة شخصيات الثاني الروائية.

النقطة الثانية هي أيضًا لا تخص التلاقي في وجهات النظر، وإنما هي نقطة تلاقي بين طبيعة كتابة الاثنين، أوما يهتم به كلاهما في كتابته، أو بين الوصف الذي من الممكن أن نطلقه على روايات ديستويفسكي والوصف الذي من الممكن أن نطلقه على فلسفة نيتشه، فإذا كان الأول يهتم في رواياته بتصوير الجانب النفسي في شخصياته، حتى أمكننا أن نقول عن رواياته إنها روايات نفسية، فنيتشه أيضًا يمكن اعتبار فلسفته بأنها فلسفة نفسية إذا صح التعبير، هو نفسه قد بدأ حياته كعالم نفس، فلسفته كلها مبنية على المشاعر والانفعالات، إنه يميل إلى الفردية المطلقة، وكان يرد كل شيء إلى الإنسان، ومكان القيم الحقيقي لديه في ذهن الإنسان وليس في العالم ولا في طبيعة الأشياء، وتبنى هجومًا عنيفًا على الميتافيزيقا. وهكذا فمثلما كان اهتمام ديستويفسكي بالإنسان في رواياته، كان اهتمام نيتشه أيضًا بالإنسان في فلسفته، حتى إنه في شذراته، وهي تمثل أغلب كتاباته، كان دائمًا ما يخاطب الإنسان، يحاوره ويسدي له النصائح والحكم والمقولات. الإنسان هو محور اهتمام كليهما وله سخرا كتاباتهما. من هنا يمكننا القول بأن فلسفة نيتشه كانت فلسفة نفسية، أي أنها كانت تهتم بالنفس البشرية وتعزز من قيمة الإنسان كخالق وليس كمخلوق. ديستويفسكي أيضًا كان يعزز من قيمة الإنسان في رواياته كخالق، ولكن ليس المقصود من الخالق هنا عند ديستويفسكي أن يكون الإنسان إلهًا، وإنما يكون خالقًا لطريقه، أي أنه مخلوق حر ينال حريته ويمشي بها إلى آخر طريقه، فيصبح خالقا لمصيره.

الآن علينا أن نذهب إلى أفكار نيتشه ونبحث عنها في شخصيات ديستويفسكي، أو نقوم بالعكس، وهذا ما أفضله، وهو أن نذهب لشخصيات ديستويفسكي ونبحث فيها عن أفكار نيتشه. أي الطريقين سيصل بنا إلى الغاية، وهي أن نضع يدينا على الشخصيات النيتشوية في روايات ديستويفسكي ونبين نقاط التلاقي والاختلاف في وجهات النظر بينهما.

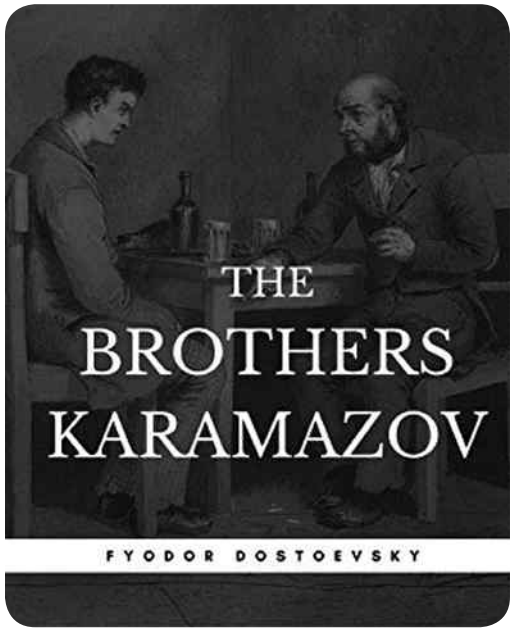

غلاف طبعة إنجليزية لرواية الإخوة كارمازوف

الأخوة كارامازوف

لنبدأ برواية الأخوة كارامازوف، ليس فقط لأنها درة أعمال ديستويفسكي بإجماع أغلب النقاد والقراء، وإنما أيضًا لأنها الرواية التي تضم بشكل واضح النموذجين: النيتشوي والضد، ولأنها أكثر رواياته اهتمامًا بمسألة الإلحاد، والإلحاد أول ما يطرأ إلى أذهاننا عندما نذكر نيتشه. الأب هنا نيتشوي بقدر ما، نيتشوي بكونه متفقًا مع نيتشه في رؤيته بأن الحرية في إشباع الرغبات وكل إشباع لأي جزء في الإنسان هو مصدر قوة له، وكان كانط يتبنى مذهبًا آخر وهو أن حرية الإنسان في زهده في رغباته، وقد عارض نيتشه ذلك. في الابن دميتري سنجد أيضًا ملمحًا نيتشويًا إذ أنه كان مشابهًا لأبيه بقدر كبير في إشباعه لرغباته حتى نافسه على حب امرأة. ويمكن اعتبار الابن إليوشا هو الضد نيتشوي، هو الكانطي فيما يخص الرغبات والحرية إذا جاز التعبير. الشخصية النيتشوية الأخرى في الأخوة كارامازوف، النيتشوية بقدر أكبر ولكن ليس بصورة كلية أيضًا، هي شخصية إيفان. إيفان نيتشوي بنظره إلى ما هو أرضي، بعدم اكتراثه بما هو ميتافيزيقي، باحتقاره لأخلاق المسيحية.

في كتابه "العلم المرح" يقول نيتشه: "إن كل العواطف النبيلة والسمحة للسوقيين مجردة من كل منفعة". نيتشوي برفعه من قدر نفسه، في كتابه "إنسان مفرط في إنسانيته" يقول نيتشه: "إن الإنسان كلما رفع من قدر

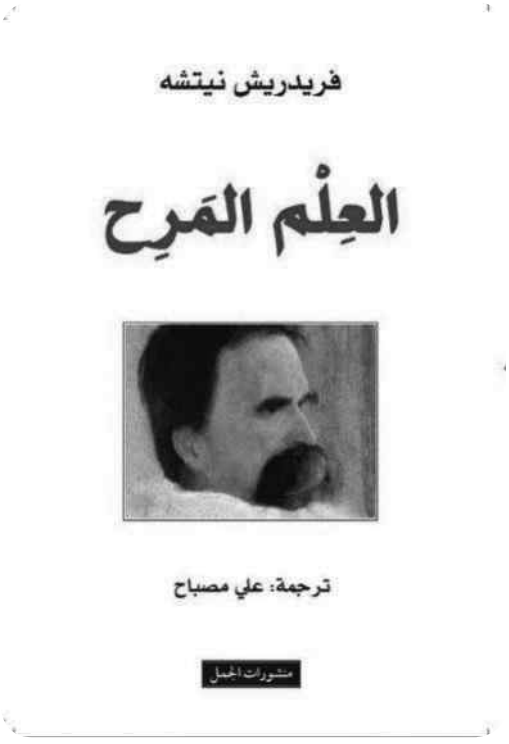

غلاف إحدى طبعات كتاب العلم المرح

نفسه كلما اتسعت الهوة التي تفصله عن الحيوان". وكان إيفان نيتشويًا أكثر وأكثر بإلحاده. "إذا كان الله غير موجود فكل شيء مباح"، هكذا يقول إيفان. لنضع مقولته أمام إعلان نيتشه بموت الإله وإيمانه بأن الإلحاد خير فعل يقوم به الإنسان. هل كان كل شيء مباحًا لدى نيتشه؟ بالنظر في تبشيره بالإنسان الفائق، السوبرمان، وتبريره لاستخدام القسوة إذا لزم الأمر، ومدحه للقوة والحروب لكونها تحرك قوى الإنسان وتجعل الروح البشرية غانمة واعتباره أن مثل هذه الأمور من أخلاق السادة. "هذا اللوح الجديد أعلقه فوقكم يا إخوتي لتغدوا قساة"، يقول نيتشه في أفول الأصنام. ويقول أيضًا في الكتاب نفسه: "إذا ما كانت قسوتكم لا تريد أن تقطع وتبرق وتفصل، فكيف سيكون لكم أن تكونوا شركاء إبداع؟" بالإضافة إلى كلامه عن إرادة القوة، يمكننا أن نجد اعترافًا ضمنيًا منه بأن كل شيء مباح ليصل الإنسان إلى أن يكون سوبرمان، وفي سبيل أن تحقق السياسة مرامها لا مانع لديه في الاستخدام المفرط للقوة.

في كتاب "غواية اللامعقول ـ قصة الغرام الفكري بالفاشية من نيتشه إلى ما بعد الحداثة"، يقول ريتشارد وولين، بترجمة محمد عناني، والصادر عن المركز القومي للترجمة: "كان نيتشه رسول الجلال الثقافي ولكنه كان

أيضًا مدافعًا شديد المراس عن السلطة والقسوة ومنهج القاتل التي يجسدها بعض طغاة التاريخ الذين أسرفوا في سفك الدماء مثل الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر ونابليون". لننظر إلى تأثير مقولة إيفان، أليست هي التي قادت أخاه المصاب بالصرع إلى قتل الأب؟ إيفان لم يقل له اقتل، لكن كلمته جعلته يقتل. ويقابل ذلك في فلسفة نيتشه أن الفاشية وجدت فيه مبشرًا لها. في كتاب "غواية اللامعقول"، الذي سبقت الإشارة إليه، نقرأ: "في نوفمبر من عام 1933 قام هتلر بزيارة تكريم إلى أرشيف نيتشه في فايمر.. وفي أعقاب زيارة هتلر أضيفت القداسة على نيتشه بعد وفاته باعتباره الوحي الفلسفي من وراء المذهب النازي". هكذا يمكننا اعتبار نيتشه معادلًا لإيفان والفاشية معادلًا لسمرديا كوف، قاتل أبيه، المتأثر بإيفان.

ريتشارد وولين

إحدى طبعات كتاب غواية اللامعقول

هتلر

واستمرارًا لفرضية أن ديستويفسكي يقرأ نيتشه ويريد الرد عليه، ننظر إلى نهاية الرواية ونهاية إيفان، التي هكذا، وحسب فرضيتنا، سيكون ديستويفسكي قد وضعها ليثبت خطأ وجهة نظر نيتشه، وهي هنا موت الإله ونفعية الإلحاد. في الصفحات الأخيرة يقولها سمرديا كوف صراحة لإيفان: "أنت علمتني أن أفكر هذا التفكير وأن أقضي في الأمور على هذا النحو، كنت تقول لي دائمًا إذا لم يوجد الإله الذي لا نهاية له، فالفضيلة إذن باطلة لا جدوى منها ولا داعي إليها، هكذا كنت تفكر أنت واستندت أنا إلى أقوالك". لدى إيفان الفضيلة باطلة، ولدى نيتشه هي ليست فقط باطلة وإنما أيضًا نموذج للانحطاط. "المراحل الكبيرة في حياتنا هي هناك عندما نجرؤ على أن نغير اسم شرنا ونعمده خيرنا"، يقول نيتشه في كتابه "ما وراء الخير والشر". بعد ذلك يقتل سمرديا كوف نفسه، فتضيع العدالة ويُحكم على دميتري، المظلوم، بالسجن. تفككت الأسرة، فيخرج إيفان عن صمته، عن تخبطه وهذيانه، ويحس بأنه مسؤول نحو أخيه ونحو العائلة، لم ينفعه إلحاده الذي كان سببًا في قتل أبيه، والذي بدوره أدى إلى تفكك الأسرة وضياعها. الإلحاد الذي نادى به نيتشه يرى ديستويفسكي إنه هدّام، ووراء كل موت للإله ضياع للإنسان، ودون الإله لن تعرف البشرية الحب المخلص، هكذا يرد ديستويفسكي على نيتشه، وفي سبيل رده يأتي بشخصية نيتشوية، ملحدة، وهي إيفان، ليثبت لنا وجهة نظره. ديستويفسكي لا يرى أخلاقًا خارج الدين، لهذا جعل إيفان يؤمن بأن في الإلحاد سيصبح كل شيء مباحًا، لسنا هنا بصدد مناقشته في ذلك، لكن الغريب أن هذا الإيمان، المسيحي جدًا، لم يجعله يسلم من انتقاد الكنيسة له عند نشر روايته، بالطبع ليس لأنه لا يرى أخلاقًا خارج الدين، وإنما لأنه يقر بضرورة إعطاء الحرية الكاملة للإنسان ليكتشف طريقه، وهو ما جرى مع إيفان ودميتري أيضًا، وكونه لا يرى أخلاقًا خارج الدين هي نقطة اختلاف قوية بينه وبين نيتشه، فالأخير يرى مصادر الأخلاق عديدة وأن القيم الأخلاقية يخلقها أناس مختلفون، ولا يرى أصلًا أن أخلاقيات الدين أخلاقيات نافعة، بل يراها أخلاقيات عبيد وضارة. ديستويفسكي لا يترك بطله إيفان نيتشويًا إلى آخر الرواية، فلا بد، لأسباب درامية وفنية أيضًا، أن يتغير كي لا يظل شخصية ثابتة انتهت كما ابتدت، وهو فعل غير محبب دراميًا وفنيًا، ولأسباب فلسفية، تنفع مقدمة ديستويفسكي المنطقية لروايته، لا بد أن يتغير، ليبرهن على أن الإلحاد هدام والخلاص ليس فيه.

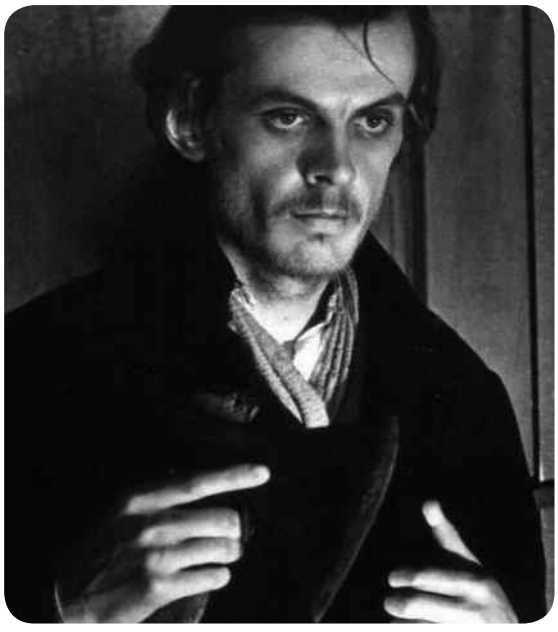

مشهد من فيلم الجريمة والعقاب

الجريمة والعقاب

لننتقل إلى رواية أخرى لديستويفسكي تهتم بفكرة أخرى هي من أهم ملامح فلسفة نيتشه، الرواية هي الجريمة والعقاب والفكرة هي البطل السوبرمان. البطل راسكولينكوف نيتشاوي بشعوره أنه إنسان أعلى، غير تقليدي، بتقسيمه للناس إلى خاضعين طائعين ليس بإمكانهم خرق القانون، وخارقين يحق لهم مخالفة جميع القوانين. نيتشاوي برغبته في تغيير العالم وقانون البشرية، بإيمانه بحريته التامة، حتى تسوقه حريته هذه إلى أن يقتل، وهو يفعل ذلك ليحقق فكرته السامية في نظره والتي ستعود بالخير على المجتمع. لكنه يعرف الشفقة على الرغم من ذلك، يشفق على سونيا وعلى قتيلته أيضًا فيما بعد، وهو هنا غير نيتشاوي، فليس في قاموس نيتشه معنى للشفقة، الفضيلة الدينية، إلا أنها أنانية مستترة لخوفنا من أن يحدث لنا كما يحدث لمن نشفق عليهم. في كتابه أصل الأخلاق وفصلها، يقول نيتشه: "إذا كان معبد على وشك أن يُشيد فوجب أن يدمر معبد". كأن راسكولينكوف قرأ هذه المقولة واقتنع بها، فرأى أنه في سبيل تشييد معبده الجديد عليه أن يدمر معبدًا قديمًا، فيستهين بقتل امرأة، يستهين بوصية لا تقتل، يمكن الإطاحة بهذه الوصية، وهي المعبد القديم، من أجل تشييد معبد جديد يرى راسكولينكوف إنه الأفضل والأنفع للبشرية، إنه هنا نيتشويًا يرى نفسه مخلصًا ونبيًا جديدًا وأفكاره إعلانات حرب كما كان نيتشه ينظر إلى كتاباته. أو كأن نيتشه هو الذي قرأ راسكولينكوف وعرف فكرته السامية فألهمته شخصيته بهذه الجملة. نيتشه أيضا كان يرغب في تغيير العالم، ولأجل ذلك أعلن موت الإله وقال إننا جميعًا قتلناه، وهو يريد أن يظل هذا الإله ميتًا. إن نقده للميتافيزيقا هو أيضًا قتل، نقده لقيم وأخلاقيات عصره المتوارثة قتل. وتخبرنا سيرته الذاتية، كما ورد في كتاب غواية اللامعقول، أنه أرسل إلى أستاذ الموسيقى كارل فوخس يقول: "إنه ما دام الإله القديم قد تنازل عن العرش فسوف أتولى أنا حكم العالم من الآن فصاعدًا". لم يحلم راسكولينكوف بحكم العالم، ولم ير أنه يقبض دون مبالغة على مستقبل البشرية في قبضة يده كما أرسل نيتشه يقول إلى أخته، لكنه كان يرى أنه قادر على تغيير العالم وأنه إنسان غير تقليدي من حقه الاعتداء على القانون البشري. راسكولينكوف ونيتشه يختلفان في الشكل الذي يريدان أن يصبح عليه العالم، لكنهما يتفقان في رفض العالم الحالي وفي قدرتهما على تغييره للأفضل وسعيهما إلى ذلك. أما ديستويفسكي نفسه فيتفق معهما في شيء واحد، وهو رغبته في أن يتغير العالم للأفضل، لكنه يختلف معهما في الطريقة، وفي الشكل الذي يريد أن يتغير إليه العالم.

ومرة أخرى يحاجج ديستويفسكي وجهة نظر نيتشه في ضرورة سعي الإنسان ليكون سوبرمان، في تدميره للمعابد القديمة من أجل تشييد معابد جديدة، في قدرته على أن يغير العالم، أو يحكمه وفق قوانين جديدة يضعها هو، ولأجل ذلك يضع ديستويفسكي في الجريمة والعقاب نهاية تبدد كل ذلك، فمع جريمة القتل لا يتغير العالم ولا يحقق راسكولينكوف ما كان يرجوه منها، ولا يستريح من عذابه إلا بالاعتراف بجريمته ونيل العقاب، بل أنه يعترف أنه بقتل العجوز قتل نفسه، والجريمة تفقده شعوره بالحب نحو الجميع، نحو أهله وحبيبته ورفقائه، ويشعر هنا بأنه عدم، وهنا يظهر، في مسألة العدمية، اختلاف جذري بين نيتشه وديستويفسكي، فالأول يرى العدمية في أن تزول القيم العليا وتحل محلها القيم المزيفة، ربما يوافقه ديستويفسكي في ذلك، لكن لما نعرف ما هي القيم العليا والمزيفة عند كل منهما سنكتشف أنهما على غير وفاق، فالقيم العليا لدى نيتشه هي المزيفة لدى ديستويفسكي، والقيم العليا لدى ديستويفسكي، وهي القيم المسيحية، الإنسانية، قيم الخير، هي القيم الدنيئة والمزيفة لدى نيتشه وهي التي يريدنا أن ننقلب عليها.

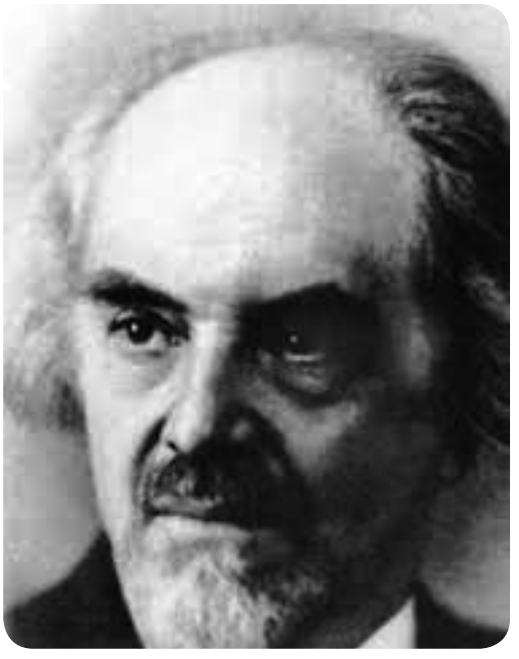

نيقولا برديائيف

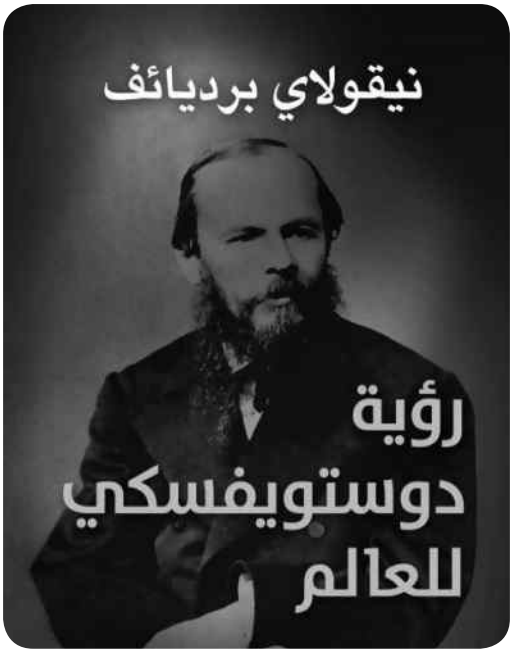

إحدى طبعات كتاب رؤية دوستويفسكي للعالم

في كتابه "رؤية ديستويفسكي للعالم" يقول نيقولا برديائف، بترجمة فؤاد كامل، والصادر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة: "فالإنسان الذي اعتقد نفسه نابوليونًا، إنسانًا عظيمًا إلهًا، فانتهك حدود ما هو مباح للطبيعة البشرية المخلوقة على صورة الإله، هذا الإنسان يتردى في الحضيض ويقتنع بأنه ليس إنسانا أعلى (سوبرمان) وإنما مخلوق ضعيف وضيع، مهزوز، وقد اعترف راسكولينكوف بضعفه التام وبأنه عدم وأفضى به اختبار حدود قوته وحريته إلى نتيجة فاجعة... كل تصور آخر للإنسان الأعلى، السوبر مان، يقتل الإنسان". وكما حدث في الأخوة كارامازوف يحدث في الجريمة والعقاب، يتطور البطل وينتهي على غير ما بدأ، لنفس الأسباب الفنية والفلسفية. لا بد أن يصيبه تأنيب ضمير ويعترف بجريمته ويجد في ذلك الراحة ويعود قادرًا على الحب، ليكون قد تطور، وهو فعل يحمد فنيًا ودراميًا، وليبرهن ديستويفسكي على وجهة نظره وهي أن الإنسان ليس سوبرمان وسعيه إلى هذا يجعل منه قاتلًا، وليس بإمكانه أن يغير القانون البشري، وليس بإمكان القتل أبدًا أن يكون حلًا، وليس الإنسان إلهًا، ولا ينفعه أن يسعى إلى ذلك، هو فقط مخلوق على صورة الإله، وخلاصه في أن يظل على صورته.

ديستويفسكي يتفق مع نيتشه في كونه يريد إنسان أعلى، إنسان أسمى، لكنه لدى ديستويفسكي أسمى روحيًا ودينيًا، ويرى أن وصول الإنسان إلى هذه المرتبة الروحية الأعلى يكون عن طريق التجربة، إنه يرفض ما يقوله المسيحيون في صلاة أبانا الذي: "لا تدخلنا في تجربة"، إنه يريد للإنسان أن يدخل في التجربة حتى تصفى روحه ويسمو، لهذا هو يُدخل أبطاله في أصعب التجارب، وهو الأمر هو الذي حدث مع إيفان ودميتري في الأخوة كارمازوف وراسكولينكوف في الجريمة والعقاب، وهو ما حدث مع بطل المراهق كما سنرى. نيتشه أيضًا يتفق مع ديستويفسكي في أنه لم يكن يخاف التجربة، كان يريد للبشر أن يدخلوا فيها، ولكن ليس ليعبروا من خلالها إلى السمو الروحي، الديني، الإنساني، الفضائلي، ليس ليبصروا منها نور الله، كما يريد ديستويفسكي، وإنما ليخرجوا منها أقوى وأصلب، ليخرجوا منها آلهة. "ما لا يقتلني يجعلني أقوى"، هكذا يقول في أفول الأصنام، لم يقل ما لا يقتلني يجعلني أنقى، أصفى، أسمى روحيًا، قال: "أقوى" لأن هذا ما يهمه، أما النقاء والصفاء والسمو الروحي فهي الأمور التي تعني ديستويفسكي ويهتم بها ويرى فيها الخلاص. نيتشه، لكونه يرى القوة في السعادة والسعادة في تلبية الرغبات، ولأن الأشياء المرغوبة ليست سهلة أبدًا، يرى أن حياة الإنسان هي طريق ألم وكفاح دائم، وعلى الإنسان أن يمشي في طريقه بكل قوته لينال ما يريده ويهزم ما يعوقه ويغلب ما يستعصي عليه ليكون أعلى، وحياة الإنسان لدى ديستويفسكي هي أيضًا طريق ألم وكفاح، لكن غاية نيتشه

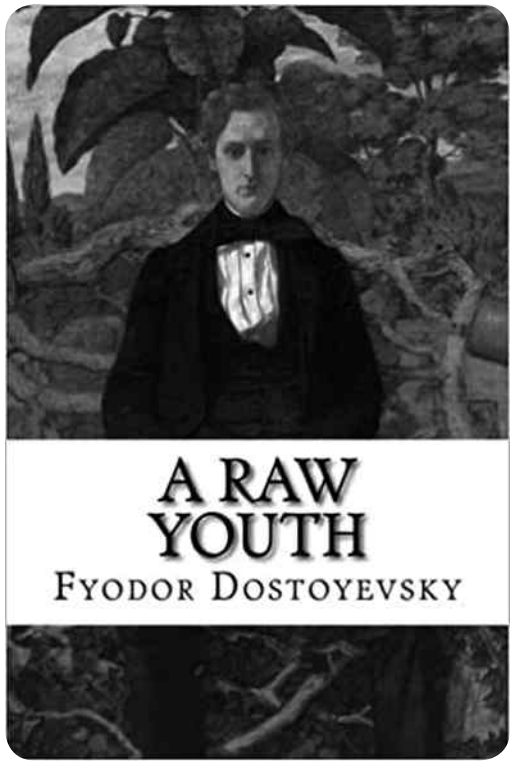

غلاف إحدى طبعات رواية المراهق

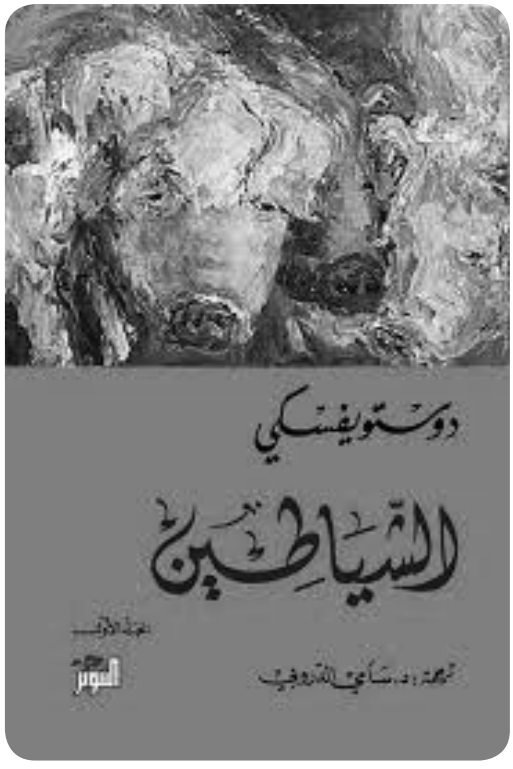

غلاف إحدى طبعات رواية الشياطين

من الكفاح الدائم هي إشباع الرغبات التي لا تنتهي عند الإنسان، أما عند ديستويفسكي فغايته من كفاح الإنسان هي أن يبصر نور الله.

المراهق

في المراهق لدينا أيضًا بطل نيتشاوي، نيتشاوي بكونه برجماتي، بالإرادة القوية والعزيمة الصلبة في أن يصبح شخصًا ثريًّا، حتى أنه في سبيل ذلك يعزف عن تناول الطعام ليدخر ويكوِّن ثروة ويدبر الخطط والمناورات لتحقيق حلمه في الثراء، حتى إنه لا يتردد في ابتزاز أبيه. آركادي، بطل المراهق، يعامله زملاؤه باحتقار ويرونه شخصًا دنيئًا، لكن ذلك لا يؤثر عليه في شيء، الإرادة الصلبة التي لديه لن يوقفها أي عائق. في كتابه ما وراء الخير والشر يقول نيتشه: "من يحتقر نفسه ما زال يحترم نفسه بوصفه محتقرًا". آركادي المراهق هوميروسي يوناني أيضًا مثل نيتشه، يؤمن أن معنى أن تكون جيدًا هو أن تكون سعيدًا وأن تحظى بالأشياء التي تجلب السعادة مثل الثروة والقوة والسلطة، وهذه نقطة اختلاف بين نيتشه وديستويفسكي، فمعنى أن تكون جيدًا عند ديستويفسكي هو أن تكون خيرًا، لكن نيتشه يشطب خيرًا ويضع سعيدًا مكانها، وديستويفسكي يرى قوة الإنسان في ألا يصير عبدًا لرغباته، نيتشه يرى أن قوته في أن يشبع رغباته، لأنه هكذا سيصير سعيدًا، إن القوة والسعادة لدى نيتشه مرتبطان ببعضهما. ومرة أخرى يحاجج ديستويفسكي نيتشه، فيغرق المراهق في الديون، لا تنفعه خططه ولا إرادته الصلبة، لا وجود للسوبر مان، فالإنسان أضعف، ليس فقط أمام الطبيعة وإنما أيضًا أمام نفسه، فالمراهق الذي أراد أن يكون ثريًا ساقته أفعاله نفسها، اختياره الحر، إلى أن يصبح مدينًا. وينقلب الأمر عليه، بصنع يديه، حتى يصاب بنوع من الانغلاق على الذات، وفي النهاية لا يجد خلاصه في حلمه وسعيه لإشباع رغباته، لا يجد قوته ولا سعادته في ذلك، وإنما يجدهما في المسيح. هنا يدخل المراهق في التجربة التي يريد ديستويفسكي للناس أن يدخلوا فيها، فيعثر على خلاصه. وهنا أيضًا، كما في الأخوة كارامازوف والجريمة والعقاب، يتطور البطل، للأسباب ذاتها الفنية والفلسفية.

الشياطين

في الشياطين، وهي الرواية السياسية في روايات ديستويفسكي، سنجد شخصيات نيتشاوية كثيرة، هنا يظهر نيتشه السياسي إذا صح التعبير. بيوتر يريد أن يكوّن خلية ثورية، ويضم فيها عددًا غير قليل من المتمردين والثوريين، ولكي يختبرهم ويختبر ثقتهم به

وثقتهم ببعضهم البعض يقتل واحدًا من الأعضاء وهو إيفان شاتوف. إنه يريد أن يختبر مدى الترابط بينهم، ولا يتردد في أن يكون ثمن ذلك هو قتل أحدهم. إن مبدأ الغاية تبرر الوسيلة موجود لدى البطل، وموجود لدى نيتشه، وكأن في نيتشه شق ميكافيللي يبرر الوسيلة للوصول إلى الغاية. يؤمن نيتشه بأن الحروب والشجاعة صنعت أكثر مما صنع حب الجار، وهكذا يكون بيوتر نيتشاوي لتمجيده لحالة حرب يريد أن يدخلها ويريد لأجل الدخول فيها أن تكون لديه شبكة من متطوعين يمشون معه في الدرب، وهو مثل بطل المراهق نيتشاوي أيضًا بكونه هو الآخر برجماتي. لكن بيوتر يختلف عن نيتشه في أمر جوهري، إنه اشتراكي ونيتشه غير ذلك، نيتشه لا يؤمن بأن على الطبقات الدنيا أن تطالب بحقها، إنه يري في الاشتراكية حقدًا وحسدًا وتطلعًا لما عند الغير. إذا تخيلنا نيتشه ينظر إلى بيوتر، وبقية أبطال الشياطين الثوريين المتحمسين، سنراه معجبًا بحماستهم، بشجاعتهم، برغبتهم في أن يكون أشباهًا بالإله، برغبتهم في الهدم والتغيير، لكنه أيضًا سيراهم يوظفون كل ذلك في الطريق الخطأ، طريق الثورة لصالح الاشتراكية، لصالح الطبقات الدنيا التي لا يشفق نيتشه عليها. في خاتمة كتابه "نيتشه مفتتًا" يقول بيير بودو عن زرادشت إنه يقدم نفسه كآخر جندي صليبي في زمن تخلى عن الحروب الصليبية. زرداشت جندي صليبي، ليس بمعنى أنه جاء ليغزو أممًا، وإنما ليغزو أفكارًا، وإن كان نيتشه نفسه من ممجدي الحروب ومادحيها. بيوتر، بطل ديستويفسكي، يقدم نفسه كذلك أيضًا، جنديًا يريد أن يكوّن جيشه ليغير أفكارًا وأوضاعًا سياسية لكن في سبيل تغييرها لا بد من تهديد أمان الأنظمة، لا بد من الضغط عليها والإطاحة بها تمامًا إذا أمكن، لكن ديستويفسكي لا يكتب له النصر، لا يكتب لفلسفته ورؤيته وأفكاره بمعنى أدق. ديستويفسكي لا يريد حروبًا صليبية، لا يراها ستنفع البشرية وإنما ستدمرها، سواء كانت حروبًا بالمعنى الحرفي تهدد أنظمة حاكمة، هو نفسه لديه تحفظات عليها وانتقادات، لكنه يختلف في طريقة المعالجة، أو كانت حروبًا موجهة ضد أفكار وثقافات تريد أن تنسفها، هو أيضا يختلف في الطريقة والمعالجة. ديستويفسكي يرفض الاشتراكية، مثل نيتشه، لكن لأسباب مختلفة، فالأول يرفضها لأنها في وجهة نظره تعادي المسيحية وتريد أن تحل محلها، يرفضها لما فيها من إلحاد على الرغم من ما فيها من حب للفقراء والمستضعفين، وقد كان محبًا لهم جدًا متبنيًا في ذلك موقف المسيح. الثاني يرفضها لأنه يراها تطلعًا لما عند الغير، حتى أنه انتقد مبادئ الثورة الفرنسية، وإن كان على الرغم من ذلك يرى أن الطبقات العليا والسلطوية هي التي من الممكن أن تبادر بمنح الطبقات الدنيا بقدر مما تحتاج إليه، كنوع من التفضل عليها، وهكذا كان موقفه من الفقراء والمستضعفين عكس موقف ديستويفسكي تمامًا.

إنسان القبو

وفي رواية إنسان القبو لدينا أيضًا بطل نيتشاوي، نيتشاوي بكونه متمرد، محتج، وغير راض عن الواقع، لا يريد أن تتقيد حريته، يرى الإنسان لا يساوي شيئًا دون رغباته ودون اختياره. بطل يقول في الصفحات الأولى من الرواية: "أفضل أن يفهم المرء المستحيلات والجدارن الصخرية ويدركهما بدلًا من الوصول إلى اتفاق مع هذه المستحيلات ومع هذه الجدران الصخرية". ألا نجد فيما كتبه نيتشه ما يتفق مع ذلك؟ إن فلسفة نيتشه كلها هي ضد القيام باتفاق مع المستحيلات والجدران الصخرية، إنه يناطحها ويفضل أن يصطدم فيها بكل قوته ليفهمها ويهدمها عن أن يقيم مؤامات معها واتفاقات بالهدنة. إنه يكتب بمطرقة، والمطرقة سلاح من يفضل أن يفهم ويهدم الجدران الصخرية، مثل بطل ديستويفسكي، وديستويفسكي نفسه كان يكتب بمطرقة، وهنا نقطة تلاقي بينه وبين نيتشه، نقطة تلاقي في طبيعة شخصية كل منهما، وليست في وجهات النظر، فكلاهما شجاع في طرح أفكاره ونقده، كلاهما مخلص لقضاياه ويكتب بكل طاقته، نيتشه يذهب مع الفلسفة إلى الآخر حتى أنها تشكل سلوكه فيشعر بها ويفكر بها، وديستويفسكي أيضًا يذهب مع الأدب والدراما إلى أقصى الطريق، فيشكلان سلوكه ويفكر بهما ويحس بهما.

الحرية بين ديستويفسكي ونيتشه

في كل من الأخوة كارامازوف والجريمة والعقاب والمراهق والشياطين وإنسان القبو، يمكن أن نتخيل نيتشه يقرأ ويُعجب بإلحاد إيفان وبفيدرو ودميتري وهما يشبعان رغباتهما، وبسعي راسكولنكوف ليكون سوبرمان، وبرغبة المراهق في الثروة، وبحماس الشياطين، وبأسئلة إنسان القبو ورغبته في الحرية. يتفق لكنه يختلف في النهاية. يمشي الطريق مع ديستويفسكي، مع أبطاله، معجبًا بهم، لكن تأتي النهاية لتناهضه، فتحدث الفرقة وتظهر نقاط الاختلاف، يصرخ في وجه ديستويفسكي: "لماذا فعلت بهم هكذا؟" فليست النهايات التي يضعها ديستويفسكي هي التي

يريدها نيتشه، إنه لا يمشي أبدًا في الطريق، أي طريق، سواء كان طريق الحرية أو طريق الإنسان الأعلى أو رفض الاشتراكية، إلى آخره مع ديستويفسكي، لأن الغاية مختلفة، فلا بد من نقطة يفترقا فيها ويمضي كلاهما بعدها إلى طريقه الخاص.

إن قضية الحرية كانت شغلًا شاغلًا لدى نيتشه، ولدى ديستويفسكي أيضًا في كل أعماله. نيتشه يريد إنسانًا حرًا، ولكن حرًا بمعنى أن ينقلب على كل ما هو سائد، قديم، يعوقه، أما ديستويفسكي يريد إنسانًا حرًا حرية مسؤولة، حرًا من أطماعه ومن عبودية نفسه لنفسه ولأفكاره. لأجل ذلك هو يقدم نماذج تريد الحرية التي يريدها نيتشه، فتقودها هذه الحرية في النهاية إلى جحيمها لتعرف أن هذه ليست هي الحرية النافعة، لكنه مع ذلك يرى أن الإنسان لن يعرف الطريق الصواب إلا بالسير في الخطأ أولًا، لهذا فهو يفضل له أن يتحرك ويمشي في الخطأ حتى يعرف الصواب من أن يظل ساكنًا في منطقة رمادية، ولهذا جاءت شخصياته كلها متحركة غير ساكنة. الحرية عند ديستويفسكي، كما يقول نيقولا برديائف في كتابه رؤية ديستويفسكي للعالم: "الحرية في نظره تتصل بالعدالة الإنسانية والعدالة الإلهية... ويعكف على دراسة مصير الإنسان في الحرية ومصير الحرية في الإنسان، وراوياته جميعًا تمثل تجربة الحرية الإنسانية، والإنسان يبدأ في التمرد باسم هذه الحرية، متهيئا لكل العذابات مستعدًا للجنون شريطة أن يشعر بأنه حر وهو يبحث في الوقت نفسه عن الحرية المتطرفة النهائية... وتشهد مصائر راسكولنيكوف وستافروجين وكيريلوف وإيفان كارامازوف على أن حرياتهم التي وجهت توجيها خاطئًا هي التي أضاعتهم". في المقابل فإن موقف نيتشه من الحرية مختلف تمامًا عن موقف ديستويفسكي، نيتشه يرى أن الحرية تكمن في تلبية الإنسان لرغباته وليس في تجاهلها أو كبتها أو الزهد فيها، إن في الزهد فيها، كما يرى هو، نوعًا من أنواع قتل ما هو إنساني وجميل في الإنسان، أليس موقف نيتشه هو نفسه موقف بطل ديستويفسكي في إنسان القبو؟ ألا يتساءل بطل ديستويفسكي ماذا يكون الإنسان دون رغباته؟ ماذا يتبقى منه؟ ألا يعتبر هذا سؤالًا نيتشاويًا من المقام الأول؟ لكن ماذا موقف ديستويفسكي نفسه من رغبات الإنسان؟ ماذا يريد منه أن يفعل حيالها؟ لا يريد منه أن يكبتها فيصير مسخًا، ولا أن يطعمها فيصير عبدًا لها، إنه يريده أن يتحرر منها، وإذا لم يكن من سبيل إلى ذلك غير أن يلبيها فليفعل حتى تضره فيكره طعمها ويلفظها بكامل إرادته، وهنا نقطة اختلاف بينه وبين نيتشه.

كل من نيتشه وديستويفسكي يرى أن الحرية واجبة للإنسان، هي مؤلمة لكن عليه أن يمشي في طريقها على الرغم من ذلك، هذا الاتفاق بينهما ربما هو أكثر ما جعل نيتشه معجبًا بديستويفسكي، وربما هي أوضح نقطة تلاقٍ بينهما، لكن هناك أيضًا اختلافًا جوهريًا، فالأول يريده أن يمشي مع الحرية ليصل إلى الإنسان الأعلى، والثاني يريده أن يصل بالحرية إلى المسيح. هنا جوهر الاختلاف. ديستويفسكي لا يدين سعي الإنسان إلى الحرية ولا يريد أن يسلبها منه، لكنه يدين توجيهها التوجيه الخطأ. في كتابه رؤية ديستويفسكي للعالم يقولها نيقولا برديائف صراحة: "وثمة اختلاف كبير بين نيتشه وديستويفسكي، فديستويفسكي تعرف على ما في تأليه الإنسان من وهم، كما أنه ارتاد بعمق طريق الطغيان الإنساني، وكان يمتلك علمًا آخر، إذا كان يبصر نور المسيح. أما نيتشه فعلى العكس كانت تسيطر عليه فكرة الإنسان الأعلى التي اغتالت فيه فكرة الإنسان".

التناقض والازدواجية

بعد هذا العرض للشخصيات النيتشوية في روايات ديستويفسكي يبقى لنا أن نلقي نظرة على نقطتي تلاقي أخريين، كالنقطتين اللتين بدأنا بهما المقال، بين طبيعة نيتشه كفيلسوف وطبيعة شخصيات ديستويفسكي الروائية، وقد فضلت أن أوجل ذكرهما لما بعد التعرض لروايات ديستويفسكي وفلسفة نيتشه والإشارة إلى الشخصيات النيتشوية عند الأول، ليكون الكلام مفهومًا أكثر. النقطة الأولى هي التناقض والازدواجية، وهما صفة مشتركة في شخصيات كثيرة كتبها ديستويفسكي، ويوجدان أيضًا لدى نيتشه، إلى حد أن كارل ياسبرز قال عنه: "من الممكن أن نجد لدى نيتشه بصدد كل حكم نقيضه، فكأن له في الأشياء رأيين، وقد أمكن لمعظم الأطراف أن تختبئ خلف سلطته: الملحدون والمؤمنون، المحافظون والثوريون، الاشتراكيون والفرديون، العلماء المنهجيون والحالمون، السياسيون واللاسياسيون، أحرار الفكر والمتعصبون". نستطيع القول إن ياسبرز يتجنى على نيتشه بقدر ما، فلا أظن أن مؤمنًا يمكنه أن يختبئ وراء فسلفته، لكن ذلك أيضًا لا ينفي عنه صفة التناقض والازداوجية. وفي كتابه عن نيتشه، الصادر عن دار المعارف بمصر، يقول فؤاد زكريا في مقدمة الكتاب: "والمهمة الكبرى بالنسبة إلى دارس نيتشه في عصرنا الحالي ليست هي أن يتساءل: هل كان نيتشه فيلسوفًا عقليًا، فرديًا، متناقضًا مع نفسه؟ وإنما أن يتساءل: لم كان نيتشه فيلسوفًا لا عقليًا، فرديًا، متناقضًا مع نفسه؟".

واحي التناقض عند نيتشه كثيرة ويمكن أن يؤلف عنها كتابًا منفصلًا، لكن على سبيل المثال، كما يوضح فؤاد زكريا في كتابه الذي سبقت الإشارة إليه، يمكن النظر إلى موقفه من العلم، وهو كان مؤمنًا به أشد إيمان واثقًا فيه أشد ثقة، ولهذا نجده يهاجم الميتافيزيقا هجومًا عنيفًا، على أنه تناقض مع إيمانه بالوجودية التي تؤمن، كما كان يؤمن هو بالضبط، بأن الإنسان متجدد وليس له ماهية ثابتة متحجرة، ولكن الوجودية لا تثق في العلم ثقة نيتشه فيه. أما شخصيات ديستويفسكي فهي مصابة أيضًا بالتناقض والازدواجية، لكنها تختلف في الدرجة والموضوعات، سنجدها مصابة بازدواجية في علاقاتها العاطفية، في حبها الأفلاطوني والشهواني، في علاقتها بالبشر، في أفكارها نحو الله والأخلاق. في الأخوة كارامازوف لدينا بطل يحب الناس وهو على مبعدة منهم، يحبهم حبًا يصور له أنه على استعداد أن يضحي بنفسه من أجل البشرية عامة، لكنه ما إن يقترب من أحدهم حتى تسوءه منه أبسط التصرفات، وربما يشعر بكراهية شديدة نحو أحد الناس لمجرد أنه يصدر صوتًا وهو يأكل. في الجريمة والعقاب لدينا بطل يحيب مرة على المحقق بأنه يؤمن بالله، ومرة أخرى يجيب على سونيا بأنه غير مؤمن بالله، بطل يحلم بحصان يضربه مجموعة سكارى فيبكيه ويرى الحلم بشعًا، ثم هو نفسه يقتل امرأة عجوز؛ بطل قاتل ومشفق في آن. وفي إنسان القبو لدينا بطل يحتقر زملائه ولكنه في أحيان أخرى يعتقد بأنهم أرفع منه. وشخصيات ديستويفسكي في كثير من الأحيان لا تقر بازدواجيتها وقد لا تراها أصلًا، وكذلك نيتشه لا يعترف بازدواجيته. نيتشه غير مرتكز على مذهب فلسفي بعينه، إنه يهاجم المذاهب كلها، وأبطال ديستويفسكي أيضًا غير مرتكزين، إنهم مثل نيتشه نفسيون، بمعنى أنهم انفعاليون، تحركهم المشاعر والانفعالات أكثر مما يحركهم العقل، أو لنقل إن أفكارهم مصدرها المشاعر والانفعالات، ولهذا يكونوا غير مرتكزين.

الحقيقة

النقطة الثانية هي في التشابه بين نيتشه الذي كان يرى أن الحقيقة التي تحتاج إلى اثبات ليست بحقيقة، ولهذا كان كثيرًا ما يعرض أفكاره دون أن يكلف نفسه متاعب إثباتها، ولم تكن لديه أفكار محددة عن أشياء كثيرة كفكرته عن الحياة مثلًا، إلا اعتبارها بأنها إرادة القوة، لكنها فكرة أوسع من أن نعتبرها محددة ودقيقة، وبين شخصيات ديستويفسكي التي أيضًا كانت لا تثبت حقائقها، إما لأنها عاجزة عن ذلك بالكلام، أو لأنها لا تعرف أصلًا حقائقها وتصاب بقدر كبير من التشوش، إنها شخصيات عارفة لنفسها وجاهلة في آن. بطل الجريمة والعقاب لا يعرف بالضبط ملامح الفكرة السامية التي سيغير بها العالم، هو مشوش وينسحب تشوشه هذا على جريمته فتبدو جريمة مفككة ساذجة، غير متقنة، مضحكة ربما، جريمة مثل صاحبها مشوشة. خطة المراهق أيضًا للثراء هي خطة مشوشة ضعيفة تسوقه إلى الوقوع في الديون، في الشياطين أيضًا لدينا أبطال مثل سابقيهم، أبطال بينهم وبين أفكارهم هوة كبيرة، تجعلهم يبدون تافهين على الرغم من قسوة وشيطنة تفكيرهم. الأمر نفسه في الأخوة كارامازوف، لدينا شخصيات لا تستطيع أن تعبر عن نفسها وحقيقتها وفي مقدمتهم إيفان ودميتري، حتى في رواية إنسان القبو، وهي التي جاءت بضمير المتكلم، والبطل فيها يحكي طيلة الرواية عن نفسه وعن مشاعره وأفكاره، إلا أنه لا يعرف نفسه تمام المعرفة. كانت حياتي كئيبة مشوشة، يقول في بداية الجزء الثاني من الرواية.

هكذا تكون نقاط الاتفاق بين نيتشه وديستويفسكي، في رؤيتهما للعالم والإنسان والله، أقل بكثير من نقاط الاختلاف، والاختلاف بينهما هو الجوهري، لهذا فإن كل المقدمات المنطقية لروايات ديستويفسكي هي نقيض لفلسفات نيتشه ومناهضة لها، يناهض فلسفته القائلة بنفعية الإلحاد والنظر إليه على أنه خير فعل يقوم به إنسان على وجه الأرض. يناهض فلسفته المبشرة بالإنسان الأعلى. يناهض تبريره للقسوة، لإرادة القوة، يناهض فلسفته القائلة بأن حرية الإنسان وخلاصه تكمن في تلبيه رغباته. يناهض زرداشت.

نيتشه كشخصية ديستويفسكية

لنترك فلسفة نيتشه الآن جانبًا، وإن كنا لا يمكن أن نتحقق منه وهو في معزل عنها، فقد امتزجت فلسفته بحياته حتى صارت معجونةً فيها، ولكن لنفعل هذا حتى يتسنى لنا أن نلمس وجوده الشخصي، الدرامي، بعيدًا عن كتبه، في شخصيات ديستويفسكي ومصائرهم. سنراه أولًا في راسكولينكوف بوضوح من خلال جنون العظمة الذي كان لديه إذ أن راسكولينكوف، الذي رأى نفسه خارقًا، كان مصابًا أيضًا بالمرض نفسه، وكان إيفان في الأخوة كارامازوف أيضًا كذلك، وإن اختلف الاثنان، راسكولينكوف وإيفان، مع نيتشه في السبب الذي لأجله أحسا بجنون العظمة وفي مقدار إحساسهما به، إذ كان عند نيتشه أوضح وأعلى. في كتاب غواية اللامعقول

غلاف إحدى طبعات كتاب الله في الفلسفة الحديثة

نقرأ: "ونلمس ازدياد جنون العظمة لديه والذي يثير المشاعر والإشفاق أيضًا، بصورة واضحة في الخطاب الذي أرسله في ديسمبر عام 1888 إلى والدته ويقول فيه: بصفة عامة أصبح ابنك الذي كبر شخصًا مشهورًا الآن، ومن بين المعجبين بي عباقرة حقيقيون، ولا يحظى اليوم اسم مثل اسمي بالتقدير الكبير والتبجيل وترين أن هذه أعجب نكته، فمن دون حسب ولا مرتبة رسمية ولا ثروة يعاملني الناس معاملة أمير صغير، وأنا أعني جميع الناس، حتى البائعة الجوالة التي لا تهدأ حتى تعثر على أحلى حبات العنب لديها لي". وكما أن شخصيات ديستويفسكي يصيبها التغير والتطور ككل الشخصيات الدرامية، سنرى تطور نيتشه أيضًا في كونه بدأ حياته دارسًا للاهوت البروستناتي، ثم سيترك دراسة اللاهوت بعد فصل دراسي واحد مما خيب أمل والدته.

في كتاب "الله في الفلسفة الحديثة" لجميس كولينز، بترجمة فؤاد كامل، والصادر عن دار آفاق للنشر والتوزيع، نقرأ قصيدة نظمها نيتشه في مطلع شبابه خاطب فيها الله قائلًا: "أريد أن أعرفك أيها الواحد المجهول/ أنت يا من تصل إلى أعمق أغوار نفسي/ وتكتسح حياتي كالعاصفة الهوجاء/ أنت يا من تند عن التصور/ ومع ذلك ترتبط بنا أشد الارتباط / أريد أن أعرفك بل أن أعبدك"، ثم في يونيو عام 1865 أرسل إلى أخته خطابًا قال فيه: "إن طرق الرجال تفترق، فإذا كنت ترغب في سلام الروح والطمأنينة فعليك بالإيمان، وإذا كنت ترغب في أن تكون نصيرًا للحقيقة فعليك بالشك". وبعد ذلك سيصرح، بكل عنف وحماس، بالإلحاد وسيقول عن نفسه إنه ملحد بالفطرة والمزاج، وسيقضي أغلب عمره متفرغًا بإخلاص لأفكاره، وفي نهاية رحلته مع الكتابة سيوقع رسائل أخيرة كئيبة باسم المصلوب، ثم يصيبه الصمت، التحول الدرامي الآخر، ففي عام 1889، في تورينو، كما يرد في الحكاية، يجد سائق عربة وبيده سوط يضرب به حصانه بلا رحمة، فيلقي نيتشه نفسه على الحصان ويحضنه ويقول له: "أنا أفهمك"، ويخاطب أمه قائلًا: "أنا أحمق يا أماه" وتكون هذه العبارات هي آخر ما قاله، ثم يدخل بعدها في مرحلة صمت وجنون. إن هذا التحول الدرامي الأخير في حياة نيتشه هو أيضًا تحول ديستويفسكي في المقام الأول، بمعنى أنه موجود في أعمال ديستويفسكي، موجود في الأخوة كارامازوف عندما خرج إيفان بعد مقتل أبيه وسجن أخيه عن صمته وهذيانه، ليس المهم هنا هو أن يصمت المتكلم أو يتكلم الصامت، المهم هو التغير، الشعور بالمسؤولية، إيفان أحس بمسؤولية نحو أخيه وعائلته، ونيتشه، في تورينو، أحس بمسؤوليته نحو الحصان وقال له أنا أفهمك واحتضنه ليحميه، وبتصرفاته بعد ذلك ومحاولاته لإظهار براءة أخيه يكون إيفان نفسه قد قالها لديمتري ضمنًا "أنا أفهمك" وسيسعى لإظهار براءته ليحميه من السجن ظلمًا. موجود أيضًا في الجريمة والعقاب، فقبل وقوع الجريمة يحلم راسكولينكوف بنفسه وهو طفل صغير يمشي مع أبيه ويرى مجموعة من السكارى يعذبون فرسة هزيلة فيجري ويرتمي على الفرسة الميتة ويبكي. إن أناه في الماضي، أناه وهو طفل، وأناه في المستقبل، عندما سيعترف بجريمته ويدين أناه الأخرى التي أحلت القتل واستهانت به، هي التي تبكي الحصان وتشفق عليه، وكذلك نيتشه، فأناه التي حضنت حصان تورينو هي أناه في الماضي، قبل أن تسيطر عليه أفكاره، وأناه المستقبلية، التي ستصمت بعد الحادثة وتدخل في الجنون. راسكولنيكوف الحاسب نفسه سوبر مان وغير تقليدي، الزرادشت الباحث عن إنسان فائق، يصمت عن جريمته، ثم يتكلم ويعترف بها، في التخطيط لها والقيام بها وصمته عنها هو زرداشت متكلم باحث عن إنسان فائق والصامت فيه هو الإنسان العادي، وفي اعترافه بها وندمه عليها هو زرادشت صامت والمتكلم فيه هو الإنسان العادي المعترف بأنه ليس سوبر مان. حادثة

حصان تورينو مع نيتشه هي صمت من نيتشه الزرادشتي السوبرمان ونطق من نيتشه العادي، وسنوات الصمت التي قضاها بعد ذلك يمكن، إذا جاز القول، معادلتها دراميًّا بسنوات السجن التي قضاها راسكولنيكوف بعد الاعتراف بجريمته، واستمرارًا منا لتخيل ديستويفسكي حيًا يقرأ نيتشه ويعاصره، فإن ديستويفسكي كان سينظر إلى سنوات صمت نيتشه على أنها كذلك، سيراه مثل أبطاله، يحمل عبء حريته ويجن بها ثم يصل من خلال التجربة إلى الصفاء والسمو، كمثل حديد لا ينصهر إلا بالنار، وستكون النار التي انصهر فيها نيتشه في نظر ديستويفسكي هي مؤلفاته، فلسفته عن إرادة القوة والخير والشر والإنسان الفائق وموت الإله، وسيكون صمته هو انصهاره. أما الاعتراف أمام أمه بكونه أحمق، فهو أيضًا يمكن اعتباره اعترافًا ديستويفسكيًّا، فمعظم أبطال ديستويفسكي يعترفون بحماقتهم، بعضهم يعترف بها منذ البداية وبعضهم يعترف بها عند اقتراب النهاية، عند الإفاقة من جموحهم والتحرر من سيطرة أفكارهم، أو انفعالاتهم، عليهم.

يبقى لنا أن نقول أخيرًا إن ديستويفسكي لم يكن، على الرغم من خلافه مع شخصياته، كارهًا لها، وإلا لما استطاع أن يرسمها بكل هذه الدقة، إنه يفهمها جيدًا ويستوعب ما فيها ويشفق عليها ويحبها.

***

(يمكن الرجوع إلى روايات ديستويفسكي موضوع البحث ومؤلفات نيتشه والكتب المشار إليها في نص الدراسة كمراجع).

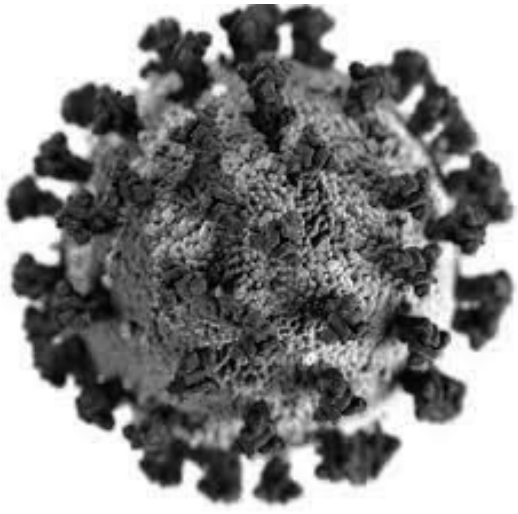

تسبب كوفيد - 19 في وفاة مئات الآلاف حول العالم

الاشتراكية في زمن الأوبئة *

جوزيف شونارا

ترجمة: أسماء يس

قد يكون مغريًا التعامل مع الأوبئة باعتبارها أحداثًا غير متوقعة، واجتياحًا كارثيًا من الطبيعة للمجتمع البشري[1]. ومع ذلك، فإن تفشي ڤيروس كورونا 2019 (كوڤيد- 19) ليس سوى ظاهرة «طبيعية». إذ تحدث الأوبئة في سياق اجتماعي وسياسي واقتصادي يتداخل مع عمليات أخرى؛ مثل طفرات الڤيروسات، وانتقالها من مضيف إلى آخر، وتأثيرها على الكائنات الحية. ومن ثَم، لا يمكن فهم طبيعة جائحة كوڤيد- 19 دون النظر إلى الرأسمالية في تكوينها الحالي.

قبل كل شيء، فإن وباء، على هذا المستوى، يزيد من حدة أخطاء الرأسمالية الموجودة بالفعل من قبل. وبشكل أساسي، فإنه يضعنا أمام خيارين: إما الدفاع عن الأرباح، أو إنقاذ الأرواح. وتشير الدلائل، حتى الآن، إلى أن الخيار الأول كان الأولوية القصوى لأولئك الذين يترأسون هذا النظام. تستكشف هذه المقالة كيف تتشابك الأوبئة مع منطق رأس المال،كما تقدم بعض الاستجابات المحتملة من اليسار.

1- شكر وتقدير لكل من أليكس كالينيكوس Callinicos Alex وإيزم شونارا Choonara Esme ومارتن إمبسون Martin Empson وتشارلي كيمبر Kimber Charlie وريتشارد دونللي Donnelly Richard وجون بارينجتون Parrington John لتعليقاتهم على المسودات الأولية لهذه المقالة.

* نشر في العدد 166 من مجلة الاشتراكية الدولية (International Socialism)، ونشر على موقعها في 22 مارس 2020
http://isj.org.uk/socialism-in-a-time-of-pandemics/

كوفيد- 19

تحدث الإصابة بـكوفيد- 19 عن طريق ڤيروس جديد ينتمي لمجموعة ڤيروسات تعرف باسم «الڤيروسات التاجية المسببة لمتلازمة الالتهابات التنفسية الحادة[2]» (SARS-CoV-2). وقد اكتُشفت الڤيروسات التاجية في الستينيات، وتتسبب في مجموعة من الإصابات؛ بعضها خفيف: مثل الڤيروسات التاجية التي كانت من بين مئات الأسباب المحتملة لنزلات البرد. أما بعضها الآخر فكان أكثر فتكًا: عندما ظهر الڤيروس التاجي لمتلازمة الشرق الأوسط التنفسية (MERS-CoV) في عام 2012، ثبت أن أكثر من ثلث الحالات المؤكدة مختبريًّا، والبالغ عددها 2040 هي حالات قاتلة[3]. ويسبب كوفيد- 19، من بين أعراض أخرى، الحمى والسعال الجاف. كما يمكن إن يؤدي إلى الالتهاب الرئوي الذي قد يكون مميتًا، خصوصًا عند كبار السن، أو عند أولئك الذين يعانون مشكلات صحية مزمنة.

في وقت كتابة هذا التقرير، كانت تقديرات معدل الوفيات المؤكدة (عدد الوفيات المبلغ عنها لكل حالة تم الإبلاغ عنها) 3-4 في المئة، مقارنة بنحو 0.1 في المئة لتفشي الإنفلونزا الموسمية[4]. وينتشر الڤيروس التاجي من خلال انتشار الرذاذ في الهواء من شخص مصاب، على سبيل المثال عندما يسعُل، أو عبر ملامسة الأسطح الملوثة.

وعلى المستوى الجزيئي، تعتمد الڤيروسات التاجية على سلسلة واحدة من الحمض النووي الريبي، مما يعني أنها تتحور بسرعة شديدة: «لقد استغرق جينوم الأنواع البشرية ثمانية ملايين سنة ليتطور بنسبة 1 في المئة. ويمكن أن تتطور العديد من ڤيروسات الحمض النووي الريبي الحيواني بأكثر من 1 في المئة في غضون أيام»[5]. وكما هو الحال مع العديد من الڤيروسات الأخرى، تكمن الڤيروسات التاجية في الحاضنات التي تكونها مجموعات الحيوانات؛ إذ تحدث معظم الأوبئة والأوبئة الڤيروسية

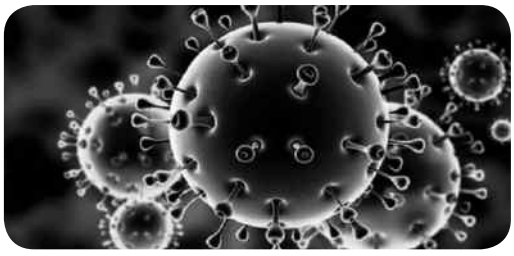

بدأ اكتشاف الفيروسات التاجية في الستينيات

عندما تنتقل ڤيروسات جديدة إلى البشر عبر الحيوانات، وهي عملية تعرف باسم «الأمراض حيوانية المصدر»، ومن خلال الطفرات، تكتسب القدرة على الانتقال من إنسان إلى آخر. عندما ينشأ شكل جديد متحور من الڤيروس من هذه الطفرة، فإنه يصادف مجموعة بشرية لا تمتلك مناعة ضد العامل المسبب للمرض، بالإضافة إلى عواقب مدمرة محتملة.

أحد الأمثلة الجيدة على ذلك هو الإنفلونزا. والإنفلونزا، مثل الڤيروسات التاجية، هي ڤيروس أحادي السلسلة من الحمض النووي الريبي. وتعتبر الطيور المائية، مثل البط والإوز، بمثابة حاضن لها؛ إذ توجد الإنفلونزا على نطاق واسع في مجموعات الطيور هذه، ولكنها في هذه الحواضن، تؤدي إلى أعراض خفيفة نسبيًّا - تؤدي في المقام الأول إلى اضطرابات في الجهاز الهضمي والتي تتسبب في أن تنقل الطيور الڤيروس عن طريق الإفرازات[6]. وبمجرد أن يصل الڤيروس إلى الإنسان، يصبح قادرًا على إصابة الجهاز التنفسي. كما يمكن أن تتحور الإنفلونزا بطريقة ما، وتتخطى الحدود فتنتقل من الطيور إلى البشر، على الرغم من أن هذا أمر نادر. وغالباً ما تكون هناك حاجة إلى أنواع وسيطة. أما الخنازير فتركيبتها مجهزة جيدًا بشكل خاص لتعمل كناقل للڤيروسات؛ إذ أن خلاياها يمكن أن تصاب بسلالات من إنفلونزا الطيور والإنفلونزا البشرية، مما يؤدي إلى إنتاج أشكال هجينة جديدة[7]. تقتل الإنفلونزا الموسمية عادةً ما بين نصف المليون والمليون شخص في العالم كل عام[8]، ومع ذلك، فالإنفلونزا الوبائية هي ما يسبب عبئًا كبيرًا على أنظمة الرعاية الصحية.

2- الفيروسات هي ببساطة أجزاء من الشفرة الوراثية (DNA أو RNA)، وهي محفوظة في غلاف واق، ويمكنها أن تتكاثر فقط داخل خلية كائن حي. بمجرد الإصابة، قد يكون الجهاز المناعي للمضيف قادرًا على التكيف مع الڤيروس، مما يمنحه مناعة ضد العامل الممرض المحدد. ومع ذلك، يمكن أن تتحور الشفرة الجينية التي تشكل الڤيروس، مما يخلق أشكالاً جديدة من الڤيروس.

3- منظمة الصحة العالمية.

4- منظمة الصحة العالمية. 2020. من المرجح أن يكون عدد الوفيات لكل إصابة أقل بكثير، إذ لا يتم الإبلاغ عن بعض الإصابات. وهناك أيضًا اختلافات كبيرة بين البلدان، تعكس، على سبيل المثال، مدى العبء على أنظمة الرعاية الصحية.

5- Morens,Dazak and Taubenberger,2020, pp1-2

6- لا يزال الڤيروس قادرًا على التحور في الطيور، ولكن، لأنه حميد نسبيًا وينتشر بسهولة، فمن غير المرجح أن سلالات جديدة ستحل محل الأشكال السائدة – دهنر، 2012، ص 26-27.

7- دهنر، 2012، ص 28-29.

8- دهنر، 2012، ص 12.

ويليام ماكنيل

توجد بعض الڤيروسات التاجية أيضًا في مجموعات الطيور، ولكن يبدو أن الناقل الأكثر أهمية لبعض أنواع الڤيروسات التاجية التي تنتقل إلى البشر هي الخفافيش[9]. كما تلعب أنواع أخرى مثل الخنازير، أوقطط الزباد، أو الإبل، دورًا في نقل الڤيروسات التاجية من الخفافيش إلى البشر[10]. لذا فإن الأمراض حيوانية المنشأ عامل حاسم في انتشار الڤيروسات التاجية.

تاريخ موجز للأوبئة

تألفت المجتمعات البشرية المبكرة من مجموعات صغيرة؛ مارس بعضها الصيد، ومارس بعضها الجمع والالتقاط. وقد كانت تتعرض، في بعض الأحيان، لأمراض معدية من حيوانات أخرى، أو من البيئة المحيطة. كانت هذه المجموعات الصغيرة من البشر أما تستسلم للمرض أو تطور مناعتها ضده. وفي كلتا الحالتين، كانت هناك فرص ضئيلة لانتشار العدوى خارج المجموعة الأولية. وقد تغيَّر هذا مع ثورة العصر الحجري الحديث، التي بدأت في الشرق الأوسط قبل نحو 10000 عام، وأدت إلى ظهور المجتمعات الزراعية المستقرة. والتي نتج عنها ازدياد حجم السكان، وتراكم النفايات البشرية في مناطق الاستقرار، وفي بعض الحالات،كان الناس يربون الماشية، مما يجعلهم على مقربة من الحيوانات لفترات طويلة. وقد شكّل هذا ظرفًا مواتيًا لانتشار الڤيروسات ومسببات الأمراض الأخرى؛ مثلما فعل نمو التجارة والحروب والهجرات بين المجموعات البشرية[11].

مع مرور الوقت، أدى التعرض المشترك لمجموعة من الأمراض إلى نشوء «مناطق غير مستقرة»، وهو ما خلق ما يسميه ويليام ماكنيل William McNeill «مستنقعات الأمراض الحضرية» التي امتدت إلى مناطق واسعة، مثل تلك التي تركزت على شاطئي البحر الأبيض المتوسط، أو شبه القارة الهندية[12]، ومع ذلك فقد كان من السهل أن تتسلل الأمراض الجديدة إلى هذه المجمعات؛ عن طريق فتح طرق تجارية جديدة، أو عن طريق الحروب، أو الغزو. على سبيل المثال؛ في عام 165م، نشر الجنود الذين كانوا يقومون بحملة في بلاد ما بين النهرين «الطاعون» (وربما الجدري) عبر الإمبراطورية الرومانية؛ مما أدى إلى انتشار الوباء لمدة 15 عامًا في جميع أنحاء الإمبراطورية، وربما قتل نحو ثلث السكان[13]. انتشر الطاعون الدبلي؛ وهو عدوى بكتيرية تحملها البراغيث، عبر السفن التجارية التي تأوي الفئران السوداء، ووصل إلى البحر الأبيض المتوسط في عام 541، وتكرر الأمر بشكل متقطع حتى نحو عام 767، ووفقًا لبعض التقديرات، تقلص عدد السكان بعشرات الملايين[14]. ويعتقد ماكنيل أن فتح طرق التجارة من قبل الإمبراطورية المغولية من القرن الثالث عشر، خلق شبكة واسعة من التواصل عبر أوراسيا، وهو ما نقل الطاعون الدبلي إلى القوارض الناقبة في السهوب، ومنها انتشر عبر الطرق التي تمر بها القوافل، وصولاً إلى شبه جزيرة القرم في عام 1346، وأدت إلى ما أصبح يعرف في أوروبا باسم «الموت الأسود»[15]. ثم امتدت الشبكات التجارية وسفن الشحن عبر شمال أوروبا، فنشرت الجرذان السوداء، ومن ثَم الطاعون عبر القارة، مما أدى إلى وفاة ثلث سكان أوروبا خلال الفترة من 1346–1350 [16]. وساعدت زيادة الكثافة السكانية، والشوارع المليئة بالقمامة في مناطق

9- بشكل أساسي فالخفافيش هي الخزانات الرئيسية لڤيروسات ألفا كورونا وڤيروسات بيتا كورونا.

10- هيو وآخرون، 2015

11- دهنر، 2012، ص 33-34

12- ماكنيل، 1976، ص ص 131-69

13- ماكنيل 1967، ص 103.

14- من المحتمل أن تغير المناخ قد عجل بزيادة أعدادا لقوارض الحاضنة للمرض، ودفعهم إلى الخروج من موطنهم الطبيعي وقربهم من البشر، وهو تذكير بالعواقب المحتملة الناتجة عن تغير المناخ الذي تدخل فيه الإنسان اليوم - شيرمان، 2007، ص 73 -74.

15- ماكنيل، 1967، ص 132- 145.

16- ماكنيل، 1967، ص 149.

الاستقرار على الانتشار السريع للمرض. واستمر تفشي الطاعون الدبلي المنتظم في أوروبا حتى السبعينيات من القرن السابع عشر. بل إن انتشار أمراض «العالم القديم» إلى الأمريكتين في أثناء استعمارهما كان أكثر تدميرًا من تأثير الموت الأسود في أوروبا؛ فقد كان «العالم الجديد» عرضة له بصورة أكبر. وعلى الرغم من الكثافة السكانية العالية في بعض الأماكن، فإنها كانت تفتقر إلى التنوع الإيكولوجي الموجود في الكتل الأوروآسيوية الأفريقية المعروفة بتاريخها الطويل من الأوبئة. علاوة على ذلك، فقد لعبت الحيوانات المستأنسة دورًا أقل أهمية في إنتاج الغذاء[17]. وهكذا رافق الجدري إلى جانب التهاب الغدة النكافية والحصبة، توحش تأسيس الإمبراطورية الاستعمارية. وعلى سبيل المثال قضت الأوبئة على نحو 90 في المئة من سكان وسط المكسيك في نصف قرن، ابتداءً من 1568[18]. وكان التأثير مماثلاً في أماكن أخرى في القارة؛ فانخفض عدد السكان الأصليين في بيرو من نحو سبعة ملايين إلى نحو نصف المليون نسمة[19]. مجددًا سيعود صدى شاحب لهذا الدمار ليطارد «العالم القديم»، إذ ربما بسبب انتشار الوباء في الأمريكتين، ظهرت سلالة أكثر فتكًا من الجدري، وعادت إلى أوروبا في القرن السابع عشر؛ وبحلول أوائل القرن الثامن عشر كانت قد تسببت في وفاة 400000 شخص سنويًّا[20].

في ذلك الوقت كانت أوروبا نفسها تعاني من تحوُّل اجتماعي عميق، مع تطور الرأسمالية الصناعية التي انطلقت في بريطانيا من القرن الثامن عشر، إذ حدث توسع حضري متسارع. وقد أدى ذلك إلى خلق ظروف بائسة في المدن والبلدات الجديدة؛ حيث اكتظت أعداد كبيرة من الناس في الأحياء الفقيرة بمرافق صرف صحي بائسة، وزاد الفقر والتوتر والاكتظاظ من القابلية للإصابة بالأمراض، فكانت الأمراض تنتشر بسرعة كبيرة فور أن تظهر، علاوة على ذلك، فبمجرد

17- نيل، 1976، ص ص 176 - 180. يشير جاريد دايموند (1999، ص 159 - 163، 178، 213) إلى أن معظم الحيوانات الكبيرة المناسبة للتوطين تم العثور عليها في أوراسيا، في حين انقرضت العديد من الثدييات الكبيرة الأصلية في الأمريكتين منذ نحو 13000 عام. اللاما والألبكة هي الاستثناءات الرئيسية، على الرغم من أن تدجينها لم ينتشر أبعد من جبال الأنديز. تميل هذه الحيوانات أيضًا إلى أن تبقى في قطعان أصغر من نظيراتها الأوراسية، وتربى خارج المنزل.

18- ماكنيل، 1967، ص 180.

19- كارترايت وبيديس، 2004، ص 79.

20- كارترايت وبيديس، 2004، ص 80، شيرمان، 2007، ص 56.

طفل مصاب بالجدري أحد أكثر الأمراض انتشارًا في القرن العشرين

وصول الأمراض إلى المدينة، يمكنها أن تنتقل من خلال شبكات التجارة المتنامية، وتحركات الناس للعمل، أو لشن الحروب، أو إدارة المستعمرات، أو للهروب من الحروب، أو من الفقر أو القمع[21]. في هذه الفترة من القرن التاسع عشر؛ عندما بدأ التحسين الملحوظ في التغذية والصرف الصحي والنظافة والرعاية الصحية العامة،كان الناس في المدن والبلدات البريطانية يموتون في سن صغيرة، قياسًا لهؤلاء الذين يعيشون في الريف. لندن على وجه الخصوص كانت «تلتهم» الناس؛ زادت المدافن بنسبة أكبر حتى مما حدث في الظهور الأول للمرض في القرن الثامن عشر؛ نتيجة «أمراض الزحام» مثل الجدري والحصبة والسل[22].

في حالة الجدري، لم ينتقل الڤيروس عن طريق الأمراض حيوانية المنشأ كما يحدث مع الإنفلونزا أو الڤيروسات التاجية؛ كان البشر أنفسهم حاضنين للمرض؛ الذي كان بمجرد أن يجتاح منطقة ما، يصبح مطلوبًا أن يولد نحو

21- علق الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط على كارثة الإنفلونزا التي ضربت مدينة كونيسبرج عام 1782: «إن المجتمع الذي وضعت فيه أوروبا نفسها والسفن والقوافل التي ترسلها في كل مكان تنشرالعديد من الأمراض في جميع أنحاء العالم».

22- دانتون، 1995، ص ص 405 - 413.

لوحة تجسد وفاة أحد الأشخاص بمرض الكوليرا

100.000 شخص كل عام لضمان وجود عدد كاف للاستمرار[23]. وبحلول منتصف القرن السابع عشر، كان عدد سكان لندن بالفعل أكبر بثلاث مرات من ذلك؛ أما بحلول عام 1801، كانت كل من مانشستر وليفربول وبرمنجهام يقتربون من 100.000 شخص. أما السل، الذي يصيب الرئتين بشكل عام، فكان ينتشر عن طريق البكتيريا، وليس عن طريق الڤيروسات. ولكن الأمراض الحيوانية المنشأ مهمة في هذه الحال؛ إذ أن المرض كان يصيب البشر من خلال الحليب المصاب، ثم ينتقل من شخص إلى آخر من خلال السعال والبصق. كما أن ظهور الحالات يمتد لآلاف السنين، ربما يعود إلى الفترة التي بدأ الإنسان فيها تدجين الماشية. ومع ذلك، فقد أصبحت في المدن الصناعية سببًا رئيسيًّا للوفيات؛ وبحلول عام 1780 سيكون السل مسؤولاً عن خُمس الوفيات في إنجلترا وويلز[24]. من هنا، اتبع انتشار المرض نمط التصنيع المبكر؛ أولاً في غرب أوروبا، ثم في شرق أوروبا وأمريكا الشمالية، حيث، في نيويورك في 1812–1821، نُسب نحو ربع الوفيات إلى «السل»، الذي كان متفشيًا فيها. لم يكن الانتشار يعكس فقط بنية المناطق الحضرية ذات الكثافة السكانية العالية، بل وجود «معامل الألبان في المدينة» كذلك؛ مما سمح للمرض بالانتقال بين الأبقار، ثم من الأبقار إلى البشر[25].

بحلول القرن التاسع عشر، خلق التحضر والفقر والاستعمار مجتمعين تهديدات جديدة؛ إذ كانت الكوليرا منتشرة في الهند منذ قرون، ومع اندماجها في الإمبراطورية البريطانية وحركة الأشخاص والبضائع منها وإليها، انتشر الوباء. وفي عام 1817 تفشى الوباء في الهند وأحاط روسيا والصين. وبعد ثلاث سنوات، جلبت القوات البريطانية المرض إلى شرق البحر الأبيض المتوسط. ثم، في أعوام 1832 و1848 و1866، انتشرت أوبئة حقيقية جاءت من الهند، ثم انتشرت عبر أوروبا والأمريكتين. كما يكتب جورج دهنر: «كان من سمات نمط انتقال المرض أنه يظهر أولاً في المدن، وبشكل عام مدن الموانئ المرتبطة بالتجارة. ويمكن ربط تفشي المرض في البداية بالمعابر المائية التي ربطت منطقة ما في السنوات اللاحقة بأنظمة السكك الحديدية الآخذة في التوسع عبر الولايات»[26]. لقد مات نحو نصف المصابين، إذ كان المرض يتركز في المناطق الأكثر فقرًا، لأن البكتيريا التي تتسبب فيه تنتشر عبر المياه الملوثة. وفي أوائل القرن التاسع عشر، كان من الشائع استخدام مياه الصرف الصحي في البيئات الريفية، وربما كانت تستخدم في الحقول، أو يُتخلص منها بعيدًا عن المناطق السكنية، في الشوارع على سبيل المثال، خصوصًا مع تدفق النفايات السائلة في الأنهار والبحيرات التي يعتمد عليها في استخراج مياه الشرب.

وقد شرح فريدريك إنجلز، الذي كان شابًا وقتها، الظروف التي انتشرت الكوليرا خلالها في مانشستر في القرن التاسع عشر: «عندما اقترب الوباء، استولى الرعب الشديد على البرجوازية في المدينة. تذكَّر الناس المساكن

فريدريك إنجلز

غير الصحية التي يعيش فيهاالفقراء، وفزعوا قبل حتى أن يتأكدوا من أن كل من هذه الأحياء العشوائية ستصبح مراكز للطاعون، وأن الخراب سينتشر في كل

23- شيرمان 2007، ص 56.
24- شيرمان 2007، ص 107.
25- شيرمان 2007، ص 107.
26- دنهر، 2012، ص 51.

الاتجاهات عن طريق منازل الطبقة المالكة». وأضاف إن فحص 6951 منزلاً في مانشستر كشف عن «2565 منزلاً يحتاج إلى تبييض بشكل عاجل.. و960 منزلاًيحتاج إلى إصلاحات.. و939 المصارف فيها غير كافية.. و1435 تعاني الرطوبة.. و452 كانت ذات تهوية سيئة.. و2221 كانت من دون مرحاض»[27]. وبعد ذلك بسنوات، وفي مقالاته حول «مسألة السكن»، عاد إنجلز إلى الموضوع نفسه: «أثبتت العلوم الطبيعية الحديثة أن ما يسمى بـ «المناطق السيئة»، التي يتكدس فيها العمال، هي أماكن تكاثر كل تلك الأوبئة التي تصيب مدننا من وقت لآخر؛ كالكوليرا، وحمى التيفوئيد، والجدري، وأمراض أخرى مدمرة... النظام الرأسمالي للمجتمع يتكاثر أكثر فأكثر.. لهذا ينبغي معالجة الشرور»[28]. في العديد من البلدان، لم تنته مثل هذه الظروف تمامًا ولم يتم اعتبارها شيئًا من الماضي؛ على سبيل المثال، عانت اليمن، حيث تشتعل الحرب والمجاعة، من وباء الكوليرا[29]. وقد تطورت في العالم الحديث عاصفة مميتة من الأمراض المعدية والأمراض المزمنة وسوء التغذية، بالإضافة إلى نقص الرعاية الصحية العامة وعدم كفاية أنظمة الصرف الصحي[30]. وفي حين تحسنت بعض الظروف التي تنتج أمراض الزحام في معظم البلدان المتقدمة بحلول أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، كان هناك خطر جديد في بؤرة الاهتمام وهو

رسم كاريكاتيري ساخر لانتشار الإنفلوانزا في مجلة فرنسية عام 1890

الإنفلونزا الوبائية. لم يكن وباء الإنفلونزا معروفًا، وربما أدى تفشيه في أوروبا في خمسينيات القرن السادس عشر إلى مقتل ما يصل إلى واحد من كل خمسة من بين سكان في إنجلترا، قبل أن يعيث فسادًا في الأمريكتين مرة أخرى[31]. والآن عاد التهديد مجددًا. كانت البداية هي تفشي الإنفلونزا «الروسية» عام 1889، والتي بدأت في بُخارى، التي تقع في أوزبكستان حاليًا، وانتشرت أولاً في سان بطرسبرج في الخريف، وفي غضون ثمانية أسابيع كانت قد انتشرت عبر أوروبا، ووصلت إلى أمريكا الشمالية وجنوب أفريقيا. وعلى مدى الأشهر المتتالية، اخترقت أمريكا الجنوبية، ثم الهند، وأخيرًا أستراليا ونيوزيلندا. هناك «تقدير متحفظ للغاية لوفيات الموجة الأولى (1889–1890) في أوروبا يفترض أن عدد الوفيات كان بين 270.000 و360.000».

كان هذا مجرد بروفة؛ ففي ربيع عام 1918؛ ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى، بدأ الجنود يصابون بالإنفلونزا. وسرعان ما أصبح المرض وباءً، لكنه خلّف، في أول موجة له، عددًا قليلاً من الضحايا، وزادت آثار الحرب الأمر سوءًا. لكن الموجة الثانية من الإنفلونزا «الإسبانية»، التي أنتجتها سلالة متحورة من الڤيروس، كانت مدمرة[32].

وقد ذكر دهنر «خلقت الحرب العظمى مجموعة غير عادية من الأحداث. كان الملايين من الرجال والنساء مكتظين معًا في ظروف بالغة السوء.. كانت هذه الكتل المزدحمة مرتبطة بأنظمة النقل التي تتدفق إلى كل ركن من أركان العالم. وكان الناس المرهقون بفعل الحرب

27- إنجلز، 1975، ص 365.
28- إنجلز، 1988، ص ص 338-337.
29- فلكنيو وآخرون، 2018.
30- ديفيس، 2006 أ، ص 146 - 148. لم تقتصرالأوبئة التي أصابت نصف الكرة الجنوبي بسبب الإمبريالية علناً ولئك الذين يؤثرون بشكل مباشرعلى الناس. وصل الطاعون البقري إلى أفريقيا من قبل الماشية الهندية التي جلبها المستعمرون الإيطاليون إلى إريتريا في شرق أفريقيا في ثمانينيات القرن التاسع عشر. فانتشرت حتى جنوب أفريقيا، حيث كانت تسافرعبر طرق عربة الثيران، وتتحرك بسرعة 20 ميلاً في اليوم، فدمرت المجتمعات التي تعتمد على الماشية في الحليب واللحوم والجلود والروث للتدفئة والطبخ والقوة الدافعة أو كوسيلة للتبادل – فولفو، 1993. كان المرض كارثيًا؛ إذ توفي أكثرمن 5.2 مليون رأس من الماشية جنوب نهر زامبيزي. وكانت النتيجة مجاعة كبرى، وبعد ذلك، توغلت الأمراض في غاباتا لسافانا، مما خلق ظروفًا مثالية لذبابة التسي تسي، وجلبت طاعونًا جديدًا ألا وهومرض النوم - Chuang،2020؛ فانديربوش، 2010.

31- ماكنيل، 1976، ص 185. وكارترايت وبيديس، 2004، ص 149.
32- دنهر، 2012، ص 57.

يشكلون برميل بارود يؤدي لتفشي الأوبئة؛ وخصوصًا الأوبئة التنفسية[33].

انتشر الفيروس بسرعة وعلى نطاق لا يصدقان. وتشير التقديرات إلى أن ما يقرب من ثلث البشرية أصيب بالعدوى خلال الأشهر القليلة التي تلت انتشاره. استنزفت المرافق الطبية واستنفدت بالفعل بسبب التعبئة بفعل الحرب، وتزايدت حالات الالتهاب الرئوي[34]. بعد الموجة الثانية، تلتها موجة ثالثة أقل فتكًا في عام 1919. التقديرات الأخيرة للوفيات من الموجات الثلاث تتراوح ما بين 50 و100 مليون، وهو ما يفوق أضعاف العدد الذي قُتل من جراء الحرب نفسها[35]. لم يكن المعدل ببساطة نتيجة ضراوة سلالة الإنفلونزا، ولكن أيضًا الطريقة التي فتحت بها ممرات البكتيريا التي يمكن أن تسبب التهابات ثانوية، وهو ما كان يؤدي في النهاية إلى الالتهاب الرئوي[36]. مرة أخرى، كانت الدول الأكثر فقرًا هي الأكثر تضررًا، حيث نادرًا ما كانت تُسجَّل معدلات الوفيات[37]. وربما فقدت الهند حوالي 18.5 مليون قتيل، خصوصًا مع الجوع وسوء ظروف السكن ومصادرة الأدوية من قبل البريطانيين، والتي تزامنت مع الجفاف الذي أضعف الاستجابة المناعية وعدم كفاية الرعاية الصحية مما ضاعف من تأثير المرض[38].

في عام 1947، وبعد عدة عقود سعى خلالها العلماء إلى فهم طبيعة الإنفلونزا وكيف تتسبب في هذه المذابح، أنشئ برنامج عالمي لمراقبة الإنفلونزا، سيصبح، فيما بعد، جزءًا من برنامج الإنفلونزا العالمي الذي أنشأته منظمة الصحة العالمية حديثًا. وفي وقت لاحق من عام 1957 ظهرت جائحة الإنفلونزا «الآسيوية»، وفي عام 1968 جائحة إنفلونزا «هونج كونج» اللتان راح ضحيتهما نحو

33- في إسبانيا، التي كانت محايدة في الحرب، كان للصحف حرية الكتابة عن تفشي الإنفلونزا، متجنبة الرقابة الموجودة في البلدان المقاتلة ما خلق الانطباع بأنه كان سيئًا للغاية هناك، وأسس لفكرة أن المرض كان من أصل إسباني. في إسبانيا أطلق عليها اسم "جندي نابولي"، بعد أن أصيب عدد كبير بالعدوى، ولاحقًا سميت بالفرنسية، انظر تريلا وآخرين، 2008. لايزال من غير الواضح أين نشأ التفشي بالفعل، حيث يدعي المؤلفون أنها ربما تكون الولايات المتحدة، أو النمسا، أو فرنسا، وغيرها.

34- دنهر، 2012، ص 60.

35- ليو وآخرون، 2918، ص 463.

36- انظر على سبيل المثال، موريس، كليري، وكلارك، 2017.

37- مونتو وسيلود، 2013. ص 24.

38- دايفز، 2006، ص ص 83-84.

غلاف كتاب المزارع الكبيرة تصنع إنفلونزا كبيرة

مليوني، ثم مليون شخص على التوالي. بعد ذلك حدث إنذاران كاذبان؛ الأول كان تفشي إنفلونزا الخنازير عام 1976، والذي انتشر عبر قاعدة عسكرية أمريكية قبل أن يتلاشى، ولكن ليس قبل أن يقوم برنامج الطوارئ الذي بدأته الحكومة بتطعيم 43 مليون شخص، أي ما يعادل نحو ربع سكان الولايات المتحدة[39]. والثاني حدث في 1977 وهو «وباء زائف» انتشر على نطاق واسع ولكن آثاره كانت خفيفة[40].

التهديدات الحديثة

لا يزال ظهور الأوبئة الفيروسية يشكِّل تهديدًا كبيرًا في العالم المعاصر[41]. وفهم هذا التهديد يعني النظر في البنية المتغيرة للمجتمعات، استنادًا إلى أعمال مؤلفين مثل روب والاس الذين تتبعوا العلاقة بين النظم الزراعية المعاصرة والأمراض الحيوانية المنشأ. يؤكد كتاب والاس الشهير «المزارع الكبيرة تصنع إنفلونزا كبيرة» Big Farms Make Big Flu، على أن المشروعات التجارية الزراعية واسعة النطاق تكون بمثابة حاضن عملاق لخلق وانتشار أمراض جديدة[42].

39- دايفز، 2006، ص ص 43-44.

40- مونتو وسيلوود، 2013، ص 44- 45

41- لأسباب تتعلق بالمساحة؛ هذه نظرة عامة، على سبيل المثال، تفتقر لفيروس نقص المناعة البشرية «الإيدز» وجائحة زيكا.

42- والاس. 2016.

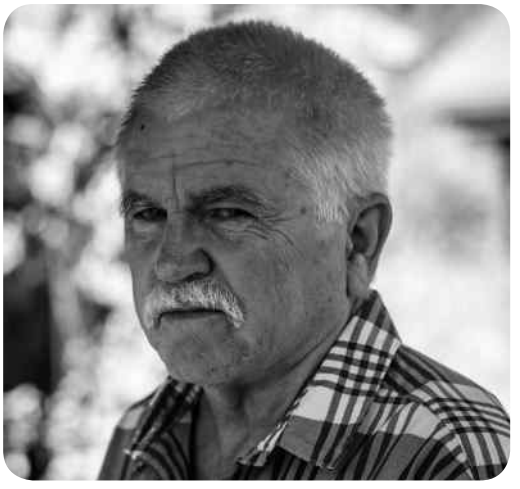

مايك ديفيز

إن نظم الزراعة القائمة على زراعة محصول واحد تضاعف معدلات انتقال الأمراض وإضعاف الاستجابات المناعية. خصوصًا وقد أصبح نمو الأعمال التجارية الزراعية ظاهرة عالمية، مع «ثورة الثروة الحيوانية» التي تغذي التوسع في استهلاك اللحوم المتركز في نصف الكرة الجنوبي.

وكما يكتب مايك ديفيز: أصبح الرمز العالمي للإنتاج الصناعي للدواجن والثروة الحيوانية مثل شركة Tyson Foods العملاقة التي تقتل 2.2 مليار دجاجة سنويًا، مرادفًا عالميًا للإنتاج الموسع ذي النسق الرأسي؛ واستغلال مزارعي العقود؛ ومعاداة النقابات الحشوية؛ وتفشي الإصابات الصناعية، والإغراق البيئي، والفساد السياسي. وقد أجبرت الهيمنة العالمية للشركات العملاقة مثل تايسون المزارعين المحليين إما على الاندماج مع شركات تصنيع الدجاج والخنزير على نطاق واسع أو الانهيار.. وحوِّلت مناطق زراعية بأكملها إلى مخازن للدواجن، حيث يعمل معظم المزارعين حراسًا للدجاج[43] ومع ذلك، فإن المشكلة لا تكمن في مجتمع الثروة الحيوانية والصناعية الحديث نفسه. وكما يذكرم ؤلف مجهول في مجلة Chuang، استنادًا إلى والاس:

يضاف إلى ذلك عمليات مكثفة مماثلة تحدث على هامش الاقتصاد؛ إذ تواجه السلالات «البرية» أشخاصًا تورطوا في توغلات اقتصادية وزراعية في النظم البيئية المحلية بشكل أكثر اتساعًا من أي وقت مضى.. وبشكل فضفاض يمكن تصنيف الأوبئة إلى فئتين؛ الأولى تنبع من جوهر الإنتاج الاقتصادي الزراعي، والثانية في

43- ديفيز، 2006، ص ص 83، 84.

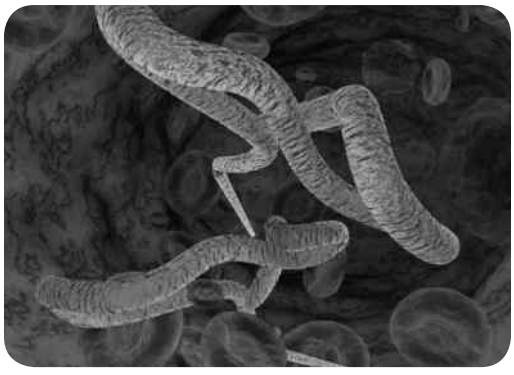

فيروس الإيبولا انتشر قبل سنوات قليلة في غرب أفريقيا

المناطق الداخلية.. المنطق الأساسي لرأس المال يساعد على أخذ سلالات ڤيروسية كانت معزولة أو غير ضارة سابقًا ووضعها في بيئات شديدة التنافس تساعد على ظهور السمات المحددة التي تسبب الأوبئة، مثل دورات الحياة الفيروسية السريعة، والقدرة على تنامي قدرة الحيوانات على نقل الأمراض إلى الإنسان.. وكذلك القدرة على تطوير ناقلات جديدة بسرعة[44].

وبعبارة أخرى، ليست فقط تربية الطيور هي ما يولد ڤيروسات جديدة، ولكن أيضًا الاختلال الأوسع للنظم البيئية وتوسيع إنتاج السلع. ويترتب على ذلك جمع أنواع مختلفة من الحيوانات معًا، وكذلك التقريب بين البشر والحيوانات الأخرى؛ مما يؤدي إلى تنامي مسببات الأمراض الجديدة وتفشيها. وتساعد بعض الأمثلة على توضيح النقطة؛ في الستينيات انتشرت الحمى النزفية البوليفية التي تنتقل من القوارض إلى عمال المزارع. وقد تركز تفشي المرض في 1963،[45] على العمال الزراعيين في سان واكين، الذين، بعد أن صودرت ممتلكات بارونات الماشية المحليين في ثورة 1952 وأغلقت أعمالهم، دفعوا إلى مناطق الغابات الكثيفة لزراعة المحاصيل من أجل إطعام أنفسهم. وهو ما دمر الموطن الطبيعي للقوارض؛ التي غزت المدينة، وهو عامل عززه استخدام مبيد دي دي تي DDT للسيطرة على الملاريا، مما قلص من عدد القطط المحلية[46]. وفي نهاية التسعينيات ظهر ڤيروس نيباه في جنوب شرق آسيا بسبب تكثيف تربية الخنازير، ثم إصابة الخنازير عن طريق الخفافيش؛ وربما من خلال فضلات الخفافيش، وقد حدث ذلك بعد أن دُمرت

44- تشانج، 2020.
45- شتراوس، 1998، ص ص 102-103
46- مورنز، دازاك وتوبنبرجر، 2020، ص 2.

أعدمت تايوان آلاف الطيور بعد انتشار فيروس H5N1

أوكار الخفافيش بسبب الجفاف، وإزالة البشر للغابات[47]. من الأمثلة المعاصرة ذات الأهمية فيروس إيبولا، الذي يمكنه أن يقتل ما يصل إلى 90 في المئة من الأشخاص المصابين، والذي ظهر في شكل وبائي في غرب أفريقيا في عام 2013. وينتقل هذا الفيروس أيضًا في البرية عن طريق الخفافيش. وقد أدى الاستيلاء على الأراضي من قِبل الشركات الأمريكية والأوروبية والصينية متعددة الجنسيات، في منطقة غابات السافانا في غينيا إلى جذب أعداد من الخفافيش، ترافق وتوسيع مزارع نخيل الزيت سعيًا للغذاء والمأوى، وهو ما خلق ظروفًا مواتية لانتقال الأمراض حيوانية المصدر[48].

وقد تفاقمت هذه الاتجاهات خلال العقود الأخيرة بسبب التوسع غير المنظم في الزراعة. وهكذا يناقش والاس في مقابلة أجريت معه مؤخرًا بأن «إلى جانب الزراعة الصناعية، رأس المال سيواصل بلا انقطاع عمليات الاستيلاء على الأراضي، في الغابات والأراضي الزراعية التي يملكها أصحاب الحيازات الصغيرة في جميع أنحاء العالم. وتؤدي هذه الاستثمارات إلى إزالة الغابات، وعمليات التنمية إلى ظهور المرض. ذلك أن التنوع الوظيفي والتعقيد الذي تمثله هذه المساحات الضخمة من الأراضي ينظم بطريقة تجعل من السهل انتشار مسببات الأمراض التي كانت كامنة في السابق في الماشية والمجتمعات البشرية المحلية.

47- لوي وتشاو، 2007.
48- والاس وآخرون، 2025.

وهذه عملية مدفوعة بتدفقات رأس المال من قلب النظام: «باختصار، يجب اعتبار مراكز رأس المال، مثل لندن ونيويورك وهونج كونج نقاطًا ساخنة للأمراض»[49] وبالإضافة إلى التغييرات في الأرض عند الاستخدام، من المرجح أن يؤدي الاضطراب الإيكولوجي الأوسع نطاقًا، والناجم عن تغير المناخ إلى المزيد من عمليات انتقال الأمراض من الحيوانات إلى الإنسان في مناطق أخرى.

هذا التوسع المزدوج في التهديد يتجلى في اثنين من حالات تفشي الإنفلونزا الرئيسية في العقود الأخيرة. المرة الأولى كانت «إنفلونزا الطيور»، الناجمة عن سلالة غير عادية تعرف باسم H5N1، ظهرت للمرة الأولى في مزارع الدجاج في هونج كونج في عام 1997. وتسببت في البداية في عدد كبير من الوفيات بين أسراب الدجاج. وبحلول نهاية العام أدخل 18 شخصًا إلى المستشفى، وكانت نتائج اختبارهم إيجابية لفيروس H5N1 ووفاة ثلثهم. في ديسمبر 1997، أصيب الدجاج في إحدى «الأسواق الرطبة» في هونج كونج، ومرة أخرى اعتُبر H5N1 الجاني[50]. في هونج كونج «تراوحت المزارع بين المزارع الكبيرة حيث كان الدجاج في أسراب كبيرة مرهقة للغاية، وصولاً إلى المزارع الصغيرة حيث تعيش الطيور بحرية مع حيوانات المزرعة، وتختلط بامتداد المجاري المائية والبرك مع الطيور البرية الأخرى مثل البط والإوز».

كما كانت هناك «مرافق احتجاز» كبيرة تحتوي على الطيور لعزلها والحفاظ عليها ضد تقلبات السوق. وقد ساعدت هذه الصناعة العشوائية فقيرة التنظيم الأسواق التي كانت «خليطًا فوضويًا من أقفاص تحتوي العديد من الأنواع، إلى جانب الدجاج «البط، والإوز، والحجل، والسمان، والحمام، بالإضافة إلى مجموعة متنوعة من الطيور البرية التي يتم صيدها» وكذلك الثدييات والزواحف[51]. وكانت أنظمة الإنتاج هذه مرتبطة بشكل حاسم، بالمنتجين الصينين، فأصبحت جوانجدونج، المتاخمة لهونج كونج، وكأنها مختبر للطرق الجديدة لتربية الدواجن، والتي تشبه تربية الدواجن الصناعية

49- والاس، 2020.
50- دهنر، 2012، ص 121. "السوق الرطبة"، وهومصطلح مشتق من هونج كونج الإنجليزية، هو ببساطة سوقي بيع سلع قابلة للتلف مثل اللحوم والأسماك، على عكس "السوق الجافة" التي تبيع منتجات مثل الملابس أوالسلع الإليكترونية. هذا المصطلح في التغطية الأخيرة يستخدم أحيانًا بطريقة انتقادية، للدلالة على أن عادات الطهي لدى الصينيين مسؤولة بطريقة أو بأخرى عن تفشي المرض. ومع ذلك، هناك الكثيرمن "الأسواق الرطبة" في أوروبا وأمريكا الشمالية. انظر سانت كافيش، 2020
51- دهنر، 2012، ص ص 120-121.

الرائدة في الولايات المتحدة في عقود ما بعد الحرب[52]. وهو ما يطلق عليه ديفز «مركز تطور الإنفلونزا»[53]. من الأمور المهمة في هذه القصة هي إمبراطورية شاريون بوكفاند Charoen Pokphand التجارية، والتي بناها شقيقان تايلانديان، لتحاكي بشكل أساسي أساليب مؤسسة تايسون Tyson في الولايات المتحدة، وتستفيد بذكاء من انفتاح دنجشياو بينج على الاقتصاد الصيني منذ عام 1978 [54]. إن التحول نحو الزراعة الصناعية لا يساعد فقط على تكاثر الڤيروسات، بل إنه في الواقع يختار الڤيروسات الأكثر ضراوة. وكما يذكر والاس:

ينبغي أن تتجنب مسببات الأمراض تطور القدرة على التسبب بمثل هذا الضرر لمضيفها، فلا تتمكن من الانتقال لآخرين؛ فإذا قُتل المسبب للمرض مضيفه، قبل أن يصيب المضيف التالي، فإنه يدمر سلسلة انتقاله الخاصة. ولكن ماذا يحدث عندما «يعلم» المسبب للمرض أن المضيف التالي سيأتي في وقت أقرب؟ عندها من الممكن أن يتوقف عن كونه خبيثًا، لأنه يمكن أن ينجح في أن يصيب بالعدوى هدفه التالي في السلسلة قبل أن يقتل مضيفه.. وهناك ضغوط إضافية على ضراوة الإنفلونزا في المزارع [الصناعية]. فبمجرد وصول الحيوانات الصناعية إلى الحجم المطلوب تقتل. يجب أن تصل عدوى الإنفلونزا المتوطنة إلى عتبة انتشارها بسرعة في حيوان معين، قبل التضحية بالدجاج أو البط أو الخنازير[55].

ومن ثَم كانت الشبكة الممتدة بين جوانجدونج وهونج كونج، حيث تتحرك الدواجن في الاتجاهين عبر الحدود، مكانًا مثاليًا لظهور ڤيروس الإنفلونزا القاتل. جمعت المنطقة بين أنماط التوسع الصناعية سيئة التنظيم، والمزارع القائمة على خلط أنواع مختلفة من الطيور؛ إما في المزارع التي كانت تتوسع في الأراضي الرطبة في المقاطعة، أو في الأسواق الرطبة نفسها. في وقت لاحق اتضح أن ڤيروس إنفلونزا الطيور H5N1 كان نتيجة لسلالة وجدت في الإوز، ثم اتحدت مع سلالتين من الإنفلونزا[56]. وقد تم احتواء التفشي عن طريق عمليات إعدام واسعة، وإغلاق الأسواق لتعقيمها، وإعادة هيكلة الأسواق لفصل الأنواع، وحظر مبيعات البط الحي. وقد نفق أو أعدم ما يصل إلى نحو 200 مليون طائر[57]. ونجح الأمر، خصوصًا وأن ڤيروس H5N1 حتى الآن ينتقل من البشر إلى البشر من حين لآخر وعلى نطاق صغير[58]. وقد سجلت منظمة الصحة العالمية 861 حالة إصابة بڤيروس H5N1 في البشر، بالإضافة إلى 455 من الوفيات؛ وتعد مصر وإندونيسيا وفيتنام هي الدول الأكثر تضررًا[59]. ومع ذلك، لم تكن إنفلونزا الطيور H5N1 هي التي أدت إلى جائحة الإنفلونزا الأولى في القرن الحادي والعشرين؛ وبدلاً من ذلك، في عام 2009، ظهر تهديد جديد من سلالة الڤيروس، وهو النوع الذي تسبب في جائحة عام 1918، لكنها لم تكن في الأسواق الرطبة في جنوب شرق آسيا، بل في أمريكا الشمالية. وبمجرد أن ظهرت الحالات في الولايات المتحدة، كان انتقال العدوى بين البشر أمرًا ممكنًا بالفعل. وقد انتقل المرض عبر قطعان الخنازير المكسيكية، التي كانت موجودة في معامل صناعية واسعة النطاق[60].

تحوَّرت السلالة لتجمع بين «سلالات بشرية وطيور وخطيين مميزين جينيًّا من الخنازير (في أمريكا الشمالية وأوراسيا)»[61].

سارعت منظمة الصحة العالمية إلى إعلان وباء إنفلونزا الخنازير. ولحسن الحظ، أثبت الڤيروس أنه خفيف نسبيًّا، مع معدلات وفيات مماثلة للإنفلونزا الموسمية. في الواقع، أدى ذلك إلى ردة فعل كبيرة ضد منظمة الصحة العالمية، خصوصًا عندما كشفت المجلة الطبية البريطانية أن عددًا من خبراء منظمة الصحة العالمية كانوا يدفعون لشركات الأدوية التي كانت تستفيد من إنتاج اللقاحات ومضادات الڤيروسات [62].

وهذا دليل على مدى خطورة التعامل مع الصحة باعتبارها منفعة خاصة لا منفعة عامة. وليس من المستغرب أن يكون هناك شك، أو حتى عداء، للمؤسسة الطبية التي اخترقها المستفيدون.

52- والاس، 2009، ص ص 923- 926.
53- ديفيز 2006، ص ص 58-62.
54- والاس، 2009، ص ص 921-922.
55- والاس، 2009، ص ص 921-921.
56- دهنر، 2012، ص 126.
57- دهنر، 2012، ص ص 125-126.
58- والاس، 2009، ص 918.
59- منظمة الصحة العالمية، 2020. تسبب سلالة ثانيةمن الإنفلونزا H7N9، في انتشار الأوبئة المتكررة في الصين، وحتى ديسمبر 2019، تم تأكيد 1568 حالة، و616 حالة وفاة، معظمهم من أولئكا لذين كانوا على اتصال بالدواجن، على الرغم من حالات نادرة أخرى لانتقال العدوى بين البشر. بولس وسوباراو، 2017.
60- والاس، 2009.
61- دهنر،2012، ص142.
62- انظر جودلي، 2010.

أعدمت بعض الدول الخنازير بعد انتشار فيروس H1N1 في 2009

ومع ذلك، ينبغي النظر إلى إنفلونزا الطيور وإنفلونزا الخنازير H5N1 وH1N1 باعتبارهما كارثتين تم احتواؤهما بشكل ضيق أو، على الأرجح، كارثتين «مؤجلتين». الأولى لأنها لم تحقق بعد انتقالاً كبيرًا من الإنسان إلى الإنسان، والأخرى لأنها، في شكلها الحالي، ليست بالغة الضرر. لا يمكن قول الشيء نفسه عن تفشي الڤيروس التاجي السابق خلال هذه الفترة. ففي عام 2003 ظهر ڤيروس تاجي في جوانجدونج، رافقه ظهور مجموعة كبيرة من حالات الالتهاب الرئوي الحاد في المقاطعة.

وكان معدل الوفيات الناتجة عن الإصابة بالمتلازمة التنفسية الحادة (سارس) نحو 10 في المئة. ومن المحتمل أن يكون ڤيروس سارس منقولاً عبر زباد النخيل المقنع، الذي يباع في الأسواق الرطبة في المقاطعة، خصوصًا مع وجود وسيط بين البشر وخفافيش حدوة الحصان الصينية، والتي تعتبر حاضنة لمجموعة من الڤيروسات التاجية المرتبطة بسارس[63].

ويؤكد ظهور ڤيروس سارس حجة والاس بشأن التفاعل بين المناطق الحضرية والريفية.

لقد خلق التوسع السريع في جوانجدونج منطقة «شبه حضرية» واسعة النطاق، لا تتميز فقط «بالتعايش بين الصناعة والزراعة أو الأنشطة الحضرية والريفية ولكن أيضًا من خلال الترابط بين القطاعين».

وقد تسارع هذا منذ انفتاح الاقتصاد الصيني «كان التفاعل بين المناطق الحضرية والريفية في حقبة ما قبل الإصلاح مقيدًا بشدة.. من خلال تخصيص الموارد المركزية، وتحديد الأسعار والتحكم في الهجرة، مما شكل»جدارًا «غير مرئي ولكنه فعال؛ إذ يفصل المدن عن الريف.. وقد سمح تنفيذ السياسات الاقتصادية الليبرالية والمرنة منذ الإصلاحات للحضريين والفلاحين بالتفاعل بطريقة مباشرة وعفوية، مما أدى إلى إعادة تنظيم العلاقات الحضرية الريفية»[64]. بحلول نهاية عام 2002 انتشر المرض في قوانجتشو، التي كانت آنذاك مدينة يبلغ عدد سكانها عشرة ملايين نسمة. ومع ذلك تأخر مسؤولو الحكومة الصينية في تبادل المعلومات بشأن تفشي المرض، إما مع الشعب أو مع المجتمع الصحي الدولي، وذلك حتى 11 فبراير 2003[65].

في نهاية المطاف تم احتواء سارس في عام 2004، بعد برنامج ضخم أدارته الدولة، عبر تطبيق نظام الحجر الصحي والكشف عن الأمراض والتعقيم. وهو ما يعتبر، من نواح عديدة، بمثابة بروفة لما حدث لاحقًا؛ في أوائل عام 2020[66].

لكن من غير المحتمل أن تكون الأمور سهلة للغاية مع كوڤيد- 19. فبدءًا من ڤيروس سارس أصبح من السهل أن ينشر الناس العدوى، بعد أن كانوا يشعرون بالمرض والعجز إلى حد كبير. الأمر ليس كذلك مع كوڤيد 19الذي انتشر بالفعل على نطاق واسع[67].

ظهرت متلازمة الشرق الأوسط التنفسية ميرس MERS في المملكة العربية السعودية في عام 2012، ونتجت عنها أشد حالات الوفاة فتكًا بسبب الڤيروسات التاجية؛ إذ بلغت نسبة الوفيات نحو ثلث المصابين. انتشر المرض ووصل إلى أوروبا وآسيا والشرق الأوسط الكبير وأمريكا الشمالية، مما أدى إلى 2494 حالة مؤكدة و858 حالة وفاة مرتبطة بها[68].

هنا كان الوسيط بين الخفافيش والبشر هي الإبل العربية؛ إذ من المعروف أن الإبل كانت تحمل أشكالاً من الڤيروس لعدة عقود. واليوم، في الدول العربية الغنية بالنفط والتي أصبحت الآن حضرية إلى حد كبير، يتملكون الإبل بشكل أساسي تعبيرًا عن علو المكانة، ويستخدمونها، على سبيل المثال، في سباقات الهجن والعروض الترفيهية، أو لإنتاج اللحوم، أو منتجات الألبان، وبيعها، وأحيانًا

63- هو، وآخرون.

64- لين، 2001، ص ص 64-66
65- علي وكيل، 2006، ص ص 497-498.
66- دايفز، 2006.
67- ويلدر سميث، شو ولي، 2020.
68- بيري وآخرون، 2020.

بديلاً عن حيوانات الجر، أو للاستهلاك الفوري. وبالإضافة إلى التربية المكثفة للإبل، هناك زيادة كبرى في واردات الإبل الحية في المملكة العربية السعودية، ففي عام2013 تم استيراد 70 في المئة من الإبل المذبوحة، هذا بالإضافة إلى تجارة الإبل بين الدول العربية المختلفة من أجل سباقات الهجن والعروض الترفيهية، وربما أدت هذه العمليات التجارية إلى خلط سلالات مختلفة من الڤيروس التاجي بين المجموعات السكانية المختلفة، مما أدى إلى تفشي ڤيروس ميرس[69].

ظهور كوڤيد- 19

سبب كوڤيد- 19هو بيتاكورونا ڤيروس، المسؤول عن ڤيروسي سارس وميرس.أما مدينة ووهان؛ التي يُعتقد أنها كانت نقطة الصفر لتفشي المرض، فهي مدينة يبلغ عدد سكانها 11 مليون نسمة، وهي عاصمة مقاطعة هوبي غير الساحلية في وسط الصين. تقع شمال جوانجدونج، والتي كانت، بالإضافة إلى جيانجسو إلى الشرق، محركًا للنمو الصناعي في الصين.

كانت ووهان مدينة مهمة اقتصاديًّا وسياسيًّا في أوائل القرن العشرين، إذ كانت تقع وسط شبكة من الممرات المائية والسكك الحديدية التي أُنشأت لاحقًا.

ثم أصبحت، بعد تأسيس جمهورية الصين الشعبية في عام 1949، موطنًا للصناعات الثقيلة الكبيرة التي ترعاها الدولة، خصوصًا الحديد والصلب، وفيما بعد إنتاج السيارات.

لكن انفتاح الاقتصاد الصيني في أواخر السبعينيات تسبب في انخفاض أهمية المدينة قياسًا للمناطق الساحلية.

ومع ذلك، فقد شهدت الفترة الأخيرة انجذاب ووهان إلى النهضة الصينية في الإنشاءات «لم تقم ووهان فقط بتغذية هذه المشاريع الوهمية من خلال زيادة المعروض من مواد البناء والمهندسين المدنيين، بل أصبحت بذلك أيضًا مدينة ازدهار عقاري خاصة بها»[70].

ووفقًا لتقرير صادر عن بنك HSBC، نما عدد السكان في ووهان بنحو الخُمس من عام 2008 إلى عام 2017؛ وأصبح العديد من الوافدين الجدد، المهاجرين من أماكن أخرى في الصين، يشكِّلون نحو ثلث سكان المدينة. وبحلول عام 2017، بلغ الاستثمار في مشاريع الإسكان 26.8 مليار دولار، وقد ارتفعت أسعار الإقامة في المدينة

69- هيرميدا وآخرون، 2017.
70- تشانج، 2020.

مدينة ووهان الصينية نقطة انطلاق كوفيد - 19

أربع مرات خلال العقد الماضي. أما أغنى رجل في المدينة فهو «يان زهي»، وقد حقق الكثير من ثروته، والتي بلغت ذروتها 10 مليارات دولار في عام 2018، من الاستثمار في مجال العقارات[71].

تعتمد أعداد كبيرة من سكان المدينة على الأسواق الرطبة للحصول على الطعام، وفي هذا السياق يبدو أن كوڤيد- 19 قد ظهر. مع ذلك، وكما يشير والاس «في حين أن التمييز بين المزارع الصناعية والأسواق الرطبة ليس أمرًا غير مهم، فقد نغفل عن أوجه التشابه بينهما (والعلاقات الجدلية)»: الأسواق الرطبة والأطعمة الغريبة «الإكزوتيكية» هي السلع الأساسية في الصين، جنبًا إلى جنب مع المنتجات الصناعية التي انتشرت منذ التحرر الاقتصادي..

في الواقع، يمكن دمج وضع الطعام وطرق استخدام الأراضي معًا. وقد يؤدي توسيع الإنتاج الصناعي إلى دفع الأطعمة البرية التي يتم تمويلها والاستفادة منها بشكل متزايد بدرجة أعمق فيقلب المشهد، مما ينتج مجموعة متنوعة من مسببات الأمراض الوبائية المحتملة. قد يؤدي النمو السكاني المكثف في المناطق شبه الحضرية إلى زيادة تفاعلها (وانتشارها) بين المناطق الفقيرة الممتلئة بالحيوانات، والمناطق الريفية المتحولة أخيرًا إلى حضرية.

في جميع أنحاء العالم، حتى أكثر أنواع الحياة البرية شراسة، يتم احتواؤها في سلاسل القيمة [الزراعية]: من بينها النعام، والنيص، والتماسيح، وخفافيش الفاكهة، وزباد النخيل؛ الذي تنتج الحبوب التي يهضمها جزئيًا أغلى أنواع البن في العالم حاليًا. أحيانًا تؤكل بعض أنواع الحيوانات قبل تحديد هوياتها علميًّا. بما في ذلك نوع جديد من كلب البحر قصير

71- HSBC، 2018، فوربس 2020.

انتقل المرض من الصين لدول العالم بسبب حركة التنقل والتجارة

الأنف الذي وُجد أخيرًا في الأسواق التايوانية.كل هذه الأنواع تعامل، بشكل مطرد، باعتبارها سلعًا غذائية قابلة للأكل. نظرًا إلى أن الطبيعة تجرف تباعًا في مكان تلو الآخر، لذلك فإن ما يتبقى يصبح أكثر قيمة![72]

والواقع أن السياسة الصينية، على المستوى الوطني، ومن خلال القادة الإقليميين والمحليين المنخرطين في المنافسة، شجعت تربية الحيوانات البرية، التي يُنظر إليها باعتبارها تعزيزًا للصناعات الريفية. وقد قدر الناتج عن تربية الحيوانات البرية في عام 2017 بمبلغ 57 مليار جنيه إسترليني[73].

انتشر كوفيد- 19 بسرعة شديدة خارج ووهان. ليس فقط لأن سكان العالم صاروا أكثر ارتباطًا من أي وقت مضى، بل لأن السفر جوًّا يعني أن أوقات الرحلات غالبًا ما تكون أقصر من فترة حضانة الڤيروس، لذا ربما وصل المسافرون وبدأوا في نشر المرض قبل ظهور أي أعراض عليهم.

مرة أخرى، في عام 2003 مع تفشي ڤيروس سارس، كانت هونج كونج هي نقطة الوصل لانتقال الڤيروس إلى المدن في جميع أنحاء العالم، ولكن اليوم الصين نفسها ترتبط بشبكة اتصالات مكثفة مع مدن أخرى[74]. ووهان نفسها تمتلك مطارًا دوليًّا خاصًا يربطها بأكثر من 60 وجهة في الخارج[75]، وقد كان هناك 515 مليون رحلة داخلية في الصين في عام 2019، بالإضافة إلى عدد أن الرحلات الدولية زاد من 6.2 مليون رحلة في عام 2000 إلى 51.62 مليون رحلة في عام 2016 [76]. وفي حين كان هناك نمو حضاري مذهل في الصين،

72- والاس، 2020.
73- ستاندايرت 2020.
74- علي وكيل، 2006، ص 500.
75- بيير وآخرون، 2020، ص 8.
76- بيانات IATA، وانج، يانج ووانج، 2019، ص5.

لا يزال الإنفاق على الرعاية الصحية منخفضًا؛ إذ «وُجِّه معظم الإنفاق العام نحو البنية التحتية؛ الطوب والأسمنت، اللازمين لإنشاء الجسور والطرق، والكهرباء الرخيصة اللازمة للإنتاج» مما يؤدي إلى «تدهور عام للرعاية الصحية الأساسية»، بالإضافة إلى تضاعف تصنيع المنتجات الأولية في أماكن أخرى.

إن نصيب الفرد من الإنفاق العام على الصحة في الصين ضعيف للغاية «حتى في البلدان ذات الدخل فوق المتوسط الأخرى، ويساوي نحو نصف ما تنفقه البرازيل، أو روسيا البيضاء، أو بلغاريا»[77].

بالإضافة إلى ذلك، لا يتمتع العديد من العمال الصينيين المهاجرين بالرعاية الصحية بمجرد مغادرتهم لمساقط رؤوسهم الريفية؛ لذلك كانت الظروف مهيأة لانتشار الوباء في الصين وفي بقية أنحاء العالم.

الآثار الاقتصادية

في السنوات الأخيرة حوَّلت الصين نفسها إلى أكبر مُصدِّر للبضائع في العالم، وكذلك أكبر مستورد للمواد الخام. كما تسيطر على 40 في المئة من صادرات الملابس والمنسوجات العالمية، ونحو ثلث الصادرات العالمية من الأدوات المكتبية، ومعدات معالجة البيانات والاتصالات، و13 في المئة من صادرات الحديد والصلب، و14 في المئة من مكونات الدوائر الإلكترونية المتكاملة[78].

ومع ذلك، فالصين ليست مجرد قوة تصدير؛ لقد وضعت نفسها في مركز شبكات الإنتاج العالمية، وبذلك أدمجت النطاقين الإقليمي والدولي معًا. وهذا صحيح بشكل خاص في الإلكترونيات. مع انتشار قواعد الحجر الصحي وإغلاق المصانع في مناطق مثل تشجيانج وجوانجدونج وخنان، تضررت سلاسل التوريد لشركات مثل أبل Apple. وتتوقع شركة Foxconn التايوانية العملاقة، التي تصنع أجهزة آيفون iPhones لشركة أبل، أن تنخفض إيرادات الربع الأول لهذه السنة بنسبة 45 بالمئة. وفي جميع أنحاء البلاد، شهد مؤشر مديري المشتريات للتصنيع، وهو مقياس رئيسي للنشاط المتوقع، أكبر انكماش له على الإطلاق، بل أسوأ مما كان عليه خلال أزمة عام 2008.

أدى التباطؤ في الصين نفسها، بالإضافة إلى تأثير كوفيد- 19 على الاقتصاد العالمي بشكل واسع النطاق، إلى انهيار

77- تشانج، 2020.
78- بيانات WTO.

أسواق الأسهم في جميع أنحاء العالم. وبحلول منتصف مارس، سجَّلت الأسواق في الولايات المتحدة وأوروبا بعض أكبر انخفاضاتها في التاريخ. تفاقمت الهزات التي أصابت سوق الأسهم بسبب حرب الأسعار الناشئة في قطاع الطاقة. خلال السنوات الثلاث الماضية، تواطأ منتجو النفط؛ مثل السعودية وروسيا لتقييد الإمدادات والحفاظ على أسعار النفط مرتفعة نسبيًّا[79].

ومع تباطؤ التصنيع الصيني، سعى ولي العهد السعودي محمد بن سلمان، المعروف باسم MBS، إلى إقناع فلاديمير بوتين بخفض الإنتاج. ومع ذلك، اعتبر بوتين التنسيق بين المنتجين لدعم أسعار النفط بمثابة دعم لصناعة النفط الصخري الأمريكي، الأمر الذي يتطلب طاقة باهظة الثمن لجعله قابلاً للتطبيق. وقد سمح إنتاج النفط الصخري للولايات المتحدة بأن تصبح أكبر منتج للنفط في العالم، متجاوزة بذلك كلاً من روسيا والمملكة العربية السعودية. وعلاوة على ذلك، تعثر بوتين بسبب القرار الأخير الذي اتخذته الولايات المتحدة بفرض عقوبات على الذراع التجارية لشركة Rosneft، وهي شركة الطاقة الروسية التي تسيطر عليها الدولة، فسمحت روسيا بانخفاض الأسعار، منهية بذلك تحالفها مع السعودية، فرد محمد بن سلمان بإغراق السوق بالنفط، الأمر الذي أشعل حرب الأسعار[80]. من المرجح أن الكساد الجديد بدأ يترسخ بالفعل، وهذا بالتأكيد رأي محافظي البنوك المركزية. في 3 مارس، عقد مجلس الاحتياطي الفيدرالي الأمريكي اجتماعًا طارئًا، وخفض أسعار الفائدة بنسبة 0.5 في المئة، وذلك للمرة الأولى منذ أزمة 2008-2009.

فلاديمير بوتين

محمد بن سلمان

كما وعد بنك الاحتياطي الفيدرالي بضخ تمويلات في الأسواق المالية، وخصوصًا أسواق «الريبو» التي تستخدمها الشركات المالية للحصول على سيولة قصيرة الأجل مقابل ضمانات مثل السندات. وبعد ذلك بأسبوع، اتجه بنك إنجلترا إلى تخفيض أسعار الفائدة. قام البنك المركزي الأوروبي (ECB)، الذي كان معدله الرئيسي سلبيًا بالفعل، أربك المستثمرين من خلال تقديم حافز أكثر محدودية، وتوسيع برنامج التيسير الكمي الحالي. ثم، في 15 مارس، أعلن بنك الاحتياطي الفيدرالي عن إجراء جديد؛ إذ خفض أسعار الفائدة الأمريكية حتى قاربت الصفر، ووسَّع مشترياته من السندات، وقدَّم «خطوط مبادلة» جديدة لضخ الدولارات في البنوك المركزية الأخرى. يعكس التركيز على أسواق الريبو وتوفير الدولارات من أجل تليين النظام المالي العالمي المخاوف من نوع أزمة السيولة التي تطورت منذ عام 2007، وهو ما يشبه بقوة تدابير الطوارئ التي اتخذت قبل عقد من الزمن[81].

وبعبارة أخرى، يعتقد من هم في أعلى مستويات الاقتصاد أن هذه الأزمة يمكن أن تكون مماثلة لما حدث في عامي 2008-2009. وفي حين أن كوفيد- 19 قد يؤدي إلى كساد عالمي، فإنه ليس السبب الأساسي؛ فقد كان النظام العالمي مريضًا للغاية بالفعل قبل تفشيه[82]. وتكمن جذور هذا في فترة طويلة من الربحية المتدنية والأساليب المستخدمة للخروج بالاقتصاد من حالة الكساد في 2008-2009. وكما قلت في عام 2018:

79- يانج وهايل، 2020.
80- براور، رافال، شيبرد، ماير، 2020.
81- انظر، على سبيل المثال، توز، 2018، ص ص 202-220.
82- روبرتس، 2020.

فاينانشيال تايمز

«كان الكساد في 2008–2009 أزمة يؤجلها النظام منذ فترة طويلة، بعد فترة من الربحية المنخفضة، والأنماط المختلة من التمويل وردود فعل الدول.. إن حقيقة أنه لم يُسمح له بأن يصبح كسادًا كالذي حدث في الثلاثينيات أعطتنا بدلاً من ذلك كسادًا طويلاً؛ فترة طويلة من النمو المؤقت البطيء نسبيًا»[83].

الإجراء الذي اتخذته الطبقات الحاكمة في أعقاب الأزمة؛ كحزم التحفيز، وخفض أسعار الفائدة، والتيسير الكمي، يعني: أن الرأسمالية اتخذت آلية دعم الحياة؛ ولكن بطريقة مالية مميزة.. إذ تهدف التدابير، ظاهريًّا، إلى ضمان تدفق الائتمان للشركات وزيادة الإنتاج. ولكن في ظل ظروف ربحية متدنية، فشل ذلك في تحقيق الهدف المرجو. إذ يحدث التراكم السريع في الظروف التي يعتقد فيها المستثمرون أن الإنتاج سيكون مربحًا.

وبدلاً من ذلك، قامت البنوك بنقل الأموال بعيدًا، أو ضخَّتها في استثمارات مالية، غالبًا ما تكون ذات عوائد عالية، ومحفوفة بالمخاطر. لم تعمل خطة الإنقاذ المالية على تأجيج المضاربات. وبالمناسبة، فقد تضخمت أسعار الأصول التي يملكها الأغنياء، بل إنها أجلت أي حل للأزمة الحالية[84].

83- شونارا، 2017.
84- شونارا، 2018، ص ص 104-105.

في مقال نشر في صحيفة فاينانشيال تايمز Financial Times بعنوان «بذور أزمة الديون المقبلة»، يلاحظ جون بلندر أنه بحلول الربع الثالث من عام 2019، بلغ الدين العالمي رقمًا قياسيًّا 322 في المائة من إجمالي الناتج المحلي، أي ما يقارب 253 تريليون دولار. وأن الكثير من الشركات غير المالية قد تكافح في ظل الاضطراب الحالي لخدمة ديونها[85].

وبعبارة أخرى، ربما نكون قد وصلنا إلى حدود فترة النمو البطيء غير المؤكد التي حدثت بعد 2008–2009.

وكما يذكر مقطع آخر في فاينانشيال تايمز:

لعقد من الزمن تلاعبت الشركات بالديون الرخيصة.. تراجعت تكاليف الاقتراض بعد أن خفضت البنوك المركزية أسعار الفائدة لتضخم اقتصاداتها في أعقاب الأزمة المالية لعام 2008. رأى المستثمرون، الذين يعانون الحرمان من عائدات السندات الحكومية الأكثر أمانًا، أن إقراض الشركات التي على حافة الخطر هو الوسيلة لجني العائدات. ويقدِّر راشير شارما Ruchir Sharma، كبير الاستراتيجيين العالميين في مؤسسة Morgan Stanley Investment Management، أن واحدة من كل ست شركات أمريكية لا تكسب تدفقات نقدية كافية لتغطية مدفوعات الفائدة على ديونها. ويمكن لمقترضي «الزومبي» هؤلاء الاستمرار في تأجيل الأزمة طالما استمرت أسواق الديون في السماح لهم بإعادة التمويل، ولكن الآن حان وقت الحساب[86].

دون مسح الشركات غير الرابحة على نطاق أكبر بكثير مما حدث حتى الآن، فمن غير المرجح أن تنتعش معدلات الأرباح. وفي هذا السياق؛ حيث أسعار الفائدة تقترب بالفعل من الصفر أو تقل عنه، وميزانيات البنك المركزي مُحملة بمشتريات الأصول السابقة، هناك حدود لما يمكن أن تفعله السياسة النقدية.

وكما يطرح بلندر، فإننا قد نواجه «أزمة ائتمان في عالم من أسعار الفائدة المنخفضة للغاية والسلبية». حتى لو كان هناك نشاط أكثر للبنك المركزي، فالملاحظ أنه يخاطر «بترسيخ السياسة النقدية المضطربة التي أسهمت في التسبب بالأزمة المالية أصلاً، بالإضافة إلى تفاقم الديون الخطرة التي يواجهها الاقتصاد العالمي الآن»[87].

ونظرًا إلى أن الكثير من المدخرات التي استخدمت لتفادي الأزمة قد أنفقت بالفعل، فإن العديد من صناع

85- بلندر، 2020.
86- إيدجكليف، جونسون، وآخرون، 2020.
87- بلندر، 2020.

السياسة والمعلقين يدعون إلى التحول إلى السياسة المالية. وكما يشير مايكل روبرتس، هناك أدلة محدودة على أن الدول التي تعاني عجزًا في الإنفاق على النطاق المتوخى يمكن أن تحافظ على النمو في مواجهة انخفاض الربحية. ولما كان هذا مستحيلاً في العديد من الاقتصادات الضعيفة، خصوصًا في نصف الكرة الجنوبي[88]، فستكون النتيجة الأساسية هي الانكماش الاقتصادي.

بين التهاون والاستبداد

استجابت الحكومات للوباء بمجموعة من ردود الفعل. وهذا، في المقام الأول، ليس نتيجة للخلافات بشأن علم الأوبئة أو علم الڤيروسات، فعلى الرغم من محدودية المعلومات المعروفة بشأن كوڤيد- 19 وقت كتابة هذا التقرير، فإنه لا يزال هناك الكثير من المجهول عنه. بشكل أساسي، تعكس الاستجابات سياق الدول الرأسمالية المقسم إلى طبقات، والمندمج في نظام عالمي مليء بالصراعات.

كانت الاستجابة النموذجية لأولئك الذين يترأسون النظام، أولاً: هي التهاون في أثناء سعيهم للحفاظ على إنتاج وتداول رأس المال على حساب المعاناة الإنسانية، تلتها تدابير يائسة، من أعلى إلى أسفل، بحيث أصبح جدوى الربح المستقبلي محل شك في حال استمرار الوباء. وقد امتد برنامج الإغلاق في الصين، في ذروته، ليشمل نحو 760 مليون شخص[89]، كماأغلقت أماكن العمل، وقُيِّدت حركة الأشخاص.

ونتيجة لذلك، يُنظر إلى الصين على نطاق واسع باعتبارها أبطأت انتشار الڤيروس، على الرغم من استمرار التساؤلات حول الأرقام الرسمية، وما إذا كان الڤيروس سيعاود الظهور مع تخفيف الضوابط. وهذه نقطة مهمة للغاية؛ إذ يبدو أن الحكومة تعطي الأولوية لإعادة فتح أماكن العمل بصورة عاجلة.

وبالإضافة إلى ذلك، هناك ثلاثة أسباب تجعل اليسار حذرًا من الإفراط في الثناء على الصين. أولاً: لا يمكن إنكار أن آلة الدولة الاستبدادية يمكنها أحيانًا القيام بأشياء لا تستطيع الديموقراطيات الليبرالية القيام بها. ومع ذلك فهذه ليست حجة لقبول الديكتاتورية باعتبارها متفوقة على الديموقراطية، فهذا يشبه إلى حد كبير الحجة الشهيرة القائلة إن «موسوليني جعل القطارات تعمل في الوقت المحدد».[90] إن الاقتياد القسري لعشرات الآلاف من الناس إلى مراكز العزل المؤقتة في الاستادات الرياضية، والرقابة الشديدة على ملايين البشر سواء على الإنترنت، أو في الشوارع، ليس بالطبع نموذجًا للاشتراكيين، باعتبارها طريقة لإنتاج دعم حقيقي لتدابير الصحة العامة[91].

وقد وُصفت الاستجابة الصينية بأنهاتتألف من «تدابير يائسة وعدوانية» مماثلة لتلك المستخدمة في مكافحة التمرد في الجزائر أو فلسطين، ولكن في هذه الحالة تم إجراؤها في «المدن الكبرى» التي تضم جزءًا كبيرًا من سكان العالم[92].

ثانيًا: تفترض الصورة السطحية للقمع المركزي الفعال أن الدولة الصينية أكثر قوة وتماسكًا مما هي عليه في الواقع.

ومرة أخرى، يقدم المؤلف المجهول في Chuang أفضل تعليق. في حين أن جهاز الدولة المركزية يمكنه في نهاية المطاف أن يركز جهوده في ووهان، بشكل عام، فقد اعتمد على مجموعة من «الدعوات التي نشرت على نطاق واسع للمسؤولين المحليين والمواطنين المحليين للتعبئة، بالإضافة إلى سلسلة من العقوبات اللاحقة توقَّع على أسوأ المستجيبين».[93]

خارج هوبي، كانت الاستجابة متفاوتة للغاية، وقد أدى ذلك إلى قمع تعسفي في بعض المناطق؛ منها على سبيل المثال إصدار 30 مليون «جواز سفر محلي» في أربع مدن في تشجيانج «للسماح لشخص واحد من كل أسرة بمغادرة المنزل مرة كل يومين»[94].

وذكر صحفيون مهتمون بالشأن الصيني في تقرير لصيحفة نيويورك تايمز New York Times:

88- روبرتس، 2020
89- زونج وموزر، 2020.

90- هذه، على أي حال، أسطورة. يعلق بيرجان إيفانز (1954، ص 77) على "أسطورة الكفاءة الفاشية": "تم توظيف المؤلف كمندوب توصيل من قبل شركة فرانكو بلجيك للسياحة في صيف عام 1930، في ذروة حكم موسوليني، عندما كان يوجد حارس فاشي في كل قطار، ليقدم إفادة خطية مفادها أن معظم القطارات الإيطالية التي سافر عليها لم تكن في الموعد المحدد – أو قريبًا منه".
91- يوان، 2020، عند ظهور نظام المراقبة الصيني القائم على وسائل التواصل الاجتماعي، انظر زوبوف، 2019، ص ص 394-388.
92- تشانج، 2020.
93- تشانج، 2020.
94- تشانج، 2020.

الحشد الشعبي يذكرنا بالحملات العنيفة، على غرار ما كان يحدث أيام ماو، وهو ما لم تشهده الصين منذ عقود، بتحويل الخطوط الأمامية للحماية من الوباء إلى نظم صارمة كالساعة.

وعلى الرغم من ترسانة الصين الضخمة من أدوات المراقبة عالية التقنية، فإن تطبيق الضوابط بشكل رئيسي يقوم به مئات الآلاف من العمال والمتطوعين، الذين يقومون بفحص درجة حرارة السكان، وتسجيل تحركاتهم، والإشراف على الحجر الصحي -والأهم من ذلك- إبعاد الغرباء الذين قد يحملون الڤيروس [95]. تعكس الطبيعة الملتبسة للاستجابة الصينية، المنافسة بين القادة المحليين والإقليميين. ووفقًا لأحد الأكاديميين الصينيين: «بمجرد الكشف عن الوباء، مارست الحكومة المركزية ضغوطًا كبيرة على المسؤولين المحليين. وأثار ذلك منافسة بين المناطق، فتحولت الحكومات المحلية من المحافظة المفرطة إلى الراديكالية»[96].

ثالثًا: في المقام الأول يتم تجاهل مسؤولية الدولة الصينية بشأن السماح للوباء بالانتشار؛ وهو أمر تكرر بانتظام كبير في السنوات الأخيرة، على سبيل المثال في حالتي السارس وإنفلونزا الطيور.

كانت الاستجابة الأولية للدولة، عندما ظهرت الحالات في أوائل ديسمبر 2019، هي السعي للتستر على تفشي المرض، وإسكات الأطباء الذين تكلموا في الموضوع، وأبرزهم طبيب العيون لي ون لينانج، الذي تسبب موته بكوڤيد- 19 في اندلاع الغضب[97].

خارج الصين، في وقت كتابة هذا التقرير، بدا أن إيطاليا لديها أكبر عدد من الحالات والوفيات بسبب كوڤيد- 19. وهناك دلائل على أن الڤيروس كان منتشرًا في البلاد دون أن يُكتشف لبعض الوقت قبل ظهور الحالة الأولى. أما إيطاليا فهي معرضة للخطر بشكل خاص؛ إذ أنها تحتوي على نسبة عالية للغاية من كبار السن.

إن الخدمة الصحية، التي أضعفتها سنوات من التقشف، أصبحت الآن غارقة تمامًا، وقد وصل المتخصصون في عنابر العناية المركزة إلى النقطة التي سيكون عليهم فيها التفكير في المرضى الذين يجب أن يتلقوا علاجًا ينقذ حياتهم.

95- زونج وموزر، 2020.
96- مقتبس من زونج وموزر، 2020.
97- بيركلي وماير، 2020.

في نهاية المطاف استجابت الحكومة بإغلاق المدارس والجامعات والمحال التجارية، والصيدليات، والحانات، والمطاعم، ومع ذلك استمرت البنوك وأماكن العمل. وقد تكرر هذا النمط المشابه في العديد من البلدان: لا يجتمع العمال معًا، إلا إذا كانوا يعملون على وسائل الإنتاج بشكل مباشر. وبالفعل خاطب اتحاد العمال الإيطالي Confindustria، الحكومة طالبًا «حلاً متوازنًا»، لأن إغلاق أماكن العمل «سيؤثر حتمًا على المبيعات والعمالة»[98]. ورد السياسيون من مختلف التوجهات على الرسالة؛ إذ قال حاكم لومباردي؛ عضو حزب ليجا اليميني الراديكالي، بأن تفشي المرض «يزيد قليلاً عن الإنفلونزا العادية»، في حين أطلق عمدة يسار الوسط في ميلانو حملة «ميلانو لا يتوقف»[99]. جاء رد الفعل الأول في إيطاليا في أوائل مارس، حين بدأت موجة عفوية من الإضرابات، لقد قرر العمال أن يتصرفوا بأنفسهم؛ فتطورت الإضرابات في مصانع فيات في تيرمولي بالقرب من نابولي، وفي مصنعي قطع غيار السيارات في فلورنسا، وفي ساحات بناء السفن في البندقية، وموانئ جنوة.طالت الإضرابات كذلك مصانع الصلب ومصانع الملابس[100]. وبحلول منتصف مارس كان من الواضح أن نمط العدوى في إيطاليا سيكون رائدًا لموجات مماثلة في جميع أنحاء أوروبا. وبحلول 16 مارس، أغلقت 36 دولة أوروبية مدارسها تمامًا أو جزئيًا؛ وفرض معظمها قيودًا على السفر داخليًا، وأغلق بعضها حدوده؛ وحُظرت التجمعات العامة، والفعاليات الرياضية، ومعظم المحال التجارية والمقاهي ودور السينما والمسارح.

في هذه الأثناء، وفي قلب الرأسمالية العالمية، كان رد فعل دونالد ترامب الأولي على كوڤيد- 19 هو إدانته، باعتباره «خدعة» الحزب الديمقراطي على غرار ما حدث في محاولة إقالته، في حين طالب حليفه، لاري كودلو، مدير المجلس الاقتصادي الوطني، الناس «بالبقاء في العمل»، حتى يتم «احتواء الڤيروس» نسبيًا[101].

وأخيرًا شعر ترامب بأنه مجبر على إعلان حالة الطوارئ، والموافقة على بعض الخطوات كحزم التحفيز وزيادة تمويل الوكالات الفيدرالية، وهو ما ترافق مع تفجر المشاعر المعادية للصين وإغلاق الحدود.

98- تاما، 2020.
99- بيرون، 2020.
100- باسكتر، 2020، ديل بانتا، 2020.
101- لاهت، 2020.

دونالد ترامب

بوريس جونسون

أدى التأخير في التعرف على خطر تفشي المرض إلى تفاقم المشكلات التي كان السبب الرئيسي فيها النظام الصحي في الولايات المتحدة؛ إذ يعتبر اختبار الكشف عن كوفيد- 19، من بين أدنى مستويات الاختبارات في الدول الغنية، كما أن هناك عددًا قليلاً جدًا من أسرَّة العناية المركزة، والمتاح منها أقل من القليل. بالإضافة إلى الحواجز المالية المتعددة التي تحول دون الحصول على الرعاية الصحية. بالنظر إلى فواتير العلاج التي أعلن عنها على نطاق واسع حالات بما في ذلك حالات الحجر الصحي الإلزامي[102].

ثم هناك حالة بريطانيا؛ وكما هو الحال مع ترامب، كان الانطباع السائد الذي تركه رئيس الوزراء البريطاني بوريس جونسون في الأسابيع الأولى من العام يوحي بالتهاون. وبصرف النظر عن نصيحته المبكرة للناس بغسل أياديهم وهم ينشدون «عيد ميلاد سعيد» (أو النشيد الوطني على حد قول جاكوب ريس-موج)، تخلَّفت بريطانيا عن الدول الأخرى في تنفيذ التدابير اللازمة للسيطرة على انتشار الڤيروس.

أدان جون أشتون John Ashton المدير الإقليمي السابق للصحة العامة في شمال غرب إنجلترا، التأخيرات في عقد لجنة موسعة طارئة للحكومة استجابة للحالة الطارئة «إننا نتصرف مثل المستعمرين في القرن التاسع عشر، الذين كانوا يقضون خمسة أيام كاملة في لعبةكريكيت»، كما انتقد أيضًا تأثير عقد كامل من التقشف على الصحة العامة[103].

عندما أعلن في ميزانية الحكومة في 11 مارس عن زيادة قدرها 76 مليار جنيه إسترليني في الإنفاق، وركز بعضها على التخفيف من تأثير الكساد الاقتصادي،استقبلت صحيفة نيويورك تايمز الأمر بعنوان «المملكة المتحدة تحمي اقتصادها من الڤيروس، لا شعبها». ناقش المقال أن «خطة الإنقاذ الاقتصادي العدوانية للبلاد.. تتناقض بشكل حاد مع استجابتها لمتطلبات الصحة العامة اللازمة لمواجهة الوباء»[104].

بعد ذلك بيوم واحد، أعلن جونسون أن بريطانيا ستنتقل من مرحلة «احتواء» الأزمة إلى مرحلة «التأجيل»، سعيًا إلى إبطاء انتشار المرض بين السكان. لكنه ضاعف من قلق الناس بخطاب قاس، سيتم اعتباره الخط الذي سيتصرف على أساسه: «يجب أن أكون صادقًا مع الشعب البريطاني: ستفقد العديد من العائلات أحباءها»[105].

وفي مقابلة أجريت على سكاي نيوز Sky News زعم كبير المستشارين العلميين للحكومة، السير باتريك فالانس Patrick Vallance أن «مناعة القطيع» ستتحقق من خلال «نحو 60 بالمئة» من الأشخاص المصابين بكوڤيد - 19. وهي التصريحات التي رددها، فيما بعد، مستشارون آخرون، وأدانها بشدة ريتشارد هورتون Richard Horton محرر صحيفة لانسيت Lancet[106].

وقد لاحظ عدد من الكُتَّاب أن هذا النهج قد يعني وفاة أكثر من نصف مليون شخص. بالنسبة لبعض عناصر الطبقة الحاكمة، قد لا تهم أعداد هذه الوفيات كثيرًا. فكتب الصحفي في صحيفة ديلي تليجراف Daily Telegraph جيريمي وارنر Jeremy Warner «من منظور اقتصادي غير مبالٍ تمامًا، قد يثبت كوفيد- 19

102- سكوت، 2020.
103- بوزيلي، 2020.
104- لاندلر، وكاسيل، ومولر، 2020.
105- ستيوارت، بروكتر، صديقي، 2020.
106- هورتون، 2020.

أنه مفيد على المدى الطويل، إذ سيتسبب في التخلص من المسنين الذين لا عائل لهم»[107].

ومع ذلك، كان هناك تحول مفاجئ نحو الإغلاق في 16 مارس؛ إذ نصح جونسون بإنهاء كل أنماط «التواصل غير الضرورية»؛ وطالب الأشخاص بالابتعاد عن الحانات والنوادي والمطاعم والمسارح؛ بل إنه طالبهم كذلك بالسعي لعزل أنفسهم لمدة 12 أسبوعًا[108].

وهناك مؤشرات تفيد باحتمالية اتباع المزيد من السياسات الصارمة. وفقًا للأكاديميين في الكلية الإمبراطورية، التي ساعدت أبحاثهم في تحويل التفكير الحكومي، يشير الإعلان إلى تحول من «التخفيف»، إذ تظل هناك فرصة للڤيروس لينتشر بين السكان في أثناء محاولة الحد من التأثير، نحو «القمع»؛ إذ تسعى الحكومة إلى إيقاف انتشار الڤيروس تمامًا.[109]

أحد التحديات التي تواجه هذا الأخير هو أن تخفيف التدابير قد يسمح للڤيروس «بمواصلة تقدمه»، وهو ما يعني 18 شهرًا إضافية من الإغلاق الذي من شأنه أن يكون مدمرًا اقتصاديًا. وقد رافق تحول جونسون الإعلان عن 330 مليار جنيه استرليني من ضمانات القروض وإجراءات أخرى تهدف إلى دعم الشركات، ولكن يبدو أنه من المحتمل أن تضطر الحكومة إلى توسيع تدخلاتها في الاقتصاد إذا كانت جادة في قمع تفشي المرض.

وفي حين أن وجود للڤيروس في شرق آسيا وأمريكا الشمالية وأوروبا محتمل نسبيًا، فإن التأثير الذي سيحدثه كوڤيد- 19 في نصف الكرة الجنوبي غير مؤكد بشكل مرعب. فمن غير المعروف ببساطة عدد الحالات الموجودة في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، إذ أنه بدايةً لم يكن في المنطقة سوى مختبرين قادرين على إجراء الاختبارات اللازمة، بالإضافة إلى أن الأنظمة الصحية هناك مجوفة بفعل سنوات طويلة من التكيف الهيكلي[110].

ومن المرجح أن يكون التفاؤل، لدى أولئك الذين يأملون في أن الشباب في أفريقيا أكثر نسبيًا، أو المناخ الأكثر دفئًا، أو أن خبرة الأطباء بالأوبئة سيخفف من آثار كوڤيد- 19، أملاً في غير محله[111] .

107- وارنر، 2020.
108- ستيورارت، وبوزيلي، ووالكر، وإليوت، 2020.
109- فيرجسون، وآخرون، 2020.
110- كنتيكلينس، 2017.
111- بيلنج، 2020.

فمع وصول الڤيروس إلى القارة، سيؤثر على السكان الذين أضعفتهم بالفعل آثار ڤيروسي نقص المناعة البشرية «الإيدز» والإيبولا، خصوصًا وهم يخضعون لرعاية صحية فقيرة للغاية. اعتبارًا من عام 2015، كان لدى كينيا؛ البالغ عدد سكانها 50 مليون نسمة، 130 سريرًا للعناية المركزة فقط[112].

وبالنظر إلى تجربة إيران، التي أصبحت مركزًا رئيسيًا آخر للوباء؛ تنفق إيران ما يقرب من سبعة أضعاف ما ينفقه الفرد في كينيا على الصحة، لكن المرض يهدد هناك بالفعل بإرباك المستشفيات، مع وجود أدلة تشير إلى أنه انتشر لبعض الوقت بين السكان قبل بذل أي جهود لاحتوائه[113].

الاستجابة الاشتراكية

يجب أن تحتوي الاستجابة الاشتراكية للأزمة على الكثير من الحس الوبائي السليم. فبمجرد أن ينتشر الڤيروس بشكل كاف لجعل الجهود الأولية في الاحتواء غير واقعية، تصبح الأولوية المركزية إما لإبطاء انتشاره أو القضاء عليه. يستخدم علماء الأوبئة في بعض الأحيان «رقم التكاثر الأساسي» (R0) للإشارة إلى عدد الأشخاص الذين يحتمل أن يصابوا بالڤيروس ، في ظروف لا يكون فيها أحد محصنًا. إذا كان رقم التكاثر الأساسي أقل من واحد، فإن المرض سيزول. وإذا كان أكبر من واحد، سوف يميل، في البداية على الأقل، إلى الانتشار. وقد قُدِّر رقم التكاثر الأساسي للڤيروس المسبب لـكوڤيد- 19بأنه يقع في المتوسط بين 2.0-2.5.

هناك أمران مهمان لفهم رقم التكاثر الأساسي، وهما، أولاً: لا أحد محصن.

في وقت كتابة هذا التقرير، لم يكن من الواضح إلى أي درجة يصبح أولئك الذين يتعافون من كوڤيد- 19 محصنين. وإذا كان الأمر كذلك، فإلى أي مدى تكون هذه الحصانة دائمة[114]. ثانيًا: رقم التكاثر الأساسي ليس

112- نوردلنج، 2020، دايفز 2020.
113- بيانات منظمة الصحة العالمية.
114- إذا لم يقمع كوفيد- 19وأصبح دائمًا، كبقية مجموعة الأمراض المعدية التي تصيب البشرية، فقد تصبح "مناعة القطيع" مفيدة في نهاية المطاف. هذه هي الفكرة القائلة بأنه إذا أصبح بعض الناس محصنين ضد مرض ما، فإن هذا يبطئ انتشاره،عن طريق تقليل الأعداد التي يمكن أن تنقله. ومع ذلك، ما لم يتم تحقيق ذلك من خلال برنامج للتطعيم ضده، يجب أن يُنظر إليه على أنه نتيجة مروعة للفشل في وقف انتشارالمرض – وليس الهدف المعلن للحكومة.

مفهومًا بيولوجيًّا بحتًا؛ إنه «تقدير لنسبة العدوى، بما هو دالة للسلوك البشري والخصائص البيولوجية لمسببات الأمراض»[115]. لذا، فبالإضافة إلى طبيعة الڤيروس، فإنه يعتمد أيضًا على استجابة الناس لانتشار الڤيروس والإجراءات التي يتخذونها للحماية منه.

كما لوحظ أعلاه، يبدو أن التحول في سياسة الحكومة في بريطانيا قد حدث، جزئيًا على الأقل، بسبب الورقة التي كتبها فيرجسون وزملاؤه في الكلية الملكية. والتي أقرَّت بأن سياسات التخفيف يمكن أن تؤدي إلى أكثر من نصف مليون حالة وفاة في بريطانيا، مع الأخذ في الاعتبار التأثير الإضافي لسوء الخدمات الصحية[116]. ومع ذلك فهم مستمرون في النقاش حول المرض دون ملاحظةالصعوبات الضخمة التي ينطوي عليها: «لم يسبق من قبل أن تم القيام بأي تدخل في مجال الصحة العامة له مثل هذه الآثار التخريبية على المجتمع، لمثل هذه الفترة الطويلة من الزمن.. أما كيف سيستجيب الناس والمجتمعات فهو أمر ما يزال غير واضح»[117].

وسواء ثبت أن القضاء على الڤيروس ممكن أم لا، فهناك أسباب قوية للسعي إلى تقليل رقم التكاثر الأساسي للڤيروس. بادئ ذي بدء، قد يؤدي هذا إلى «تسطيح منحنى» التفشي، مما يقلل من الدرجة التي تصبح فيها الخدمة الصحية غارقة في التعامل مع الحالات الخطيرة، خصوصًا مع استمرار التأثير على مدى عدة أشهر. ثانيًا: يمكن أن تنخفض ذروة تفشي المرض في الصيف، عندما تقل فرص تزامنه مع ذروة الإنفلونزا الموسمية.

ثالثًا: قد يستغرق الأمر وقتًا أطول حتى يتم تطوير لقاح؛ على الرغم من أنه يبدو من غير المحتمل أن يكون اللقاح قيد الإنتاج حتى عام 2021، وذلك في السيناريو الأكثر تفاؤلاً حتى الآن[118]. لذلك يجب أن تكون الأولوية الفورية هي الحد من انتشار كوڤيد- 19، مع الأخذ في الاعتبار حماية الفئات الأكثر ضعفًا.

توصي منظمة الصحة العالمية بإجراء اختبارات واسعة النطاق للكشف عن كوڤيد- 19، وكذلك العزلة الطوعية لأولئك الذين تظهر عليهم الأعراض، ويلي ذلك تتبع المخالطين والحجر الطوعي لأولئك الذين

115- ديليماتر وآخرون، 2019.
116- حتى في السيناريو الأكثر تفاؤلاً، يتنبأ نموذجهم بنحو ربع مليون حالة وفاة، فيرجسون وآخرون، 2020.
117- فيرجسون وآخرون، 2020، ص 16.
118- بوراني، 2020، فيرجسون وآخرون، 2020.

تيدروس أدهانوم غيبريسوس
مدير منظمة الصحة العالمية

كانوا على اتصال وثيق بهم. كل هذه الخطوات ينبغي تدعيمها بـ«التباعد الاجتماعي». الذي يعني تغييرات في السلوك؛ كالوقوف على بعد أكثر من مترين من أي شخص، وتجنب المصافحة وغيرها من أشكال الاتصال الجسدي.. إلخ. وهذا يعني أيضًا تجنب تجمع الناس على مقربة من بعضهم البعض. هذه الإجراءات مهمة للغاية في حالةكوڤيد- 19، لأن الڤيروس يمكن أن يصيب شخصًا دون أن تظهر عليه أي أعراض.

السؤال هو؛ ما أفضل السبل لتحقيق ذلك في المجتمع الرأسمالي؟ والجواب يعني تطوير استجابة قائمة على الطبقية، بديلاً للنهج المتهاون، أو التخطيط الفوقي التي اعتمدتها الحكومات حتى الآن.

الأثرياء لا يجدون صعوبة كبيرة في عزل أنفسهم. يمكنهم ببساطة الفرار إلى المخابئ أو أماكن العطلات في طائراتهم الخاصة، وغالبًا مع أطبائهم الخاصين.[119]

أما بالنسبة للطبقة العاملة، فالأمور أكثر صعوبة. إن أهم نقاط تركيز الناس في معظم المجتمعات الرأسمالية هي أماكن العمل؛ إذ يوجد نحو 90 بالمائة من الموظفين البريطانيين في أماكن عمل تحتوي 10 أشخاص أو أكثر، ونصفهم تقريبًا في أماكن عمل تحتوي 100 شخص أو أكثر[120]. لذلك، من غير المعقول المطالبة بتنفيذ التباعد الاجتماعي دون التفكير في إغلاق أماكن العمل. بطبيعة الحال، هناك بعض أماكن العمل الضرورية للتعامل مع الوباء؛كالمستشفيات على سبيل المثال، ولكن يمكن أن يمتد هذا إلى توليد الطاقة وإمدادات الغذاء وإنتاج المعدات الطبية التي تشتد الحاجة إليها. وهنا يجب تحويل أماكن العمل إلى الإنتاج الأساسي أو إغلاقها تمامًا. وإذ دعت الحاجة إلى مواصلة العمل، يجب تعقيم أماكن

119- نيت، 2020، راو، 2020.
120- بيانات WERS، 2011.

العمل بانتظام، والعمل في ظروف تضمن حماية صحة الأشخاص، بما في ذلك السماح للمصابين بالعزل الذاتي. كما يجب فرض رقابة على الأسعار لمنع بعض أصحاب الأعمال من التربح على حساب صحة الناس.

ومع ذلك لا يمكن اتخاذ تدابير عزل شاملة، إذ لا يزال هناك إكراه اقتصادي على العمل. ويجب ضمان دخل للناس طوال فترة الوباء. في ميزانيتها الأخيرة، سمحت الحكومة البريطانية بالإجازات المرضية مدفوعة الأجر للموظفين المتأثرين بكوفيد- 19، ولكنها حُدِّدت حاليًا بنحو خمس متوسط الدخل الأسبوعي. وبالنسبة لعدد كبير من العمال أصحاب الدخل والواحد فقد أصبحوا في موقف صعب، علاوة على ذلك، فإن العديد ممن يعملون أعمالاً حرة «مزيفة» -كسائقي أوبر أو عمال خدمة توصيل الطلبا ت للمنازل Deliveroo، لكن الفئة تشمل أعدادًا أكبر بكثير؛ إذ تشمل عمال البناء والمقاولين- لا يحق لهم الحصول على إجازات مرضية مدفوعة الأجر. لقد تُركوا لمحاولة تحصيل نسبة ضئيلة من المزايا حتى وإن كانوا مؤهلين للحصول عليها. يستتبع إغلاق المدارس أيضًا أعدادًا كبيرة من الأشخاص الذين لا يستطيعون العمل بسبب مسؤوليات الرعاية.

السبب الرئيسي وراء تخلف الحكومة البريطانية عن معظم الدول الأوروبية في إغلاق المدارس هو أن مستشاريها أخبروها أن إغلاق المدارس لمدة أربعة أسابيع سيقلل الناتج المحلي الإجمالي بنسبة 3 في المئة[121]. لذا فعلى اليسار أن يطرح فكرة حصول الوالدين على أجر كامل إذا أجبروا على البقاء في المنزل لرعاية الأطفال.

لا يجب السعي لتحقيق هذه المطالب باسم «مصلحة وطنية» وهمية، ولكن لمصلحة الطبقة العاملة، حتى لو كانت تعرض النمو الاقتصادي أو جني الأرباح للخطر. ولأنهم معادون لمصالح الطبقة الرأسمالية، فقد يحتاجون إلى السعي من خلال العمل الجماعي. وتوجد حاليًا بوادر جيدة في أقسام الطبقة العاملة.

خرج عمال رويال ميل Royal Mail في لندن في منتصف مارس للمطالبة بمطهرات اليد والقفازات لحمايتهم من الڤيروس. ونظَّم العمال في جلاسكو اعتصامًا إذ لم توفر لهم مطهرات اليدين أو الماء الساخن. كما أضرب عمال النظافة الذين يعملون في القطاع الخاص في مستشفى لندن بسبب عدم دفع الأجور، موضحين غباء إهمال النظافة في المستشفى في تلك المرحلة.

121- أدامز، 2020.

كما قامت العديد من الجامعات، تحت ضغط من أعضاء النقابات العائدين من إضرابهم الأخير، بنقل مطالبها عبر الإنترنت[122]. وهكذا لا يجب أن تشهد هذه الأزمة تعليقًا للصراع الطبقي، بل تصعيده. خصوصًا وأنه مع تزايد إغلاق أماكن العمل وعزل الناس أنفسهم، يتزايد التحدي المتمثل في رعاية الفئات التي تحتاج إلى رعاية. كان أحد الجوانب المشجعة للأزمة إنشاء مجموعات «المساعدة المتبادلة»، والتي كانت منظمة إلى حد كبير عبر فيسبوك Facebook أو واتس آب WhatsApp. تعرف مجموعتي المحلية نفسها بالتالي:

في أوقات الأزمات، نحتاج إلى بعضنا البعض.. سيكون تبادل المساعدة ضروريًّا للكثيرين، ولكن الأهم من ذلك كله، للفئات التي تحتاج إلى الرعاية في مجتمعنا. سنسعى إلى مساعدة الناس في الوصول إلى الطعام، والحصول على الأدوية، بالإضافة إلى مهام أخرى، خصوصًا بالنسبة للمسنين والمعوقين و/ أو الذين يعانون من ضعف المناعة. لن يتم التسامح مع أي تهاون.. ينبغي أن نُظهر أن مدينة ليستر متضامنة في مواجهة الشدائد.

وكذلك يطرح والاس وجهة نظره «إن الحجر الصحي الذاتي، مع الدعم المناسب، ومراقبة الأمور من قبل ألوية الحي المدربة، وشاحنات إمدادات الغذاء التي تنتقل من باب إلى باب، والإعفاء من العمل والتأمين ضد البطالة، كل هذه خطوات يمكنها أن تذكي روح التعاون»[123] بالنسبة للاشتراكيين الذين أغلقت أماكن عملهم، يصبح التحول من النشاط القائم في أماكن العمل إلى العمل من خلال الهيئات الخاصة بالأحياء أمرًا مهمًا. إذ يمكن لهذه الهيئات التنسيق مع العاملين في مجال الرعاية الصحية والنقابات والمنظمات المجتمعية للمساعدة في تطوير استجابة حقيقية للطبقة العاملة في مواجهة الأزمة. ومن أجل توفير الموارد لها بشكل صحيح، يمكنهم طلب التمويل من الحكومة المحلية أو الوطنية.

لا يجب أن يقتصر النشاط في مجتمعات الطبقة العاملة على وظائف الرعاية الأساسية والدعم. كما أن هناك مشكلة حادة بشكل خاص حول الإسكان. ومثلما أشار إنجلز في القرن التاسع عشر، فإن المنازل المزدحمة تنشر الأمراض. ومن المؤكد أن هذا هو الوقت المناسب للدفع من أجل الاستحواذ على المخزون الضخم من المنازل الفارغة في مدن مثل لندن لصالح الملكية العامة،

122- سوشياليست وركر، 2020.
123- والاس، 2020.

خصصت الحكومة المصرية منحة 500 جنيه للعمالة غير المنتظمة عقب أزمة كورونا

خصوصًا وأنها منازل مغلقة من أجل الاستثمار[124]. ومن ثَم يمكن استخدامها لإيواء المشردين، أو كأماكن للحجر الصحي.

يكشف الوباء أيضًا الحالة الخطيرة للخدمة الصحية الوطنية (NHS) بعد عقد من التقشف وعقود عديدة من الخصخصة والتسويق. تمتلك بريطانيا عددًا قليلاً من الأسرة العناية المركزة؛ أي 2.8 سرير لكل ألف شخص، مقارنة بكوريا الجنوبية التي تملك 11.5 سريرًا، وألمانيا التي تملك 8.3 سريرًا، وإيطاليا التي تملك 3.4 سريرًا وربما أقل. على المدى القصير، يمكن أن يؤدي استغلال المستشفيات الخاصة، على النحو الذي اقترحته نقابة GMB، إلى تخفيف الضغط نسبيًّا[125]. كما يجب أن يصاحب هذا برنامج ضخم للاستثمار في الرعاية الصحية. تتطلب الاستجابة الفعالة للأزمة تعبئة الموارد والشعوب على حد سواء، إذ يتطلب تتبع المخالطين والتعقيم، وكذلك النشاط الأساسي وهو رعاية المرضى، عمالة مكثفة. خلال تفشي السارس في تورنتو، والذي لم يكن يشبه كوفيد- 19 على أي معيار انتشر الفيروس من شخص إلى آخر في المناطق المكتظة بالمستشفيات، بسبب نقص المرافق التي يمكن فيها عزل الناس علاوة على نقص الموظفين بسبب تخفيض ميزانيات الصحة[126]. ويجب الانتباه أيضًا إلى حماية العمال في هذه المناطق، الذين عانوا نسبة بالغة من الإصابات في إيطاليا بسبب عدم كفاية أو معدات الحماية الواقية[127].

يحتاج موظفو الرعاية الصحية والاجتماعية أيضًا إلى الوصول إلى تتبع المخالطين وفحصهم للتأكد من أنهم لا ينشرون الفيروس بين المرضى والسكان.

كما يجب تحويل موارد شركات الأدوية، إلى جانب مختبرات الجامعات، لخدمة أبحاث اللقاحات والعلاجات المحتملة الأخرى؛ ويجب أن يتم ذلك بشفافية كاملة ومساءلة عمومية، وأن تُخلص اللقاحات من وطأة الملكية الفكرية التي تعطل إنتاج اللقاحات والاستفادة بها[128]. لذا يجب إنتاج أي لقاح على نطاق واسع، وإتاحته بتكلفة الإنتاج، وتداوله بحرية في نصف الكرة الجنوبي.

بشكل أعم، ومع تطور الأزمة المزدوجة؛ كوفيد- 19 والانكماش الاقتصادي، من المحتمل جدًّا أن تُجبر الحكومات، على مضض، على إنقاذ قطاعات من الاقتصاد. وهنا يجب على اليسار أن يضغط من أجل القيام بذلك إلى أقصى حد ممكن، بالترافق مع السيطرة الديموقراطية من قبل العمال، بدلاً من العمل وفقًا لإملاءات الدولة الرأسمالية، التي كشفت عن القيود التي يضعها النظام الرأسمالي على تنظيم الإنتاج.

وبقدر ما إن الرأسمالية مولدة للأوبئة وغير قادرة على الاستجابة لها بشكل كافٍ، بقدر ما هي غير

124- تشير تقديرات إلى أن المنازل التي تركت فارغة مغلقة لفترة طويلة يصل عددها إلى 216000 منزل في إنجلترا، كوليوي، 2019.
125- GMB، 2020.
126-علي، وكيل، 2006، ص 51. دايفز،2006، ص ص 76، 77.
127- أودون، 2020.
128- بوراني، 2020.

قادرة على تلبية الاحتياجات الأخرى لسكان الكوكب الذي يبلغ عددهم 7.5 مليار نسمة. وقد تكتسب الطروحات بشأن اقتصاد مخطط مستدام، تحت سيطرة ديمقراطية، وطروحات بالتحول الاشتراكي، جمهورًا أكبر مع تعمق الأزمة.

وأخيرًا، هناك حاجة للدفاع عن كباش الفداء ضد موجة العنصرية التي انتشرت بعد الأزمة. فهناك تاريخ طويل من تصوير الأوبئة باعتبارها من صنع «الغرباء الأجانب». وقد عانى الشعب اليهودي من المذابح بعد اتهامه بنشر الطاعون الدبلي في القرن الرابع عشر. وفي الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر، كان يُنظر إلى المهاجرين الإيرلنديين باعتبارهم حاملين للكوليرا، في حين كان يُنظر إلى السل باعتباره «مرضًا يهوديًّا».

كان الإيطاليون في القرن العشرين كبش فداء لانتشار شلل الأطفال[129]. وقد جرى العرف أن تُسمى الأمراض نسبة إلى أصلها المفترض؛ على سبيل المثال الإنفلونزا «الإسبانية»، أو «الروسية»، أو «الهونج كونجية»، أو «المكسيكية». وغالبًا ما ارتبطت التصورات عن «الغرباء الذين يجلبون الأمراض» بالتنافس بين الإمبرياليات. والوباء الحالي ليس استثناءً؛ فهو مرتبط بالاشتباك المستمر بين الصين والولايات المتحدة. لذلك يُطلق ترامب على الڤيروس المسبب لكوڤيد- 19 الڤيروس «الأجنبي» أو «الصيني»[130]. وقد أثار ارتباط كوڤيد- 19 بالشعب الصيني موجة من الهجمات العنصرية في بريطانيا والولايات المتحدة وأماكن أخرى، وتحمل عبئها الأكبر الطلاب الصينيون الذين ساعدت الرسوم الدراسية الباهظة التي يدفعونها على إبقاء نظام التعليم البريطاني واقفًا على قدميه.

لذا يجب على أي استجابة اشتراكية متماسكة أن تواجه محاولات التمييز العنصري المصاحبة لتفشي المرض، بخلق كبش فداء من بين مجتمعات المهاجرين، ومقاومة إغلاق الحدود، وهو ما لن يفعل الكثير لإبطاء انتشار الڤيروس، خصوصًا بعد أن فات الأوان، وانتشر بالفعل في معظم المجتمعات.

129- كارترايت وبيديس، 2004، ص 29. شيرمان، 2007، ص ص 111-112. كروات، 2010، ص 125.

130- زيمر، 2020، كيو، 2020. يبدو أن بعض المسؤولين الصينيين ردوا بالادعاء بأن الوباء سببه الجيش الأمريكي. مايرز، 2020. وكذلك فعل فيكتور أوربان، الزعيم اليميني الراديكالي المجري، عندما ألقى باللوم على المهاجرين الإيرانيين في نشر كوفيد- 19.

خاتمة

تشكِّل الإجراءات المقترحة هنا الخطوط العريضة للمطالب الفورية التي قد يتخذها اليسار استجابة لوباءكوڤيد- 19. الذي للأسف،لن يكون الوباء الأخير الذي يهدد حياتنا، بل قد لا يكون حتى الأكثر فتكًا. نحن موجودون في عالم مؤهل لانتشار مثل هذه الأمراض، سواء نشأت في أسواق رطبة في ووهان، أو في مزارع الخنازير الصناعية في أوروبا، أو مصانع الدجاج في الولايات المتحدة.

لذلك، إلى جانب هذه المطالب الفورية، هناك حاجة إلى استجواب أعمق للنظام الذي يولد الأوبئة. كما يقول روب والاس:

يجب إنهاء الأعمال التجارية الزراعية كوسيلة للتكاثر الاجتماعي إلى الأبد، إذا كان ذلك حتى فقط من أجل الصحة العامة. يعتمد الإنتاج الكبير لرأس المال على الممارسات التي تعرض البشرية جمعاء للخطر، مما يساعد في هذه الحالة على تفشي وباء جديد. لذلك يجب أن نطالب بإدارة النظم الغذائية بطريقة تمنع الكائنات الخطيرة المسببة للأمراض من الظهور أساسًا. وهو ما سيتطلب إعادة دمج إنتاج الغذاء مع احتياجات المجتمعات الريفية أولاً. كما سيتطلب ممارسات بيئية زراعية تحمي البيئة والمزارعين الذين يزرعون طعامنا. اختصارًا؛ يجب أن نداوي الصدع الأيضي الذي يفصل بين بيئتنا واقتصاداتنا.. لدينا كوكب علينا الفوز به[131].

ولتحقيق مثل هذا التحول، وليس هذا فقط، بل لتخليص العالم من الانقسام الطبقي والعنصرية والصراع الإمبريالي وتغيرات المناخ الكارثية، يصبح من الواضح أكثر فأكثر أن الانقطاع عن نهج الرأسمالية بأكمله مطلوب. وبشكل بديهي يجب أن يكون خيارنا النهائي بين الاشتراكية أو البربرية الذي شاع في أوساط اليسار لعقود..كوڤيد-19 هو تحذير؛ يخبرنا أن الساعة المناسبة قد حانت.

131- والاس، 2020.

▪ أمينة رشيد: المعلمة بالمثال

شذرات من سيرة شخصية مفتوحة على المجال العام

وليد الخشاب

شخصية

أمينة رشيد وسط مجموعة من طلابها

أمينة رشيد

أمينة رشيد: المعلمة بالمثال

شذرات من سيرة شخصية مفتوحة على المجال العام

وليد الخشاب

أثرت أمينة رشيد في حياتنا الثقافية والأكاديمية بمنجز مهم وغزير لا يسع مقال واحد أن يحيط به، على مدار ما يقرب من نصف قرن من الدراسات والأبحاث والترجمات في مجالات الأدب المقارن ونظرية الأدب والدراسات النسوية الثقافية. لكني آثرت هنا أن أتأمل ومضات من تاريخها كأستاذة ومعلمة وداعمة لشباب الباحثين ولتلاميذها حتى بعد انتهائهم من العمل تحت إشرافها. ومضات شهدتها أو شهدت أمينة تحكي عنها.

(1)

ينطبق على حضور أمينة رشيد مصطلح التعليم «بالمثال» أو «بالقدوة»، أي أنها تُعَلِم من حولها -لا بمحاضرة تلقيها أو مضمون تنقله للسامع- بل بمجرد أن تكون نفسها في النقاش وفي الحوار، أو حتى في الدردشة. وهي بذلك تقدم نموذجًا كاشفًا ومثالاً (يُحتذَى) مؤثرًا على المستوى الفكري السياسي والأخلاقي فيمن انتبه ممن هم حولها. في بدايات القرن الحالي عادت في بعض الدوائر الأكاديمية موجة من الاهتمام بدراسات «المثل» أو «القدوة» أو «المثال» الذي يُحْتَذى، كوسيلة للتفاعل، خارج نماذج التواصل التقليدية بين ناطق ومستمع وبينهما منطوق، وسياق يحيط بالكل. «المثال» فكرة تعود جذورها إلى العصور القديمة والقرون الوسطى، وهي تشبه فكرة الشيخ الذي يلزمه المريد أو المعلم الذي يصاحبه التلميذ فيتعلم من معاشرته، ويكتسب خبرات وإضاءات لا تُنْقَل بالكلام أو الخطاب بالضرورة. أتذكر فيما يلي بعضًا من اللحظات التي انطبعتُ فيها شخصيًا بفاعلية أمينة وهي تُعَلِم بالمثال، لا بإلقاء محاضرة أو بأداء خطاب.

غلاف إحدى طبعات رواية قدر الإنسان

(2)

أقدم ذكرى لي مع أمينة تعود إلى مادة «الأدب المقارن» لطلاب الامتياز، التي دَرَسَتها لي وأنا في السنة الثالثة بليسانس الآداب الفرنسية في منتصف الثمانينيات. كانت تحدثنا عن رواية «قدر الإنسان» (أو حال الإنسان) لأندريه مالرو. شرحت هيكل الرواية السردي في عجالة، واتخذت حالة بطل الرواية المناضل الثوري مثالاً على تيمة الاغتراب بالمعنى الفردي، وربما تعمدت من باب التعفف عن الدعاية لمعسكرها السياسي ألا تستفيض في شرح تاريخ وهوية البطل بوصفه مناضلاً شيوعيًّا. يشعر «كيو» بطل الرواية بالاغتراب عن زوجته وحبيبته، وباغتراب عن نفسه حين صارحته الزوجة بأنها قد ذهبت إلى الفراش مع رجل آخر. فجأة تحول جو الفصل الهادئ، وربما الرتيب، إلى حالة من الحماس والانشغال بالنقاش حول الخيانة، وسريعًا ما أجمعت الطالبات على إدانة خيانة الزوجة لزوجها (إذ كنت الطالب الوحيد في الصف). غامرتُ بالانتصار العلني للقيم الأخلاقية المغايرة، وقلت بحماسة طلاب الليسانس: «لكن الزوجة لم تخنْ زوجها، وإنما ذهبتْ إلى الفراش مع رجل آخر فحسب». فانفجرت زميلاتي في الضحك، بينما ظلت أمينة هادئة لا يرمش لها جفن

هاني شكر الله

ونظرت إليَّ قائلة بصوتها الواثق: «أفهم ما تقوله». كنت وقتها مفتونا بالهموم الشكلية البنيوية في وصف آليات صناعة الأدب من دراسة تقنيات الحكي وبنية الحدث، وكنت مندهشًا من بُعْد دروسها عن هذه الهموم، ومن احتفائها بالنظرية الواقعية والتفاعل بين البنية التحتية للاقتصاد والبنية الفوقية للأدب والفن عند لوكاتش وجولدمان. لكن شعرت للمرة الأولى بتلاقينا على أرضية أخلاق التحرر، وبالأمان الذي تمنحه أمينة لمن يفكر خارج إطار القيم المحافظة السائدة.

كان الراحل هاني شكر الله في دراساته وفي منشوراته على فيس بوك كثيرًا ما يسخر من مفارقة كون اليسار أكبر مدافع عن الليبرالية. لكن التجربة التاريخية المصرية تحديدًا حوَلَت هذا الدور الذي يبدو مفارقًا، إلى وظيفة تاريخية تستعيد راهنيتها على المستوى الإقليمي والكوكبي، لأن شرط حصول اليسار على مساحة من الفضاء العام هو سيادة منطق ليبرالي يسمح لكل الأفكار الجذرية وغيرها باحتلال مكانها دون قمع أو رقابة. إقليميًّا، تعاظم استغلال الأنظمة لليمين المسلم المتطرف منذ السبعينيات، فكان طبيعيًّا أن يجد اليسار نفسه في خندق واحد مع الليبرالية دفاعًا عن القيم العلمانية المشتركة بينهما في مواجهة هذا التهديد. وتضافر هذا الموقف مع اتجاه عالمي تتحالف فيه قطاعات كبيرة من اليسار مع تيارات ليبرالية في الكوكب كله، دفاعًا عن سياسات هوية، تمثل امتدادًا للدفاع عن الفئات الاجتماعية المهمشة تاريخيًّا والتي قد يتجاوز العنف الاجتماعي ضدها نطاق التوترات والصراعات الطبقية. تاريخيًّا بدأ ذلك التلاقي الفكري في منطقة الدفاع عن حقوق النساء، ويجد امتدادًا له في الدفاع عن حقوق المثليين على سبيل المثال.

أمينة رشيد

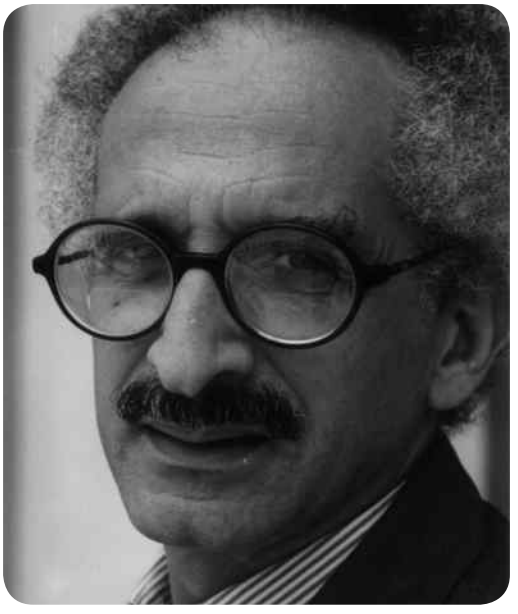

صنع الله إبراهيم

لكن في السياق العربي والمصري تحديدًا، وقع ارتباط تاريخي عميق بين مشروع التحديث والتغريب وبين بعض اتجاهات اليسار. فهناك قطاعات من اليسار المصري تتصور نفسها جزءًا من اليسار، لمجرد كونها في الواقع الجناح الأكثر تعجلاً وجذرية في الرغبة في تحديث المجتمع على نموذج غربي به قدر من الديمقراطية الاجتماعية، وتحكمه تحررية أخلاقية تتجاوز الأخلاق البورجوازية المحافظة، على النحو الذي حلله ماركس منذ «البيان الشيوعي» وكتاب «العائلة المقدسة». ولعل ما ذكره لي المخرج فؤاد التهامي في حديث خاص حول تاريخ الشيوعية العربية ما يؤكد زعمي هذا: «لسنا حزب الطبقة العاملة العربية لأنه لا توجد طبقة عاملة عربية حقيقية. نحن الجناح الأكثر راديكالية في الطبقات البورجوازية العربية».

لا شك في انتماء أمينة لتيارات اليسار المتمسكة براديكاليتها. لكن المثال الذي ذكرته يقودني لملاحظة الترابط القوي بين التحرر الأخلاقي على أساس الفردية، وبين الفكرة الماركسية عن التحرر من ربقة العمل أو سيطرة رأس المال. هذا الترابط يضع أمينة في منطقة وسط بين يسار «قديم»، جذوره في أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين، يركز على إقامة عدالة في علاقات العمل وفي الملكية، ولا يُعْنى بتحدي منظومة القيم الاجتماعية السائدة في العلاقات بين الأفراد، ويسار «هويتي»، استقبل في نهاية القرن العشرين أطروحات تفرد الهوية والحرية الشخصية التي صارت معلمًا أساسيًّا من معالم اليسار في الغرب، وهو يسار يركز على حقوق الأفراد على الصعيد الأخلاقي، لدرجة قد تنسيه الأساس التاريخي الذي تأسست عليه خطابات ونضالات اليسار: تذويب الفروق بين الطبقات وبين الشعوب.

لم تفرض أمينة وصاية ولم تقدم نصيحة. بل كانت تتعامل بتلقائية منطلقة من الأصول السقراطية للجدلية. تسأل سؤالاً ولا تصدر حكمًا على الإجابة. لم تؤكد يومًا على نصحها إياي «بالتزام» معسكر العلمانية. لكن في العام نفسه، دخلتُ مدرجًا تُناقَش فيه رسالة دكتوراة وصادفتها مع أستاذة زميلة لها، فحييتهما بترحاب دون أن أتجاوز مسافة معينة تفصلني عنهما، من باب التأدب. وكنت قد أطلت لحيتي، من باب «التمرد». فسألتي أمينة: «ألا تصافح السيدات»؟ فملكتني منذئذٍ إنسانيًّا. وأجبتها: «بالعكس يا سيدتي. بل وأقبِّلك على وجنتك إن شئتِ».

(3)

في نهاية العام الدراسي الذي تابعت فيه محاضراتها في نظرية الأدب المقارن، دعت أمينة طلاب المادة إلى لقاء مع الروائي صنع الله إبراهيم في منزلها. بعد أن خصصت أمينة حلقة لرواية «اللجنة» في سلسلة محاضراتها وقارنتها بـ«المحاكمة» لكافكا، ارتأتْ أن لقاءً مع مؤلف الرواية نفسه يزيد من الفائدة، لا سيما وأن صنع الله صديق

غلاف إحدى طبعات رواية اللجنة

شخصي لها. لم تزد أمينة عن قولها إنها تدعونا للقاء ولم تشرح النحو الذي يتعاظم عليه فهمنا لروايته. أية متعة أن يلتقي الطالب بالروائي الذي يدرس روايته في الجامعة! لا سيما أن الثمانينيات كانت حقبة تعتيم إعلامي وتهميش ليسار كتاب الستينيات، مثل صنع الله. أسَسَت أمينة في أذهاننا ببساطة مبدأ عدم الفصل بين ممارسة النظرية والممارسة العملية، الذي يُعَبَر عنه باختصار مخل بوصفه التفاعل بين الجامعة والمجتمع، بين الدارس الأكاديمي وموضوع دراسته خارج المدرجات. الأهم من ذلك هو مبدأ المعرفة المغايرة القادمة من التجربة. أن تأكل وجبة خفيفة مع صنع الله وتشرب معه الشاي يمنحك معرفة عن أدبه تغاير ما تحصله من خلال القراءة عنه.

ما الخبرة الأكاديمية التي تمنحها أستاذة لطلبتها حين تقدم لهم محشي ورق العنب وتدور بينهم بكل تلقائية، في منزل بسيط الأثاث، تتحدث ببساطة مع الكل، وكأنهم يشهدون شريحة من حياتها اليومية الحميمة في بيتها، ومع زوجها؟ هذا نموذج قوي لفكرة المثال. بدلاً من الحديث عن الديمقراطية وعن المساواة في التعامل باحترام مع الناس من كل الطبقات والدرجات الوظيفية والأعمار والجنس، تمارس أمينة هذه المثل على نحو مادي لا تكلف فيه ولا فذلكة فكرية. ليس الأكل مجرد قرين نشاط التفكر والتنظير والتفلسف كما قدمه أفلاطون في محاورة «السيمبوزيوم». هو أيضًا صعيد أول لممارسة تذويب الفوارق المجتمعية.

أذكر أني قلت لصنع الله إني أرى فارقًا بين بطل «المحاكمة» لكافكا وبطل «اللجنة»: فيوسف ك في «المحاكمة» سلبي يكتفي بالتأمل ورصد الظلم العبثي الذي يقع عليه، بينما الراوي بضمير الأنا في «اللجنة» فاعل يحاول في حدود إمكاناته أن يبحث في سر العسف الذي يتعرض له وأن يحصل على التقرير المكتوب ضده ليفنده. وحين يفشل في النهاية، يمارس فعلاً إيجابيًّا بمعنى ما، رغم عدميته: فهو يأكل نفسه ولا يكتفي بالامتثال للآلة البيروقراطية البوليسية حتى تبتلعه وهو مسلوب الإرادة. كنتُ أبدي إعجابي بعمل صنع الله، وأثَر في إنصاته إليَّ بكل تواضع واهتمام. وأذكر فنانًا كان حاضرًا اللقاء، تصور أنني أعني أن رواية صنع الله «أفضل» من رواية كافكا لأن البطل العربي فاعل وإيجابي. تعلمت أيضًا يومها أن أمينة تقبل معظم الناس على علاتهم، حتى لو كانوا ستالينيين حرفيين يسمعون كلمة «إيجابي» فيهللون لمجد الواقعية الستالينية.

لفت نظري أن أمينة سألت صنع الله: وما هي أصولك الطبقية؟ تشبه هذه الحميمية ما عرفته في شبابي من بساطة أن يسأل مثقفٌ مثقفًا آخر يتعرف إليه عن مسقط رأسه وطائفته، لا بهدف «التصنيف» بل بهدف التعارف. تبادل أمينة وصنع الله تقديم تحليل سريع للأصول الطبقية لأسرة كل منهما، فتفتح ذهني لبساطة مداخل التحليل الطبقي للثقافة (وتعقد مسالكها).

(4)

اسم أمينة الرسمي أمينة هانم رشيد. حملت الأسرة اسم رشيد وصار لقب العائلة منذ تولى مؤسسها رئاسة مدينة رشيد واستخدامه اسم الميناء عَلَمًا على العائلة، على نحو ما يفعل نبلاء أوروبا: فاسم العائلة النبيلة هو نفسه اسم إقطاعيتها. وحملت هي شخصيًّا اسم أمينة هانم لأنها مثل المئات من سيدات طبقتها الأرستقراطية: يذهب خادم من البيت ليستخرج شهادة ميلادها من مكتب الصحة فيستحي أن يذكر اسمها «أمينة» مجردًا، بل يذكره «أمينة هانم» احترامًا وتبجيلاً. ولعلها عادة العائلات المصرية التي كانت تخترع تقاليد أرستقراطية تتشبه عبرها بالأرستقراطيات الأوروبية، فتصر على إلصاق ألقاب بأسماء أبنائها. لا أحد يستخدم اسم هانم كاسم رسمي ولم تكن أمينة تشير إليه، لكنه كان يطل على الملأ كلما رأسَتْ لجنة مناقشة ماجستير أو دكتوراة، فيكتب المعاون اسمها الرسمي كاملاً على لوحة الإعلان.

أمينة رشيد في شبابها

اسم هانم علامة على التناقضات التي تولدت منها فاعلية أمينة. فهي أرستقراطية في أدبها وهدوئها وحضورها الحاسم، لكنها في غاية البساطة والديموقراطية في كلامها وملابسها ومواقفها. لا تتحدث إلا نادرًا عن جدها إسماعيل باشا صدقي رئيس الوزراء المتسلط الذي أطاح بدستور 1923. وفي الوقت نفسه، تجسد فكرة الوعي والتحرر في قمة تجليها بتمردها على أسرتها الأرستقراطية، وعلى فروع عائلتها النافذة في الحكم في العهد الملكي، وكذلك تمردها على «استغراب» أفراد عائلتها التي ذكرت في أكثر من حوار أنهم كانوا يتحدثون بينهم بالفرنسية ولا يستخدمون العربية إلا لمخاطبة الخدم. مرة أخرى، بالسلوك والمثال، لا بالشرح والتحليل، كانت تبسط مبدأ التحرر الثقافي من هيمنة الطبقات المسيطرة على المجتمع، على سبيل المثال، في إصرارها على «التمصر» بتعلم العربية، لغة البلاد ولسان أبناء الطبقات الشعبية.

(5)

عندما عادت أمينة من فرنسا في نهاية السبعينيات، بعد إتمامها رسالة الدكتوراة التي كتبتها بالفرنسية، صممت على أن تتعلم العربية لتنشر أبحاثها بالفصحى، فتتفاعل عضويًّا مع مجتمعها العربي الناطق بالعربية. وكان هذا السعي مدخلاً إلى الأرضية المشتركة التي تعرفت خلالها على سيد البحراوي مدرس الأدب العربي الشاب آنذاك ورفيق العمر فيما بعد. كان التمصر والتعرب اللغوي والثقافي والسياسي مسألة فكرية وطبقية بالنسبة لأمينة. كانت البلاد لم تزل في عصر التحرر الوطني وبناء الدولة ما بعد الاستعمارية، ولم يكن التحدث بلغة أجنبية علامة على الزعم بتميز اجتماعي وحسب، بل كان كذلك إشارة -في بعض الحالات- إلى قبول منظومة هيمنة ثقافية واقتصادية وسياسية مرتبطة بالإمبريالية الأوروبية.

ومع ذلك لم تكف أمينة يومًا عن التحدث بالفرنسية والنشر بهذه اللغة، ليس فقط من باب التخصص، ولكن لوعيها بأن بعض أفراد القوى الوطنية، بل وبعض أبناء اليسار تحديدًا، يستخدمون الفرنسية إلى جانب العربية لأسباب تاريخية. فهناك قسم من البورجوازية المصرية تحت الاستعمار البريطاني كان يوازن بين أَنَفه الوطني من ثقافة المحتل وبين احتياجه لداعم ثقافي وسياسي من الغرب. فاختار هذا القسم -مثل مصطفى كامل- أن ينخرط في الثقافة الفرنسية. وهناك قسم من اليسار التاريخي كان يفضل الثقافة الفرنسية للأسباب نفسها، بالإضافة لسعيه للارتباط بمُثُل الثورة الفرنسية وقيمها: الحرية، الإخاء، المساواة، مثل هنري كورييل.

أمينة رشيد خلال رحلة لباريس في الستينيات

(6)

لم يدخل موضوع بحثي في الماجيستير في إطار اهتماماتها البحثية أو السياسية. كنت أقارن إنشائية الشكل الروائي السردي بالشكل المسرحي التمثيلي، انطلاقًا من أعمال

أمينة رشيد

أوجين يونسكو. ولم تقترب مراجعي النظرية والأطر الفكرية والمنهجية التي طرقتها من عالمها الفكري، إلا بقدر يسير، فبحثي -على هاجسه المادي-كان تقنيًّا بحتًا ولم يبْدُ للتاريخ فيه مساحة كافية. ومع ذلك دعمتني وشملتني برعايتها الأكاديمية والإنسانية ولم تحاول يومًا أن تثنيني عن توجه شكلاني واحتفاء بميكانيكا الصنعة ولا حاولت أن تدفعني على قراءة مرجع من عندياتها. تركت لي حرية تامة. وربما كانت اللحظة النادرة التي أدركت فيها أني لا أبعد عن تحيزاتها إلا ظاهريًّا هي تلك اللحظة في مكتب القسم حيث سألتني عن قراءاتي في أثناء بحثي، فذكرت لها أني أقرأ كتب آن أوبرسفيلد في علم علامات المسرح (أو سيماء المسرح كما أفضل تسمية السيميولوجيا). أشرت في عجالة إلى بعض القضايا التي تَعْرِض لها أستاذة المسرح بالسوربون، فردت أمينة إن أوبَرسفيلد ممتازة، فأمنتُ على كلامها وأردفتُ: وهي ممعنة في المادية! فقرأت في عينيها الرضا. ليس كل اهتمام بعلم العلامات من باب الوظيفية التي تفرغ العمل من تفاعله مع المجتمع والتاريخ.

(7)

في النصف الثاني من التسعينيات، سافرتُ إلى كندا لإعداد الدكتوراة عن الميلودراما في الأدب والسينما، والتي كنت قد بدأتها تحت إشراف أمينة. ذات صيف، عدت إلى القاهرة وزرتها، فسألتني إن كنا ننوي الاستقرار في كندا أنا ومي. أجبتها أننا لم نحزم رأينا وأننا نركز مجهودنا في إنجاز الدكتوراة. قالت: «ما دام ليست عندكما تطلعات طبقية، عودا إلى القاهرة (حيث يمكن أن تلعبا دورًا مثمرًا في الحياة الثقافية)». ربما كانت المرة الأولى والأخيرة التي تنصحني فيها أمينة، بشكل شبه مباشر. وكانت في هذا متسقة مع المثال الذي قَدَمَتْه في حياتها: ضحت بوظيفتها في المركز القومي للبحث العلمي بفرنسا، والذي كان واحدًا من أهم مراكز البحوث الاجتماعية والإنسانية في العالم، وعادت لتخدم الطلبة المصريين في جامعتها. رفضت أن تتسلم نصيبها في ميراثها عن والديها، بما فيه بيت الزمالك، وأصرت أن تعيش في شقة بسيطة في منازل أعضاء هيئة تدريس جامعة القاهرة. كانت تتسق لغويًّا وثقافيًّا مع المثال الذي ارتضه، وطبقيًّا وسياسيًّا مع قناعاتها الماركسية ونضالها الشيوعي.

لم آخذ بنصيحة أمينة هذه، وقررتُ البقاء في كندا والشروع في بناء حياة جديدة هناك، اجتماعيًّا وأكاديميًّا. ربما أكتب يومًا عن التشابهات بين ظروف الحياة وتضامنيتها في مصر الناصرية في الستينيات وظروف المعيشة في كندا في القرن الحادي والعشرين، مما يجعلني أشعر في كندا بما يشبه العودة إلى أمان طفولتي في مصر. أذكرُ اليوم أن أمينة التزمت بأقصى خيار أخلاقي تتمثله: أن تعيش بين الناس الذين تناضل من أجل تحررهم الوطني والطبقي والثقافي، بينما اخترتُ المساهمة في ممارسة النظرية وإنتاج المعرفة بخصوص الناس الذين أتمنى تحررهم. في العالم «المعولم» كما برز بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، لم تعد مساهمة الفرد في نشاط مجتمع وُلِد فيه، مشروطة بالعيش فيه باستمرار. لم تلمني أمينة يومًا على اختياري، ربما لأنها

أدركت أن هجرتي ليست قطيعة. هكذا فسرتُ ابتسامتَها الصافية كلما قابلتها في زيارتي السنوية وترديدها كل مرة: «كويس إنكم بتيجو».

(8)

تتحدث أمينة بغاية التواضع عن تخصصها في الأدب المقارن فتقول بالفرنسية ما ترجمته حرفيًّا: «لست متخصصة في مجال بعينه بل يدي في كل شيء (أو: ألمس كل شيء)»، بمعنى أنها تقتطف من كل بستان زهرة. الواقع أنها بهذا التواضع تصف موسوعيتها وتعدد مجالات البحث التي تشغلها. ولعل مرجع هذه الموسوعية هو انخراط أمينة في صيرورة مستمرة فكرية وعلمية جعلت مجمل اهتماماتها العلمية مجموعة من الانقطاعات: تأصيل الأثر العربي في المعرفة الأوروبية في العصر الوسيط؛ الاحتفاء بالبنيوية وبمساهمة نظرية اللغويات في التحليل الأدبي؛ الاهتمام بعلم العلامات؛ دراسة روايات الأرض؛ الاهتمام برواية المرأة وبالكتابة النسائية. يبصر المتابع همًّا تحرريًّا معاديًا للاستعمار وللهيمنة الطبقية في كل ما تتطرق إليه أمينة. لكن اللافت للنظر أنها دائمًا ما تجمع بين هاجسين: من ناحية، مواكبة موجات «الجديد» الوارد من الغرب، مثلما في اللحظات العلاماتية والبنيوية في دراساتها، ومن ناحية أخرى، الحرص المستمر على نقد الأيديولوجيا كما ينتجها الأدب أو كما تتجسد فيه، من منطلق مادي تاريخي، بما يعني الزهد في اتباع موضات النقد والنظريات المستحدثة في سوق الفكر الغربي.

طاقة الحياة المستمرة كصيرورة دافقة وتاريخية لم تدمغ فقط حيوية أبحاث أمينة وتجدد مجالاتها. بل كانت المحرك لدعمها للتجديد في مجالات الأبحاث الأدبية والمقارنة على المستوى المؤسسي. هكذا مثلاً دعمت أمينة مشروعات دراسات مقارنة كانت وقتها جديدة على عالم الدراسات الأدبية في مصر، التي اقتصرت حتى نهايات القرن العشرين على مقارنة نصوص أدبية بنصوص أخرى. فإذا بأمينة في نهاية التسعينيات تشرف على دراسات في المقارنة بين الأدب والسينما وبين الأدب والموسيقى، وهي مجالات لم تدخل يومًا في تخصصها، وكانت أقرب للهرطقة في نظر المؤسسات الأكاديمية المصرية آنذاك.

عند أمينة، الأداء الأكاديمي عكس السائد وفي اتجاه التحرر والتجدد دائمًا ما يوازي الأداء السياسي عكس الخطابات المهيمنة والممارسات السائدة تجاه رفع الظلم.

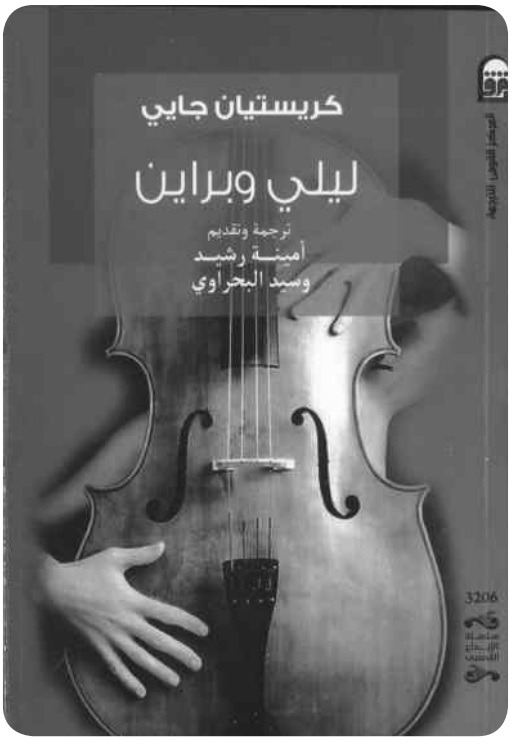

إحدى ترجمات أمينة رشيد وسيد البحراوي

بعد 1967، ذَهَبَتْ للقاء المشرف على رسالتها البروفسير إيتيامبل، وهو واحد من المؤسسين التاريخيين لدراسات الأدب المقارن الأكاديمية في النصف الأول من القرن العشرين. كانت غاضبة من توقيعه على بيان مناصرة لإسرائيل، وقالت له: «أفهم أنك تعتبر إسرائيل بلدًا مُهَددًا بالهجوم عليه، لكن بالنسبة لنا في العالم العربي، نعتبره كيانًا استعماريًّا معتديًا. لا أستطيع أن أعمل معك وأنت تؤيد إسرائيل». ثم تضيف أمينة: «أَنْصَتَ لي وقال أفهمك. ومن يومها لم يوقع على أي بيان يدعم إسرائيل».

(9)

من خلال دوري في لجنة تنظيم مؤتمر الحداثات العربية بجامعة مونتريال الذي عقد في بدايات القرن الحادي والعشرين، دعونا أمينة لإلقاء ورقة. واختارت أن تتحدث عن دور الكاتبات في صناعة الحداثة العربية منذ بدايات القرن العشرين. سألتها سؤالاً عن محورية مفهوم القطيعة (مع الماضي أو التراث) في إنتاج الحداثة. بدأت ببناء سؤالي حول فكرة نيتشه التي كان الفيلسوف الألماني يفهمها بوصفها قتلاً للأب، أي قتلاً للماضي لبناء حداثة منقطعة تمامًا عن قيود ما قبلها، حسب تحليل بول ديمان لنيتشه وإضافته لفكرة قتل الأب عند فرويد التي يفهمها كتعبير جذري عن التحرر من سلطة الماضي وجبروت

ميخائيل جورباتشوف آخر رئيس للاتحاد السوفييتي

الخطابات الأبوية/ الرجعية/ المهيمنة/ المتسلطة. ثم صغت سؤالي لأمينة: «فهل ترين الحداثة بوصفها قتلاً للأب؟ وهل كان لقتل الأب الرمزي دور في تجربتك الشخصية لممارسة التحرر الفردي والاجتماعي من محيطك وأسرتك؟» سكتت أمينة كعادتها لتفكر في الإجابة ثم فاجأتنا بردها: «ربما كان عليَّ أن أفكر في قتل الأم لا قتل الأب، لأن أمي هي التي كانت حاضرة ومسيطرة، وتمردي كان إزاءها، أما أبي فلم أكن أراه كثيرًا ولم يكن منشغلاً بتفاصيل تربيتنا، بل كانت أمي هي التي تتولى مسؤوليات تربيتنا اليومية».

قلبت أمينة بهذا التيار الذي فتحته إجابتها مواضعات الاستشراق الجندرية عن ارتباط الهيمنة والتسلط بالرجل، وأبرزت في اللحظة ذاتها قوتها كسيدة أمومية لا تمثل استثناء وسط سيدات قابلات لدور تابع، بل كحلقة في سلسلة من السيدات الأموميات في الطبقات الأكثر تعلمًا في المجتمع.

(10)

منذ نهايات القرن العشرين، تحول قسم من اليساريين عمومًا، والماركسيين تحديدًا، إلى أطر فكرية وفلسفية وسياسية مغايرة لأدبيات اليسار. منذ ظهرت الحركات الاشتراكية الحديثة في القرن الثامن عشر الأوروبي، والتنقل بين فصائل اليسار المختلفة أمر طبيعي ومعتاد، وأشهر نماذج هذا التنقل هو أن يبدأ المناضل أو المثقف حياته راديكاليًا -شيوعيًا أو لا سلطويًا- ثم ينتهي به الحال اشتراكيًا في حزب اشتراكي لا شيوعي أو في حزب ديمقراطي اجتماعي، على يسار الوسط. أي أن ينتقل من نقطة قصوى في مرحلة الشباب والفورة إلى نقطة أقل راديكالية قد تحفها المواءمات، في مرحلة متقدمة من العمر.

لكن منذ سقوط الاتحاد السوفييتي عام 1991 وقد بدأت موجات عارمة من المراجعات أو التراجعات أو الارتدادات جعلت الآلاف من المناضلين أو من مثقفي اليسار يهجرون ذلك المعسكر حركيًا وفكريًا، وطالت تلك الموجات قسمًا ممن كانوا في دائرتي الماركسية والشيوعية. يحتاج الأمر إلى دراسة مستقلة لتقصي أسباب هذه التراجعات، والتي يشكل بعضها ظاهرة عالمية. ربما كان مفهومًا أن انهيار الاتحاد السوفييتي قد شكك الملايين في وجاهة النظرية التي قامت عليها تلك الإمبراطورية. ربما كان السعي إلى الفاعلية الناجعة هو الدافع الذي صرف البعض عن المنظمات الشيوعية، بل وعن الفكر الماركسي. ربما كان انضمام هذا البعض إلى دائرتي الشيوعية والماركسية بحثًا عن وعاء خطابي/ بلاغي/ أيديولوجي يصوغ فكريًا ولغويًا تغييرًا جذريًا للمجتمع، كما تجسد في المشروع السوفييتي. فلما فشل الاتحاد السوفييتي، تصوروا أن الإطار الفكري الماركسي نفسه معطوب وأن التعبير التنظيمي الشيوعي به خلل.

بعد سقوط الاتحاد السوفييتي في نهاية القرن العشرين، ساد شعور يشبه اليتم بين الآلاف ممن يعتبرون أنفسهم في صفوف اليسار. في العالم العربي تحديدًا، كان هناك اعتماد على الاتحاد السوفييتي كأب رمزي يلعب دور الحامي والناصح والمتسلط أيضًا. واليوم نستطيع أن نرى التوازي بين علاقة البورجوازيات العربية التابعة والغرب المهيمن/ الأب من ناحية، وبين علاقة قطاعات من اليسار الستاليني العربي بالاتحاد السوفييتي: تبعية واحتياج إلى أب. علاقات الهيمنة فرويدية الطابع لا تميز بين رأسمالية واشتراكية بيروقراطية.

وقتها عبرت لأمينة عن صدمتي بسبب اختفاء الاتحاد السوفييتي السريع. فقالت لي عبارة توجز آلاف المنتجات النظرية عن الخبرة والمعرفة والنظرية والممارسة: «الماركسية منهج وليست مجرد مذهب سياسي». اليسار بشكل عام نزوع مستمر نحو التحرر والمساواة، وليست نظامًا يدير مجتمعات العالم وفقًا لآليات ثابتة مبنية على ممارسة التجربة والخطأ في روسيا في النصف الأول من القرن العشرين.

لم تتنازل أمينة عن ماركسيتها ولم تهتز لها شعرة عند انهيار الوطن الأم للاشتراكية (البيروقراطية). ليست هذه صلابة عقيدية، وثقة بوضوح رؤيتها فقط، ولكن يقينًا بالماركسية كمنهج أي كسيرورة دينامية وحيوية. وجاهة المادية التاريخية شاملة في إطار التاريخ العالمي، وليست محدودة جغرافيًّا وسياسيًّا. ربما لهذا كانت أمينة دائمًا ما تبني جسورًا فكرية ونضالية مع أطياف واسعة من القوى التقدمية، دون تحزبات، وخارج الأحزاب والتشكيلات التنظيمية.

(11)

على الرغم من ماديتها البحتة وإخلاصها الشديد لكل القيم الماركسية الصلبة، فإن ماديتها كانت تتضمن بعدًا روحيًّا. مرة جاء ذكر الفكرة الإلهية في أثناء دردشة معها، وروت أنها حاورت ابنها في طفولته حين سألها عن الله وهل هو موجود وما هو. أجابته: «كل واحد حاسس إن جواه حاجة أكبر منه. هي دي ربنا». بمرونتها الفكرية، لم تُقْصِ أمينة رشيد كل الجوانب الروحية عن كلامها مع الأصدقاء والأحباب، مع إيمانها العتيد بالماركسية التي لا شك في أساسها الفكري المادي البحت. ربما كان هذا تطورًا لاهتمامها بفكرة «الإله الخفي» عند لوسيان جولدمان، الذي هو طاقة لامرئية، قد تكون التاريخ، أو مبدأ رأس المال، أو شكلاً ماديًّا لفاعلية يهوا.

(12)

ربما كانت تحررية أمينة الفكرية/ الأخلاقية هي السبب في أن معظم تلاميذها غير ماركسيين، حتى لو كان بعضهم يساريًّا بمعنى أشمل من المعنى الماركسي، أو كان على يسار التوجه القومي. لكن لو تصورناها كمعلم ينقل لتلاميذه معرفة بصنعة الدراسات المقارنة ويدربهم ليصيروا مثلها عمالاً في صناعة المعرفة الثقافية، لأدركنا أمانتها في احترام «أخلاقيات الصنعة»، دون أن تحاول إنتاج نسخ منها شخصيًّا أو بحثيًّا. إعادة إنتاج الماركسية عند أمينة لم تكن قط بأهمية إعادة إنتاج الحياة نفسها بالمعنى المادي والتاريخي والفكري، بل والروحي لمفهوم الحياة.

ذخائر

■ جغرافية الثورة

جمال حمدان

جمال حمدان

ذخائر

جغرافية الثورة

جمال حمدان *

قد يحتاج هذا العنوان على شرح وتفسير، ولكننا لا نشعر بالحاجة للاعتذار عنه، فقد مضت على ثورتنا العربية في مصر إحدى عشرة سنة، تغيرت فيها معالم (اللاندسكيب) الحضاري، إن لم يكن الطبيعي أيضا، وأعيد فيها رسم خريطة مصر الاجتماعية والاقتصادية. وصنعت فيها جغرافيا بشرية كاملة جديدة. كل أولئك بمقياس ضخم جرئ وبسرعة حاسمة اختصرت في عقد ما كان ينتظر عقودًا. وإن لجغرافي الموضوعي المنصف لا يملك إلا أن يعترف، ولا يبالغ إذا يعترف بأنه إزاء ثورة حقيقية من (ثورات البيئات)- وهل الثورة، أي ثورة، إلا اختزال للتطور وتضاغط الزمن؟ هل الثورة إلا علم التغيير الاجتماعي... والطبيعي؟

وثورات البيئات Revoluation of environment تعبير ظهر كعنوان لكتابين يفصل بينهما نحو ربع قرن، وليس أحد منهما لجغرافي وإن كان الجغرافي بهما أجدر. وإنما أولهما لأثري نعرفه في مصر جيدًا، وهو فلندرز بتري، وثانيهما لمهندس مخطط هو جوتكند Gutkind فالأول لم ير-رغم البعد التلسكوبي- في دراما التاريخ المصري الطويل إلا قصة علاقة متغيرة حتى الثورية بين قوى الإنسان الخلاقة وطاقة البيئة الكامنة. والثاني وهو يخطط تخطيط معمار ومساح وبناء وجد أن عمله ليس في النهاية إلا علاقة إرادية عامدة بين الإنسان والطبيعة. لقد التقى الأثري والمهندس -أي النقيضان التاريخ والتكنولوجيا- على أرض جغرافية في الحقيقة، واجتمعا على فكرة إيكولوجية واحدة هي انقلاب البيئة على يد الإنسان.

* المجلة، العدد رقم 88، 1 أبريل 1964

الضباط الأحرار

ونحن الذين نعيش تجربة من أضخم ما عرفت البيئة المصرية في أي وقت من تاريخها نحجم حتى الآن أن نسمي الأشياء بمسمياتها الصحيحة كأنما نتحرج فيما يبدو عما قد يحسبه البعض زجا بالعلم في السياسة ومزجا للشخصية بالموضوعية.

ولكنا نود في هذا المقال أن نبين خطأ وخطر مثل هذه النظرة. فالحقيقة الواقعة هي إننا إزاء ثورة عارمة من ثورات البيئات -بهذا المعنى الذي حددت- وإن علينا أن نحتفل (بجغرافية الثورة) كل هذا الاحتفال وبغير ما تحرج أو مظنة من ابتذال.

وسنرى أن هذا لن يخرج بنا عن دائرة العلم الموضوعية البحث، ولن يشوه جغرافيتنا النظرية بل العكس هو الصحيح تمامًا.

فهذا الاتجاه وحده هو الذي سيخرج بها من جمودها ومن منطقة الظل إلى نور الثقافة الواسعة وإلى أفاق الجمهور العريض، وأكثر منه إلى ميدان العمل القومي البناء بالمعنى التطبيقي. والحقيقة الواقعة أن الجغرافيا التقليدية الكلاسيكية باتت بمعزل -أخشى أنه يتزايد- عن كياننا الفعلي وواقعنا الحي. والحقيقة الواقعة التي لا يجوز أن نماري فيها هي أن التاريخ وهو اكثر من شقيق -توأم- للجغرافيا قد احتل مكانه الفكري في الدفع الثوري بصورة أو بأخرى ونحن نرى اليوم حركة نشطة واسعة النطاق لإعادة كتابة تاريخنا استطاعت أن تشد إليها عقول المثقفين وقلوبهم وتكسب لها رأيًا عامًا. فإذا ما عرفنا أن الثقافة الجغرافية تتساوى على الأقل مع التاريخية في الأهمية، وأنها تنفرد بالقيمة العملية التطبيقية، جاز لنا أن نتساءل: أهو قصور في طبيعة الجغرافيا؟ أم تقصير طارئ من أصحابها؟ ولكن قبل أن نجيب على هذا السؤال يحسن أن نتتبع حركة الخط المنهجي العام في المادة كما يتكشف في الاتجاهات الحديثة والمعاصرة في الخارج ثم نتوقف لنحدد العلاقة بين الجغرافيا والثورة عندنا، وأخيرًا نحلل جغرافية الثورة كما تراكمت وتبلورت في مصر.

الجغرافيا في عالم متطور

منذ بداية القرن الحالي بوجه خاص دخل العالم في مرحلة من التطور والتغير الجذري، فظهرت قوى واتجاهات جديدة أعادت تشكيل وجوده برمته في أجزاء، وهزته حتى النخاع في أجزاء أخرى ولعل أخطر هذه القوى والحركات ما تفجر منذ الحرب الأولى وتواثب منذ الثانية ليصبح كتلة سياسية واقتصادية واجتماعية، ليصبح عالمًا

جمال عبد الناصر

جديدًا له مثله وفلسفته الجديدة -أعني العالم الاشتراكي الذي اتسع ليشمل الآن نحوا من ثلث سكان هذا الكوكب. وثم تغير آخر لا يقل خطورة وليس مستقلًا تمامًا عن سابقه: انهيار الاستعمار وذوبان الامبراطوريات وتحرر المستعمرات حتى تكون منها ما أصبح يعرف (بالعالم الثالث) ويكاد هو أيضا ينتظم ثلث البشرية. وإذا كانت المجموعة الأولى الشيوعية تأخذ بنمط متطرف جامح من الاشتراكية، فإن المجموعة الثانية تجنح بلا استثناء تقريبا إلى اشتراكية معتدلة ولكنها أولا وأساسًا تنبذ التنظيم الرأسمالي للمجتمع الذي ارتبط في أذهانها بالقوى الاستعمارية الطريدة. ومعنى هذا أن الاشتراكية بصورة أو بأخرى تغطي الآن ثلثي مجتمعات العالم، بينما أوشك العالم الرأسمالي أن يصبح مجرد (اسفين) في جسم العالم الاجتماعي.

وفي كل تلك الحالات الجديدة بدأت الدولة تتخذ أسلوبًا جديدًا في مجابهة بيئتها وتنمية مواردها، أسلوبًا لا يترك للأفراد حرية لعبة الإنتاج مع الطبيعة، والتلاعب بمواردها حسب أهوائهم أو مصالحهم أو عجزهم وجهالاتهم.. إلخ. فهذا هو أسلوب الفردية والرأسمالية، ومذهب العشوائية والاعتباطية في مواجهة الطبيعة: (دعه يعمل دعه يمر). أما أسلوب الاشتراكية فهو ينبع من نظرية إيديولوجية محددة، ويشكل مذهبا سياسيًا وعقائديًا مقننًا. إنه أسلوب الضبط والتدخل والتوجيه والتخطيط. والشئ الذي لا جدال فيه هو أن هذا الأسلوب أيا كانت حدوده هو الذي استطاع أن يحقق للدول المتخلفة والجديدة التنمية التي ننشدها والتقدم. بل لقد بدأ يفرض نفسه حتى على المجتمعات الرأسمالية -على الأقل من قبيل الإسعاف وكمصحح لأخطائها التراكمية والدفينة.

والذي يهم الجغرافي في هذا أن يدرك أن المقابلة بين الرأسمالية والاشتراكية ليست مجرد مقابلة بين مذاهب ونظريات سياسية أو اجتماعية مجردة أو حتى من مناهج اقتصادية مطبقة، وإنما هي في صميمها وفي منتهاها مقابلة بين نمطين من الحياة، وبين مركبين من البيئات Envionmental Complex أنهما أساسًا منهجان في الإيكولوجيا البشرية.

إننا نخطئ كثيرًا إن تصورنا أن الاشتراكية قضية تخص علاقة الإنسان بالإنسان فحسب. إنها أولا وأخيرًا تعني علاقة الإنسان بالبيئة. فإذا كانت الرأسمالية تواجه الطبيعة كأفراد شتى مبعثرين متعثرين بين المصالح والانتهازية والأطماع، فإن الاشتراكية تجابه البيئة كتلة واحدة صلبة كمجتمع تراص، ولهذا تنتهي الرأسمالية في الحقيقة -وللغرابة- إلى نوع من القدرية والحتمية هو بعينه ما نعرفه كجغرافيين باسم الحتم الجغرافي. فظروف المجتمعات المختلفة الاقتصادية والاجتماعية هي في نظر

الرأسمالية النتيجة الطبيعية -والحتمية- لظروف البيئة الطبيعية التي تعيش فيها؛ البيئة سبب والمجتمع نتيجة. أما الاشتراكية فعلى النقيض تؤمن بما يسميه اقتصاديوها بالحتم الاقتصادي وما قد نسميه كجغرافيين بالحتم البشري. وهو على أية حال قدرة الإنسان على التغلب على تحديات الطبيعة وفرض إرادته عليها. أي أنها ترى شكل البيئة نتيجة لشكل المجتمع وليس العكس، هنا الإنسان فاعل والطبيعة مفعول به وربما اعتبرنا مدارس (الحرية) في الجغرافيا لونًا مخففًا بدرجة أو بأخرى من هذا الحتم البشري أو الاقتصادي: هناك كانت مدرسة الإمكانية possibilism وأقوى منها جاءت الاحتمالية، وأقوى من الاثنتين ظهرت الضرورية. وعلى أية حال فليس ها هنا مجال المفاضلة بين المنهجين أو المقارنة، وإنما يعنينا أن لكل منهما انعكاساته المباشرة والنهائية على شكل اللاند سكيب الحضاري ووجه الإقليم الطبيعي. وإنما يعنينا أن النتائج مختلفة اختلافا جذريًا. وإنما يعنينا -باختصار- أن العقيدة السياسية والمذهب الإيديولوجي أصبح الآن يترجم إلى خريطة جغرافية ولاندسكيب حضاري: يعني أنها قد أصبحت (عوامل جغرافية) كبرى. وإذا كان موريس لي La Lannou قد اعلن منذ سنوات أن الدولة اليوم هي أقوى عامل جغرافي مطلق، فإننا نستطيع الآن أن نوضح أنها أصبحت كذلك باعتبارها تجسيما وأداة لإيديولجية مذهبية معينة ونظرية عقائدية بعينها. وتصبح لدينا هذه المتتالية التي تترى كحلقات السلسلة الإيديولوجيا: الدولة: التخطيط: اللاندسكيب.

ذلك إذن وعلى المستوى العلمي الأكاديمي البحت، تحد منهجي خطير للعلم الجغرافي، وبالتحديد للعلم الجغرافي الغربي، فلقد واجه الجغرافيون السوفيت هذا الموقف من قبل منذ نحو نصف قرن الآن، وطوروا أساليبهم ومناهجهم بما يوائمه. فكانت (جغرافية الثورة) التي تتصدى لدراسة التغيرات الفجائية والحاسمة التي يفرضها التخطيط المحتشد على صفحة الإقليم، والتي تنظر إلى اللاندسكيب الراهن كلقطة في فيلم متحرك، وتعتبر المستقبل بقدر ما تحلل الحاضر. فلم تعد الجغرافيا علم الأرض أو وصف أشكال الأرض، وإنما علم إعادة تشكيل الأرض. ومن الأولويات الآن في جغرافية الاتحاد السوفيتي عكس انحدار واتجاه نهر أو أنهار لتصب جنوبًا بدل الشمال (الأوب مثلًا) أو إزالة جبل كلية عن طريق خط حديدي أو تحويل مسار تيار بحري (كذا) لإعادة توزيع الحرارة وإذابة الجليد وذلك بغلق مضيق أو وصل جزر.. إلخ (مضيق بهرنج وتيار كيروسيفو مثلا) ولهذا وبهذا أصبحت الجغرافيا علم هندسة وجه الأرض، وعملية جراحية ضخمة لصفحة الإقليم! وبديهي في هذا كله أن النظرة النفعية -التطبيقية- أصبحت هي الأساس: الجغرافيا للحياة والجغرافيا للمجتمع. ومن هذه الفلسفة الجديدة نبعت أفكار وطورت قوانين ومبادئ للعلم الإقليمي. والنتيجة النهائية بإيجاز أن أصبح هناك جسم جديد مختلف من الجغرافيا هو ما يسميه الجغرافيون في الغرب (بالجغرافيا السوفيتية أو الجغرافيا الاشتراكية Socialist Geog.

أما في الغرب فقد حدثت تطورات هامة أيضا نحو التوجيه التطبيقي وجغرافية التخطيط وجغرافية التنمية، فرضتها على الأقل الضرورة القاسية كأثر الحرب الأخير التدميري. ولكن الفكر الجغرافي المعاصر هناك يمر في أزمة وصراع داخلي. فبعض من شيوخ المادة نظر نظرة عدم اكتراث وإهمال إن لم يكن معارضة وعداء للاتجاهات الحديثة. ولكن الجغرافيين الشبان استجابوا لهذا التحدي بالتطور واستكمال التكنيك والمهارات الجديدة اللازمة له. وذلك رغم ما وجه إليهم من اتهامات (بالهرطقة) من هؤلاء المجددين يمكن أن تذكر أسماء مثل جان جوتمان، ميشيل فيليبونو، جان لاباس، كيث بيوكنان، بينما يوصف بيرر جورج بأنه (جغرافي ماركسي). فهؤلاء أدركوا عقم هذا الجمود الذي تتشبث به ما يصفه المعسكر الآخر (بالجغرافيا البرجوازية)، وأعلنوا أنه لا يمكن أن تجابه جغرافيا الثورة إلا بثورة الجغرافيا. ومن ثم تصدوا لتطوير مناهجهم وطرائقهم وتوسيع آفاق بصيرتهم وتبني موقف واقعي في عالم يتجه بدرجة أو بأخرى إلى قدر من اشتراكية. فهم يجدون أن جغرافية الوصف والتعليل لم تعد كافية بمجابهة مواقف يصنع فيها اللاندسكيب صناعة وبدعم بشري، ويجدون أن جغرافية تستهدف (التعرف على، وتحديد وتفسير أنماط الأرض) أو دراسة (التباين الأرضي) لا تكفي لاستيعاب طفرات التخطيط الشامل. قد تصلح هذه المناهج وهذا التكنيك لوصف مواقف استاتيكية أو بطيئة التغير كالمجتمعات الزراعية التقليدية أو تتطور على مقياس فردي كالمجتمعات الرأسمالية. ولكن الانطواء على هذه الميادين التقليدية لن ينتج إلا عملية اجترار أو على الأحسن خض للمادة البالية المستهلكة. إنما المطلوب جغرافيا ديناميكية طافرة لا تبتلي قبل أن تكتب كما هو حال الجغرافيا التقليدية. والواقع أنهم لا يغالون حين يحتجون بأن كثيرًا جدًا من جغرافيتنا التقليدية هي في الحقيقة (جغرافيا تاريخية) بمعنى خاص.

ويحدد بيوكنان نقط ضعف الجغرافيا التقليدية في اثنتين أساسيتين: عقدة الوصف التي تجنح بها إلى النظرة التاريخية لا المستقبلية، وإلى الجغرافيا الاستاتيكية لا الديناميكية، أما العقدة الثانية فهي عقدة التخوف من الدخول في المناقشات السياسية أو الإيديولجية التي تتركها عاجزة -منطقيًا- عن فهم أو دراسة لاندسكيب تتحكم فيه هذه المذاهب والعقائد. والحل بالنسبة لعقدة الوصف أن نعني لا بالوضع الراهن فحسب وإنما بالهدف الموضوع أي الخطة المرسومة، فخطة التنمية هي ببساطة خريطة المستقبل. والحل بالنسبة لعقدة الإيديولوجيا منهجي وحاسم: إذا كان لابد لفهمنا لجغرافيا التضاريس والمناخ من أن يستقر على دراية كافية بالجيولوجيا والطبيعة..إلخ، فلابد لفهمنا للجغرافيا البشرية من أن يستقر على دراسة مماثلة بتلك العلوم التي تتصدى لهذه الأفكار الإيديولجية والمذاهب السياسية والعقائدية مثل الاقتصاد، واقتصاد التنمية، والاجتماع، والعلوم السياسية.. إلخ.

والذي نراه أن هذا التطور والتقارب آت لاريب فيه. ويمكن للمدرسة العربية في الجغرافيا وقد كانت دائما مفتوحة الأفق والنوافذ على كل الآراء والتيارات الصحية، أن تستفيد من هذا الجديد وذاك القديم محققة بذلك (حيادًا إيجابيًا) في العلم أيضًا! بل إن التناقض البادي بين الجغرافيا التقليدية والجديدة شكلي عارض. فالجغرافيا أصلا لا تهمل ولم تهمل البعد الزماني، ويستوي حينئذ أن يكون هذا البعد إلى الوراء أو إلى الأمام. أي أن الجغرافيا الديناميكية وجغرافية التطور والمستقبل ليست بدعا في الفلسفة الجغرافية المقررة. ثم أن الجغرافيا تستمد تعليل أنماطها من القوى والعمليات التي ترتبط بها وتدخل في اختصاص العلوم الأصولية المختلفة. وما دام هذا المبدأ مقررًا، فيستوي حينئذ أن تكون هذه القوى والعمليات مستمدة من العلم الطبيعي أو العلم السياسي. ولهذا فليس الضغط على الإيديولوجيا والسياسة، ما دام دورها في السببية الجغرافية قد زاد مع تطورات الحياة الحديثة والجديدة، بضلالة مستحدثة على جوهر المنهج الجغرافي، وإذا كان جغرافي كبير مثل فان فالكنبرج قد وجد منذ نحو ربع قرن حرجًا في أن يضمن كتابًا له عن الجغرافيا السياسية فصلا بعنوان الحكومة، وشعر بالحاجة إلى الاعتذار عنه، فربما صح اليوم أن يقال أولى بهذا الاعتذار لو كان عن عدم التوسع فيه التوسع الكافي.

أما الاتجاه التطبيقي فكامن في جرثومة الجغرافيا القديمة منذ كانت تصطنع (وتتعاطى)- ضمن أشياء أخرى لأغراض الحكم والإدارة ومصالح الدولة. ولهذا فليست جغرافيا التخطيط في حقيقتها إلا تكبيرًا وتنهيجًا لجانب أصيل وقديم في الجغرافيا.

ولهذا صح ما يقرره فالكنبرج في ثلاثية بليغة جامعة من أن تاريخ الجغرافيا كله يتحدد في مراحل ثلاث واضحة: الوصف (جغرافية الرؤوس والخلجان القديمة)، التعليل (مبدأ السببية عند همبولت وريتر في القرن الماضي)، وأخيرا التخطيط (الجغرافيا التطبيقية المعاصرة) وأن قليلًا من التفكير يكشف لنا أن هذه المراحل تقابل مباشرة مراحل تطور المعرفة عند الإنسان عامة. فحين كانت تحبو في أولها كانت قصاراها أن تعرف ما قد حدث وما هو قائم فكانت المعرفة شبه أدبية أو فلسفية، ثم مع توسع المعرفة حاولت أن تعلل وتفسر ما تراه بالقوانين فكان العلم، ومن القوانين قفزت إلى التنبؤ بما سيكون فكان التخطيط. فالتخطيط هو إذن ببساطة صناعة المستقبل، وجغرافية التخطيط هي لذلك جغرافية المستقبل. والتخطيط بذلك هو أعلى مراحل العلم.

الجغرافيا والثورة في مصر

لسنا إذن -مرة ثانية- بحاجة إلى اعتذار عن هذا العنوان. وإنما علينا بلا تردد أو خوف أن نلقي بكل قوانا في الميدان لنكتب جغرافية الثورة العربية في مصر قبل أن تصبح كتابتنا عنها جزءًا من الجغرافيا التاريخية. إن الفارق بين الانقلاب والثورة أن للأول تاريخًا ولكن ليس له جغرافيا. وللثانية جغرافيا تحيا بعد أن ينتهي تاريخها.

ولقد انتقل المجتمع المصري بالقطع من إطار اقطاعي - رأسمالي إلى إطار اشتراكي. وأصبحنا إزاء جغرافيا اشتراكية لا شك فيها. فكيف نعالجها؟ وما دورنا فيها؟ هل سنلهث وراء الأحداث والمشروعات بعد أن يتم البناء لنؤرخ له جغرافيا؟ أهو دور السجل الجغرافي دورنا إذن؟ أم -خيرًا من ذلك قليلًا- دور المسح، الحصر الجغرافي الذي يسبق البناء؟ هل سننقد ونعترض وننصح أم سننتهي إلى علم دعائي أو دعاية علمية؟ ما هو مكان أصحاب الثورة وصنعتها في جغرافية الثورة؟ كيف يتسع علم أشياء ومجتمعات لأسماء أشخاص وأفراد؟ كل هذه وغيرها قضايا علينا الآن أن نجيب عليها قبل أن نتقدم لنرسم لوحة جغرافية للثورة.

ما دمنا قد اتجهنا بالجغرافيا إلى المستقبل والعمل التخطيطي، فقد كفت في فلسفتها عن أن تكون علمًا وصافًا فقط وأصبحت إلى جانبه علمًا كشافًا كذلك. ومادمنا أصبحنا لا نبحث عن وصف فحسب وإنما عن وصفه أيضًا، فلم يعد هناك مجال للتساؤل عن حدود البحث الجغرافي في المجال التطبيقي. إن لنا بداهة أن نسجل كل ما يتم في مجال التخطيط والتنمية والبناء، ولنا -بهذه المناسبة- أن نطالب بتسهيل الحصول على كل التقارير والمشروعات والدراسات التي تتراكم في مكاتب الهيئات والمصالح المختلفة حتى تكون بين أيدي الجغرافي فهو من هذه الناحية مؤرخ الثورة العملي الوحيد. وبديهي أن التسجيل هنا يفترض النقد العلمي الكامل، فحتى أقل العلوم الوصفية طموحًا لا يمكن أن يكون علمًا بغير تقييم وتقدير لظاهراته. ولذلك فللجغرافي أن يطرح رأيه كاملًا في كل جوانب الجغرافيا ويحدد الأخطاء، إن رآها ويحللها، وينقد المشروعات والأعمال، وليس عمله أن يرسم صورة إقليمية للجوانب تاركًا السوالب والمثالب. ولكن هذا كله ليس إلا أضعف الإيمان. فهناك ما هو أخطر وأوجب على الجغرافي. ولقد يرى البعض بعد هذا أن يقوم بالمسح التفصيلي الذي يسبق الخطة على أن تترك الخطة للمخطط. ولا جدال في أن المسح للجغرافي. ولكن إذا كان المقصود إقصاءه عن وضع الخطة فهذا رأي مرفوض بلا تحفظ. فليس ثمة ما يمنع نظريا أو واقعيًا من أن يكون الجغرافي مخططًا. والتخطيط مفتوح لكل صاحب تخصص.

أما كيف يعرض الجغرافي للأفراد صناع الثورة علم أشياء لا إنسان ومجتمعات لا أفراد، فهذا سؤال لم يعد أيضًا بمشكلة، إن دور الفرد البطل في التاريخ يقدم لنا الحل، فلم يعد التاريخ -رغم كارليل- من صنع الأفراد أو الأبطال، ولكنهم لا شك يؤثرون فيه وهم من أدواته. وبالمثل في الجغرافيا البشرية، نحن ندرس الإنسان بوصفه معًا عنصرًا في البيئة وعاملًا جغرافيا. ندرسه كمجتمع لا كفرد أساسًا. ولكن الفرد البطل الذي يحرك مجتمعنا ويؤثر في أمة، يصبح معًا تجسميًا ومستودعا ومحركًا لإرادة وفعالية هذا المجتمع وتلك الأمة. فالفرد البطل لا يؤثر في البيئة الطبيعية كفرد وإنما عن طريق إيحائه وقيادته لمجتمع بأسره. وهو يتحرك ويصدر عن فكرة، وفكرة هو إذن بالتالي والفكرة كما حدد (لوسيان فيفر) منذ مدة عامل جغرافي كامل لا مجال للتقليل من أهميته وخطره، وقد لا نرضى -بل نحن بالقطع لا نرضى- عن محمد علي كأوتوقراطي دخيل ولكنا لا مفر لنا من الاعتراف بأنه هز البيئة الطبيعية لمصر وحولها تحويلًا حين قلب نظام الزراعة من الري الحوضي إلى الدائم. بل لقد تكون الفكرة شريرة كالصهيونية حيث تحول (الحقد) إلى عامل هدم وتعرية. ولكنا لا يمكن أن نتجاهل أنه أصبح عاملا جغرافيا. ونحن من قبل نتكلم عن (فرنسا نابليون) كجغرافيين دون ما خطر من الخروج عن الجغرافيا إلى التاريخ، ونترك للمؤرخ أن يتكلم عن (نابليون فرنسا). ولهذا فليس على الجغرافي جناح أن يتكلم عن مصر الثورة ومصر عبد الناصر، هو سيجد في هذا كفايته دون أن يحتاج إلى الكلام عن الثورة نفسها أو عبد الناصر شخصيا، فهذا مشروع متروك لغيره من مؤرخين وعلماء سياسة.. إلخ. ولكن الذي لا جدال فيه هو أن الثورة وعبد الناصر بما فعلا وأثرا وبما يمثلان من إرادة أمة وقوة مجتمع عوامل جغرافية لا شك فيها وبالمعنى الكامل في الجغرافيا. بل أننا سنجدنا بعد قليل مدفوعين إلى الانتهاء إلى أن عبد الناصر فلتة تاريخية بمثل ما أن مصر نفسها فلتة جغرافية.

على هذه الأسس إذن يمكن أن نقف أمام فلسفة الثورة في البناء لنزنها ونحللها. ولا شك أن التخطيط هو أداة ووسيلة هذا البناء، وتلك هي البداية الصحيحة. كما تمثل فكرة محورية قائدة في فلسفة الميثاق. (إن التخطيط الاشتراكي الكفء هو الطريقة الوحيدة التي تضمن استخدام جميع الموارد الوطنية المادية والطبيعية والبشرية بطريقة عملية وعلمية وإنسانية لتحقق الخير لجموع الشعب وتوفر لهم حياة الرفاهية). ولقد نمت الثورة لنفسها جهازًا تخطيطيًا ضخمًا رائدًا يمكن أن نفخر به وطنيًا. ووضعت خططها خمسية وعشرية، حددت أهدافها ورسمت برامجها ثم تابعت تنفيذها. وواضح أن منطق التخطيط في ذاته تجديد خطير في إيكولوجية مصر، لا سيما أنه تخطيط اشتراكي خلق قطاعًا عامًا يتضاءل بجانب القطاع الخاص في الإمكانيات والقوة، وفي المثل والمبادئ. بمعنى اننا الآن نجابه البيئة الطبيعية كقوة واحدة محشودة مجندة، ولهذا كان طبيعيًا أن تزداد إيجابيتنا إزاءها وتقل نقاط ضعفنا. والانقلابات الثورية في اللاندسكيب الطبيعي والحضاري أبلغ دليل.

ولقد أتت اشتراكيتنا كقضية مزدوجة -بلغة الميثاق، قضية (كفاية وعدل). الكفاية هي زيادة حجم الثروة القومية والدخل القومي بدفع الإنتاج ورفع العائد، وذلك بكل وسائل الترشيد والتحسين والتجديد والتخطيط. أما العدل فهو بلغة -هربرت سبنسر-

عملية (إعادة توزيع) أساسًا -إعادة توزيع في القيم والأولويات، في الملكية والثروة، في الأجور والدخول، في الخدمات والوظائف..إلخ. ولا مراء في أن هذه هي الاشتراكية الرشيدة التي تسير على قدمين. لأن الكفاية وحدها ليست بالضرورة حكرًا على الاشتراكية، فهناك كفاية تسعى إليها الرأسمالية. ولكن العدل وحده هو الذي يميز الاشتراكية. بينما كل هم الرأسمالية ألا تحفل به إن لم يكن أن تتحاشاه. على أن العدل وحده لا يقيم أود الاشتراكية. لأنه بغير الكفاية لا يزيد عن عدالة في الفقر وإعادة توزيع البؤس: اشتراكية العدل وحده بغير الكفاية ليست إلا اشتراكية الكفاف.

وإلى هذا المدى لا يمكن للجغرافي إلا أن يتقبل هذه المبادئ والأسس أحسن القبول. إلا أن النقطة التي نود أن نوضحها هي أن تخطيطنا حتى الآن ضغط دائمًا وبشدة على جانب معين ربما على حساب جانب آخر. إنه نظر إلى المجتمع كطبقات أكثر منه كأقاليم. ونظر إلى الدولة كنقطة واحدة أكثر منها كمناطق متعددة. فهو في غمرة سعيه الطموح إلى الكفاية ركز اهتمامه على زيادة الدخل بكل صورة وبأي صورة. ولذلك ألقى كل ثقله في مجال التخطيط القومي أساسًا والتخطيط الاقتصادي بالذات. ولن ينكر أحد أن التخطيط الاقتصادي هو أساس التخطيط وقلبه، وهو يسبق بالضرورة كل تخطيط آخر. وستظل الصدارة دائما في التخطيط هي للتخطيط الاقتصادي -تخطيط الموارد والإنتاج- لدفع عجلة الإنتاج ودفع المد الخلاق للثروة. ولكن الذي لن ينكره أحد كذلك هو أن بجانب هذا التضخم في التخطيط الاقتصادي ، فإن أنواع التخطيط الأخرى تبدو باهتة حتى الآن وتتراجع على أحسن تقدير إلى المؤخرة. وبعض من عرف التخطيط على أنه تخطيط مهندس أصلا وأساسًا يجد حيرة في أن يرى مفهوم التخطيط قد انتقل إلى الاقتصاد أولا وقبل كل شيء. هذا مع العلم أن (التخطيط الطبيعي Physical Plannig تخطيط الطرق والمواصلات والمباني والمدن القرى). هو على أية حال القطب الآخر بجانب التخطيط الاقتصادي في كل مجالات التخطيط القومي، هو بذلك أسعد حظًا من بقية الفروع الأخرى من التخطيط، أما المجالات الأخرى كالتخطيط الاجتماعي أو تخطيط المجتمع والخدمات والمرافق، فأقرب إلى الظلال ولا نقول الأشباح. وربما احتج بأن هذه الفروع من التخطيط أقرب في طبيعتها إلى الاستهلاك منها إلى الإنتاج، والاشتراكية أولويات وفي البدء يأتي الإنتاج، وفي النهاية يأتي الاستهلاك.

وقد يضاف كذلك أن هذه الفروع بالذات أكثر انسياحًا وتميعًا بذاتها وأصعب مثالًا في التخطيط، وأنها لكذلك بالتأكيد -لكن هذا لا يبرر ضآلة نصيبها في التخطيط. ونحن نستطيع أن نجد عشرات وعشرات من برامج ومشروعات التخطيط الاقتصادي، مدروسة وموقوتة، ونعجز أن نجد برنامجًا واضحًا للتخطيط الطبيعي دع عنك الاجتماعي. والخلاصة أن تخطيطنا يجنح بشدة إلى خط بعينه في التخطيط القومي، حيوي حقًا، لكنه ترك الخطوط الزميلة في دائرة الظل. هذا أول.

أما بعد ذلك فتخطيطنا يرجح بلا ريب كفة التخطيط القومي على كفة التخطيط الإقليمي. فهو في غمرة سعيه النبيل إلى تحقيق العدل نظر إلى المجتمع كطبقات، أو بالأحرى كطبقتين من أرث الإقطاع: الذين يملكون والذين لا يملكون- ونكاد نقول الذين يملكون والذين يملكون... فقام بتحديد الملكية الزراعية وأعاد توزيع الأرض على المعدمين وقام بتأميم أدوات الإنتاج وعمل بوجه عام على تحديد الدخول وتذويب الفروق بين الطبقات والتقريب بينها. وقد جاء محصول الثورة في هذا رائعًا حقًا. ويمكن أن نسمي هذا الجانب من العدل (بالاشتراكية الرأسية) أي التي تتعلق بتراتب الطبقات رأسيًا. ومن المؤكد أن إعادة توزيع الملكية والدخول رأسيًا يؤدي إلى إعادة توزيعها أفقيًا أيضًا أي بين أجزاء الوطن المختلفة. فنحن نعلم أن توزيع الثروة والقوة في مصر الإقطاعية لم يكن يتم على أساس الطبقات فحسب، ولكن على أساس الأقاليم كذلك. ذلك أن نظام (الملكية الغيابية absentee landlordisni) كان يؤدي إلى نزوح ثروات الأقاليم والريف كل عام بانتظام ليصبها في نقطة أو نقطيتن هي العاصمة أو العاصمتان. ولقد أدى الإصلاح الزراعي إلى إيقاف تيار الهجرة السنوي هذا للثروة وعائد الأرض وأعاده إلى حيث ينبغي له وحيث ينتمي. كذلك فمن الإنصاف أن نظام الحكم المحلي أعاد توزيع الثقل نسبيًا ووضع نواة (الإقليمية السياسية) في نظامنا ولكن هذا وحده لا يمكن أن يعوض عن الإهمال القرني البشع والاستنزاف المزمن الذي عاشه الريف والأقاليم. ولهذا فنحن لازلنا بحاجة إلى (الاشتراكية الأفقية) التي تساوي بين أجزاء الوطن في القيم البشرية والإمكانيات الحضرية. أما تركة الإقطاع الراهنة في الأقاليم فأبعد ما تكون عن (العدالة الإقليمية) وتمثل كما قيل (نظام الطبقات استلقى على الأرض).. نحن لازلنا بحاجة إلى تذويب الفوارق بين الأقاليم، كما ذوبنا الفوارق بين الطبقات. ولا يملك الجغرافي عند هذا الحد إلا أن يعجب بين قوسين من أن

كلمة (الإقليمية Regionalism) -فلسفة الريجيوناليزم السديدة التي تلعب دورًا حيويًا في الاشتراكية في الخارج- لم تعرف مصر حتى الآن أننا ندعو تخطيطنا الاشتراكي أن يتبنى هذه المثالية التي ليست إلا الترجمة الجغرافية لتقريب الطبقات، وذلك حتى يحقق ديموقراطية المكان والاشتراكية الإقليمية. وبغير هذا لن يكون تخطيطنا إلا تخطيطًا (نصفيًا) وإن بدا شاملاً: تخطيطًا ينظر إلى الدولة كنقطة لا كمناطق، وكطبقات لا كأقاليم. ولكن المجتمع ليس نقطة تحت ناقوس زجاجي مفرغ بل هو عوالم لها امتدادها الفيزيقي وفروقها في مستويات التنمية والحياة والمعيشة. والمشكلة تتلخص في النهاية في التناقض الرهيب بين المتروبوليتانية في العاصمتين وبين فراغ الريف الحضاري. بين الرأس الكاسح والجسم الكسيح، مصر المتخمة ومصر المأزومة، وهذا هو التحدي الحقيقي للتخطيط في مصر.

والحل في رأينا هو إعادة التوزيع: أولًا بتجميد كل تنمية في الجانب الأول لفترة ما، ثم ثانيا تحويلها إلى الجانب الأخير لنخلق فيه (أقطاب التنمية) التي لابد منها لتكون نوى لرفعه وخمائر لتطويره. ولن يكون هذا إلا تطبيقًا أفقيًا لمبدأ (من كل بحسب طاقته إلى كل بحسب حاجته) الذي طبق بين الطبقات رأسيًا. لن يكون إلا تطبيقًا بين أجزاء الوطن لمبدأ تكافوء الفرص بين أبناء الوطن. الحل بمعنى آخر يكمن في التنمية -لا القومية فقط (التنمية الإقليمية) أساسًا، ولعل مما له مغزاه أن الفكر الاقتصادي الفرنسي وغيره يشهد في السنوات الأخيرة دعوة ثورية تحت اسم (الاقتصاد الإنساني) إلى عدم الاقتصار بالاهتمام على (الاقتصاد القومي) وإلى نقل البؤرة إلى (الاقتصاد الإقليمي).

والخلاصة بإيجاز هي أن تخطيطنا الإقليمي مهمل بل هو أضعف حلقة في كل تخطيطنا وذلك رغم أنه ليس إلا (توزيع التخطيط القومي) ولا يمكن تنفيذ الخطة القومية ككل، بل لا بد من أن تتحلل إلى عواملها الأولية وهي الخطط الإقليمية. والذي نود أن نؤكده بقوة هو أن التخطيط القومي ليس وحده السمة المميزة والمحتكرة للاشتراكية فإن الرأسمالية تعرفه أو تمارسه بصورة أو بأخرى.

أما علامة الاشتراكية الحقة فهو التخطيط الإقليمي. إنه الفيصل والمحك. ولذا فنحن إذ ندعو إلى الاهتمام به نصر على مغزاه الحيوي بالنسبة لقضية الاشتراكية. وليس هو دعوة إلى (التخطيط التكاملي). وليس التخطيط القومي والإقليمي في النهاية إلا جانبان لنفس الشيء، وساقان للاشتراكية. ومن حسن الحظ أن الاتجاه إلى الاهتمام بالتخطيط الإقليمي، بدأ يظهر لدينا في عدة مشروعات كتجربة الاستغلال الزراعي في كفر الشيخ وبني سويف وكمشروع محافظة أسوان. كذلك يبدي الميثاق وضوحًا تاما في الرؤية، ويدرك إدراكًا عميقًا وثوريا قيمة الجانب الإقليمي في التخطيط. ففي الباب السادس يقول عن التخطيط الاشتراكي الكفء (إنه الضمان لحسن استغلال الثروات الموجودة والكامنة والمحتملة، ثم هو في الوقت ذاته ضمان توزيع الخدمات الأساسية باستمرار رفع مستوى ما يقدم منها بالفعل، ومد هذه الخدمات إلى المناطق التي افترسها الإهمال والعجز نتيجة لطول الحرمان الذي فرضته أنانية الطبقات المتحكمة المستعلية على الشعب المناضل). فهذه بلا تردد دعوة مباشرة إلى التخطيط الإقليمي. ثم يعود الميثاق ليضع يده على جذر المشكلة الأساسي، فيوضح كيف أنها تستقطب في النهاية في الفارق الصارخ بين القرية والمدينة فيتكلم الباب السابع عن القوى (التي تستطيع أن تنسج خيوط الحياة في الريف من جديد، وتصنع منها قماشًا حضاريًّا يقرب القرية من مستوى المدينة). ثم يضيف (إن وصول القرية إلى المستوى الحضري ليس ضرورة عدل فقط، ولكنه ضرورة أساسية من ضرورات التنمية من غير تعال عليها ومن غير خيلاء.. إن المدينة مسؤولة مسؤولية كبرى عن العمل الجاد في القرية. إن وصول القرية إلى مستوى المدينة الحضاري وخصوصًا من الناحية الثقافية سوف يكون بداية الوعي التخطيطي لدى الأفراد). والحق أن هذا النص نفسه بداية وعي تخطيطي جديد يضيف بعدًا جديدًا ويطعم وعينا الراهن ويجدد شبابه: أعني الوعي الإقليمي. وواضح أن جغرافية الميثاق تؤكد تقدميته التي لا تختلف عن أحدث الآراء والاتجاهات في التخطيط الاشتراكي التي لا ترى في التخطيط الإقليمي ترفًا كماليا أو بذخا باهظ الثمن. ونحن ندرك تماما أن خطوة ضخمة قد اتخذت وتمت فعلا في سبيل تحقيق العدالة الإقليمية والتنمية الإقليمية. والدولة تنشر الخدمات والمرافق وتبث المصانع الجديدة في الأقاليم وتهدف إلى تصنيع الريف، ولكن عقدًا واحدًا لا يمكن أن يصلح ما أفصد قرن برمته. ولا زال ميزان القوة والموارد والمواهب والفرص يجنح بعنف نحو العاصمة والمدن الكبرى، حيث تصل إلى حد ضغط الدم، بينما لا زالت الأقاليم تشكو فقر الدم.

عبد الناصر خلال زيارة لموقع بناء السد العالي

جغرافية الثورة في مصر

آن لنا بعد أن قدمنا بمقدمة منهجية في فلسفة العلم وبمدخل إلى مبادئ وأسس تخطيطنا الاشتراكي آن لنا أن نحاول أن نرسم لوحة متكاملة لجغرافية الثورة كما تشكلت عندنا حتى الآن. فعلينا أن نحدد ونحلل ما أضافته الثورة إلى أركان خريطتنا الجغرافية سواء بالتعديل أو بالتأصيل. وطبيعي أننا سنرسم بفرشاة عريضة وفي ضربات سريعة لا تركز على التفاصيل والجزئيات حتى لا تضيع الغابة في الأشجار. ولتكن أرضية اللوحة اللاندسكيب الطبيعي، ومنه نتدرج إلى موارد الأرض الزراعية، التي تؤدي بنا تلقائيا إلى الجوانب الاقتصادية: الزراعة والصناعية والتجارة. ومن الاقتصاد ندلف أخيرًا إلى العمران سكانًا ومدنًا حيث تمثل قمة اللاندسكيب الحضاري.

اللاند سكيب الطبيعي

هو النواة الصلبة التي قل أن تلين للإنسان، ولكنها دانت لضبط الحضارة والتكنولوجيا في أخطر صورها: السد العالي. فهذا نقطة الابتداء في سلسلة من التغييرات الفيزيقية المباشرة في البيئة الطبيعية. والسد في ذاته وموضوعه يعيد خلق وصنع اللاندسكيب الطبيعي، ويعيد تشكيل الفيزيوغرافيا المحلية من أساسها: إنه يحول الجغرافيا الطبيعية هنا إلى جغرافيا تشكيلية. فهو أولا سيخلق نهرًا جديدًا تمامًا في قلب الصخر الجرانيتي، نهرًا مغطى يزدوج به النيل لمسافة عدة أميال (قناة التحويل) ثم إليه يتحول مجرى النهر، بينما يتحول النيل الطبيعي القديم إلى زقاق مغلق، على الأقل لمسيرة مثل هذه الأميال. فهنا إذن تضاريس لا نقول ميكروسكوبية micro-relief ولكنه تضاريس محلية جديدة ستصنع صنعًا بيد المهندس الذي هو بذلك عامل جغرافي بكل معنى الكلمة. هنا إذن عملية جراحة جغرافية من أدق وأشق ما أجرى الإنسان على وجه الأرض، ستفعل بالنيل ما فعلت جراحة قناة السويس للعالم القديمة.

ثم أمام هذا ستخلق لأول مرة ظاهرة جغرافية جديدة في النهر هي بحيرة ناصر التي ستمتد 500 كم حتى شلال دال (الثاني) في السودان، وتصبح بذلك أطول بحيرة في مجرى النيل وأعظم بحيرة صناعية في أفريقيا بل في العالم. وهنا نجد أن مندفعات الشلال الثاني ستتحول مع كل حوض البحيرة إلى منطقة أرساب لا تعرية. وبدلا من أن تبري المياه المندفعات وتنحتها وتتراجع بها إلى الوراء ستطمر تحت طبقة متكاثفة من طمي الحمولة السفلى bottom load. هذا بينما أمام السد ستبدأ تتكون دلتا داخلية لن تكون خطرًا تكنولوجيا قبل 500 سنة. وإلى منسوب 183 مترًا سيغرق كل قطاع النهر وتختفي بذلك النوبة من صفحة الخريطة. سواء في دلتا عليا معلقة غارقة، مقدر أنها ستبتلع جزءًا من النوبة المصرية أو السودانية لتصبح (إقليما حفريا) متزايدًا باضطراد من كفاءة تخزين البحيرة، ولكنها قطعة من الجغرافية التاريخية. وفي مقابل هذا ستحتفظ البحيرة برصيد مائي تصل طاقته القصوى إلى 30 مليار متر مقابل 5 مليار لخزان أسوان الحالي. وإلى الأبد سينتهي

الري السنوي والحوضي بفضل (التخزين القرني) أي التراكمي المستمر، ولن تتبدد نقطة واحدة من مياه البحر. وبدل (صهريج الماء) الذي كان دور خزان أسوان سيكون دور السد العالي دور (بنك الماء). وبتعبير آخر سيصبح لدينا أعظم قصر من قصور الماء في القارة. لقد ألفنا أن نعد ادخال الري الدائم في القرن الماضي، نقطة التحول العظمى في تاريخ مصر الاقتصادي والبشري وخط التقسيم بين حقبتين حضاريتين. ولكن منذ الآن سيصبح السد العالي المحرك لأخطر قوة ري واقتصاد في تاريخ النيل. أما خلف السد فلن تكون التغييرات الفزيوغرافية بأقل خطورة وثورية. أولها أن الفيضان سيدخل ذمة التاريخ: لن يكون فيضان بعد الآن. سيظل فيضان النيل أساس الجغرافيا الطبيعية في السودان والحبشة، ولكنه في مصر سيتحول إلى متحف الجغرافيا التاريخية. وبالتالي فلن يصبح نيل مصر إلا ترعة ري كبرى. وقد يكون من الأصح أن نقول إن الفيضان الطبيعي الموسمي في مصر سينتهي ليعطي مكانه لفيضان اصطناعي مستمر. أدق من أن نقول إنه لن يكون فيضان قط بعد الآن أن نقول إن النيل سيعيش منذ الآن في فيضان أبدي. وأيا كان هذا أو ذاك، فبه سيتم ترويض العنصر الطبيعي كما لم يروض من قبل: سننزع عنه أسنانه ومخالبه، أو كما عبر البعض أن النهر الذي كثيرًا ما فقد عقله سيمنح لأول مرة عقلاً بل وضميرًا.. كذلك ينبغي أن نضيف أن السد يحول النيل في الحقيقة إلى مركب من نهرين: الأول يسير طبيعيًّا إلى أن يصب صناعيًّا في بحر جديد هو بحيرة ناصر وله داله المغمورة النامية، والثاني يأخذ صناعيًّا من مصب الأول ثم يمضي طبيعيًّا ليصب في البحر المتوسط بداله الظاهرة المنكمشة. وإذا كان عهدنا بالنيل أنه جيولوجيا وفيزيوغرافيا نهر مركب، فإنه الآن ولأول مرة يصبح نهرًا مركبًا تكنولوجيا واصطناعيًّا. وليس إذن من المغالاة في شيء أن نقرر أن السد يخلق (طبيعة ثانية) للنهر، أو هو يخلق شكلاً رابعًا للمادة. خلف السد أيضًا ستتعدل كل ظاهرات الإرساب والتعرية في مجرى النهر. الإرساب سيقل لأن حمولة النهر من الطمي ستتضاءل إذ تحتجز أمام السد.. والتعرية بالتعويض ستشتد وتقوى على طول الوادي في الصعيد أو في أطراف الدلتا. ولهذا لا بد أن ننتبه إلى أخطار زيادة «النحر» في المجرى، وتآكل دلتا السواحل، وكلها ظاهرات بدأت من قبل على نطاق محدود نسبيًّا منذ مشاريع الري الدائم في القرن الماضي. من ثم لا بد من تكسية جوانب النهر وانحناءاته في الداخل، وحماية سواحل الدلتا في الخارج. تلك إذن مورفولوجية النهر كما سيكون: نهرًا جديدًا فيه من صنع الإنسان قدر ما فيه من صنع الطبيعة. ولو قلنا T.V.A على النيل لما أنصفنا السد العالي ولظلمنا مشروع التنسي أيضًا. يكفي أن نتكلم عن ثورة النيل، وعن «تبشير» النهر Humanism. وثَم عدا هذا أثر جغرافي آخر للسد لا ينبغي أن نغفله، وهو تغيير المناخ الدقيق Microclimate للوادي عامة والمناخ المحلي Mesclimate، لأعاليه خاصة. فارتفاع واستمرار المياه في الترع جدير بأن يرفع درجة الرطوبة العامة في جو الوادي بدرجة طفيفة حقًا، ولكنها قد تمثل تغيرًا ثانويًا للبيئة الإيكولوجية والوسيط البيولوجي Biotic، لتربة الوادي ومناخه وبالتالي المركب الحشري والمرضي Pathogenic Complex. وقد يلزم أن نفكر من الآن في تأثير هذا كله على آفات القطن وغيره من المحاصيل الزراعية. هذا عن الوادي في جملته. أما في إطار السد العالي وبحيرته العظمى فمن المحقق أن ظهور جسم مائي مسطح بهذا الامتداد وتحت شمس مدارية مباشرة سيخلق مناخًا محليا جديدًا بدرجة أو بأخرى. سيخلق أولاً حركة انتقالية من البخر قد تلتقطها الرياح العامة لتتساقط بضع سنتيمترات من المطر في منطقة هي إلى قطب الجفاف العالمي أقرب. وستخلق تيارات من نسيم البر والبحر محلية تلطف من درجة الحرارة القائظة في هذه العروض الحارة. على أنه لما كانت الرياح السائدة هنا هي الشمالية الغربية فأغلب الظن أن خير مفعول هذه الطاقة الملطفة ربما ينتقل من أسف الجنوب والجنوب الشرقي، وذلك في منطقة ستكون أقرب إلى اللامعمور منها إلى المعمور. وتكاد في الحقيقة تناظرها على الضلوع الغربية للوادي وفي نفس العروض تقريبًا. ثم يتحول المنخفض حتى كنتور معين إلى بحيرة داخلية ضخمة من كبريات البحيرات الصناعية في القارة. وإذا كانت القناة تذكر بقناة السويس، فإن بحيرة القطارة نفسها ستذكر بمشروع وضع في القرن الماضي وأعيد التفكير فيه حديثًا لتحويل منخفض مشابه وغير بعيد إلى خليج بحري عن طريق قناة رقبة. ذلك هو منخفض شط الجريد في جنوب تونس. ولئن تحقق مشروع القطارة لكانت أبرز التغييرات الطبيعية هي خلق ساحل جديد للبحر المتوسط، حيث يصبح ساحل القطارة الجنوبي أكثر نقطة في البحر المتوسط جنوبية. وحيث يصبح لساحل البحر المتوسط الجنوبي لأول مرة ذراع جنوبية ضخمة تتوغل فيه بمثل ما تتوغل أذرعه العديدة في الساحل الشمالي.

وبقدر ما ستزيد أطوال سواحل البحر المتوسط، ستزيد أطوال سواحل مصر. ولعل الأثر المناخي المترتب على

هذا المشروع أوضح من نظيره في مشروع السد. فهنا سيمتد مسطح مائي واسع في قلب الصحراء الليبية ولكن في إطار لا يبعد كثيرًا عن نطاق المطر الشتوي الإعصاري في شمال مصر. ولذا فقد تعدل درجة الحرارة واتجاهها من القارية المتطرفة إلى البحرية المعدلة. فإن تكثيفا للمطر لابد سيحدث في دائرة المشروع، هل يؤثر هذا على أمطارنا الراهنة في شمال الدلتا وعلى طول الساحل المتوسطي؟ من المعروف أن تغيرات الرطوبة والتساقط الإقليمية تخضع لقانون التعويض أو الأواني المستطرقة بمثل ما تخضع التغيرات القشرية لقانون التوازن. ولما كان مصدر أمطارنا الحالي هو من الغرب، فإن القطارة لن يستلب رطوبة أحد غربه وإنما رطوبة من هو شرقه. وعلى هذا فتساقط المطر في حدود إقليم القطارة قد يسبب انتقاصًا منه في حدود مناطق كمريوط أو شمال الدلتا حيث يعتمد عليه حاليا في زراعة بعلية جافة، وفي تدعيم حياة رعوية متوطنة من قديم. فإن صح هذا فلا بد من اعتبار هذه المشاكل في التخطيط الإقليمي. وأيا ما كان، فإن تكثيف الرطوبة المحتمل حول القطارة نفسه كفيل بأن يخلق حولها هالة من حياة الرعي، شبيهة بما يتركز حول وادي النطرون حاليًا مثلاً. وعدا هذا فإن احتمال العثور على البترول في النطاق الشمالي الغربي من مصر إذا تحقق قد يجعل لخليج القطارة دورًا هامًا استراتيجيًا كمخرج للبترول، كما يمكن أن يتحول إلى مغناطيس للصناعة والعمران، ولكن هذا موضوع أدخل في باب الجغرافيا الاقتصادية للثورة.

قاعدتنا الأرضية

لقد كان «التوسع الأفقي» شعارًا في أزمان مصر الحديثة للاستهلاك المحلي دون أن يحقق شيئًا مذكورًا. ففي النصف الأول من القرن لم يزد متوسط عمليات الاستصلاح الزراعي عن نحو 10 آلاف فدان سنويًّا، وربما قصر دون ذلك. وكانت كلها جهود فردية مبعثرة كالشظايا أو تخضع لمضاربات الشركات الاستغلالية، وكانت جغرافيا تأخذ نمطًا نقطيًا ورقعيًا، لا نمط «جبهة ريادة» حقيقية. ولقد كانت البراري تمثل «صحراء سوداء» طبيعيًّا. وتؤلف «الربع الخالي» من الدلتا بشريًّا. وفي نبوءة عراف لم تحقق تصور ويلكوكس منذ أكثر من نصف قرن هذا النطاق يعود إلى الحياة بالهجرة: «في بحر خمسين سنة من الآن ستكون كلمة «براري»، أي الأرض البور قد اختفت من مصر. ولكن ظلت البراري منذئذ أسوأ كلمة في قاموس الإيكولوجيا المصري ولا تزال.

ولقد بدأت الثورة تواجه هذا التحدي بمعدل استصلاح لا يقل حتى الآن عن بضعة عشرات آلاف الأفدنة سنويًّا. ولقد نعد أن هذا أعطى الزراعة المصرية حدًا Frontier بالمعنى المعروف في الغرب الأمريكي. إلا أن هذا يعد برنامجًا ثوريًا. غير أنه من الناحية الأخرى ثمة ثورة كاملة ستتم في غضون السنوات القليلة القادمة. فقد كان الماء هو العامل المحدد. ومن أجله دخلت الثورة في أخطر تجربة إيكولوجية عرفها تاريخ البيئة المصرية. فالسد العالي سيوفر هذه المياه. وقد بدأت من قبل المراحل الأولية في استصلاح بضع مئات من الآلاف من الأفدنة في البراري حتى توضع تحت المحراث مع قدوم المياه، بدأ هذا في شمال وسط الدلتا، وبدأ في صحراء الصالحية والحسينية في الشرقية وسهل جنوب بورسعيد. فالهدف هو في النهاية ضم 1.6 مليون فدان هي البراري إلى الرقعة المزروعة. وبهذا تصل الزراعة والحياة إلى سيف البحر بعد أن ظل هذا الشريط الذي يمثل أعدل مناخ بحري في مصر المدارية مفقودًا من المعمور المصري.

ولم يقتصر زخف الاستطلاع على «الصحراء السوداء» الاصطناعية في الشمال، وإنما بدأ يسعى إلى «الصحراء الصفراء» الطبيعية يمينًا وشمالاً، فمنذ البداية قامت تجربة في استصلاح هوامش الدلتا الصحراوية على أطراف البحيرة وحتى وادي النطرون في مديرية التحرير حيث التربة صفراء شبه رملية يمكن أن تصلح لمحاصيل معينة.

ولكن لا زالت التجربة بعد عشر سنوات أقرب إلى المرحلة التجريبية، وعلينا أن ننتظر نتيجتها النهائية، هذا بينما تتصل التجربة في الجنوب بمشروعات الاستصلاح والتعمير في قوته وغيرها بالفيوم، وفي الشمال بمشروعات أبيس وإدكو. وإلى الغرب من الأخيرة تمتد جبهة واسعة من الاستصلاح على طول ساحل مرمريكا مربوط ابتداء من راس الحكمة حتى مطروح، حيث تعتمد على الأمطار وضبط سيول الأودية في توسيع الزراعة الجافة الواسعة. ويناظر هذه الجبهة على الجانب الشرقي من الدلتا شريط سيناء الشمالي ابتداء من البردويل حتى ما بعد العريش. ولأول مرة في تاريخ النيل يعبر برزخ السويس ليوسع حوضه أو بالأحرى واديه ليشمل قطاعًا من سيناء. أما جنوبًا على طول الصعيد فإمكانيات التوسع محدودة، ولكن رقعًا كثيرة وجيوبًا وأحواضًا معلقة على جانبي الوادي خاصة في منطقة كوم أمبو قد انتزعت من قبل من الرمال. إلا أن أعظم قفزة في قلب الصحراء هي بلا شك تلك التي اتخذت من الواحات نواة لها، ومتكأ

تتوسع منها وبينها خطًا يوازي النيل بالتقريب، ويخلق ما سمي «بالوادي الجديد» وبهذا سيكون هناك الوادي الأخضر والوادي الأصفر جنبًا إلى جنب. وقد بدأت من قبل مشاريع الاستصلاح واستخراج الماء الباطني بعد أن ثبت وفرة الخزان الجوفي تحتها وصلاحية التربة. ولكن لا زالت النتائج تدور في حدود الأرقام الثلاثية أو الرباعية على الأكثر. والذي لا نعلمه على التحقيق هو حجم إمكانات التوسع هنا، ولو أن الأرقام التي أعطيت في البداية تجاوز بعضها حدود العلم إلى مجال الخيال! ومن واجب الجغرافي أن يسجل هذا وينبه إليه، فليس أسوأ من رد الفعل العكسي الذي تحدثه مثل هذه التقديرات الخيالية على الدراسي الجاد.

ما محصلة كل هذه المشاريع؟ بديهي أن حصاد الثورة حتى الآن لا يمثل إلا كسرًا ضئيلاً من خطة الاستصلاح. ولا زالت رقعتنا الزراعية في حدود 6 ملايين فدان. ولكن المقدر أنها ستصل إلى 9 ملايين فدان بعد استكمال هذه المشروعات، وربما أوصلها البعض إلى 10 ملايين باعتبار أن هناك إمكانات لم تكتشف بعد حول بحيرة ناصر تتمثل في مدرجات بحيرية قد تحتاج إلى رفع المياه إليها آليًا ولكنها لا تقل عن مليون فدان. والسنوات القليلة القادمة خاصة ابتداءً من 1967 و1970 ستشهد الطفرة المركزة في تمدد المعمور المصري. وساعتئذ ستكون قد تحققت دورة من دورات القاعدة الأرضية المصرية، كما تتبدى من خلال حركة التاريخ في حركة «نبض هامشي» تتمثل في توسع الرقعة الزراعية في فترات القوة السياسية والحضارية، ثم في انكماشها وتقلصها في مراحل الضعف والتأخر. ولكن المحقق أن هذه الدورة التوسعية ستكون أعظم دورة عرفتها البيئة المصرية. عند إذ ستكون قد تحققت «ثورة زراعية» من أخطر ما حركت الثورة، لأنها تعني توسعًا بنسبة 50 ٪ من الرقعة الحالية. ولكن الدرس الذي يمكن أن نسبق الحوادث إليه هو أن إمكانيات التوسع الأفقي في مصر محدودة في النهاية بحكم طبيعة النمط البيئي، وبعد عقد واحد سنكون قد وصلنا إلى «نهاية العالم» بالنسبة لنا وإلى آفاق بيتنا الجغرافي، وستغلق بهذا آخر كوة أو طاقة أرضية أمامنا. قبل السد كانت المشكلة المباشرة هي قلة المياه لا قلة الأرض الصالحة للزراعة، بلغة الإيكولوجيين: كانت المياه هي العامل المحدد Limiting Factor، والأرض هي العامل المسيطر Master Factor، أما بعد السد العالي فسندرك سريعًا أن المشكلة النهائية لن تكون المياه بل الأرض، ستكون المياه هي العامل المحدد في المدى الأخير ونهاية المطاف. وهنا نرى أن أمل مصر الحقيقي والأخير لا يرقد في التوسع الأفقي بقدر ما يكمن في التوسع الرأسي، بل بعد هذا وأبعد من هذا سنرى أنه لا يكمن في الزراعة بقدر ما يكمن في الصناعة، وفي الكل لا يتحدد بالكم بقدر ما يحدد بالكيف.

الزراعة

طبيعي أن يمتد أثر الثورة إلى جغرافية الزراعة، ولكن طبيعي أيضا ألا يمتد هذا الأثر إلى حد الانقلاب على الثورة، ذلك أن الزراعة هي أقدم نظام في مصر وأكثره تطورا ونضجًا من قبل، وكل مجال لهزها لا يمكن أن يلحق الجذور الضاربة المتغلغلة. ومع ذلك فقد كان التطور هامًا وبعيد المدى، شمل المساحة والإنتاجية والنمط الزراعي والمركب الزراعي -بتعبير آخر شمل التوسع الأفقي والرأسي، ويكفي هنا ما قلناه عن توسع القاعدة الأرضية للمعمور المصري حديثًا عن التوسع الأفقي. أما الإنتاجية فقد اتجهت إلى الزيادة في أغلب المحصولات، وإن كان متوسط العائد من الفدان لازال أقل من الأرقام القياسية التي تسجلها بعض الدول الحديثة والمتقدمة. فإذا تذكرنا أن زراعة الري هي بطبيعتها نوع غال باهظ الثمن من الزراعة سواء بمشاريعها من ري وصرف أو بعملها اليدوي الكثيف المسرف، أدركنا أن على عائد الإنتاج أن يقطع شوطًا بعيدًا حتى يبرر هذه التكلفة. كذلك فإن بعض المحصولات تسجل انخفاضًا طفيفًا في العائد بسبب عوامل عارضة كالدودة في القطن أو نقص الماء في الأرز وبسبب الضغط المتواصل على التربة الذي يبلغ أحيانا حد الإجهاد. وتكاد الدودة أن تصبح وباءً متوطنًا في الزراعة المصرية الرطبة. وليس هذا مرتبطًا بتكرار الزراعة فحسب وإنما بوجود الماء والرطوبة المزمنة في تربة الري الدائم حتى تحولت إلى بيئة إيكولوجية مثلى للحشرات. ولذلك فلابد من مزيد من الاهتمام بهذه المشكلة وبالصرف السليم بعد السد العالي الذي سيضاعف من معامل الرطوبة في التربة.

وهناك محاولات جدية لمقابلة كل نقاط زراعتنا الموروثة، فمن ناحية تتجه الزراعة إلى الآلية أو «الميكنة» بخطى وئيدة لكنها أكيدة، وإلى الصبغة الكيماوية بخطى حثيثة إن لم تكن لاهثة، بل لعل زراعتنا الآن بحسب ما تستهلك من أسمدة كيماوية ومبيدات حشرية هي من أشد زراعات العالم كيماوية وإن كانت لاتزال من أقلها ميكانيكية. ولعل من الطريف هنا أن نذكر أن كلمة الكيمياء نفسها خرجت من مصر القديمة (كيمي =

القطن عمود الاقتصاد النقدي في الستينيات

الأرض السوداء) ومن المناسب الآن أن تعود «كيمي» لتحمل الزراعات الكيماوية .. ولكن لا ننسى أن لكل هذا ثمنه المادي الذي يخصم من حساب الأرباح: إن زراعة الري الرطبة تزداد تكلفة كلما ازدادت كثافة. وهناك جوانب أخرى لترشيد الزراعة تتقدم بسرعة، فإذا كان انخفاض عائد بعض المحاصيل يرد في سنوات إلى نقص المياه، فإن كثيرًا من المحاصيل الأخرى يرجع النقص فيه إلى زيادة المياه عن طريق الإفراط في الري Over-Watering ولقد قدر أن هناك إسرافًا في الري يؤدي إلى خفض المحصول بنسبة 30 ٪ أحيانا. ولقد بدأت دراسات وتطبيقات ضبط المقننات المائية لتحقيق الري الأنسب. ومن الناحية الأخرى قدر أن توفير المياه من السد العالي سيكفل كفاية الري في حالات ومناطق نقصه بما يرفع الإنتاجية العامة بنفس النسبة 30 ٪.

ثم نصل إلى التغير الهام في نمط الزراعة، وهو إضافة أصيلة من جانب الثورة وتمشيًا مع اتجاهات عالمية سائدة. فقد كان تفتت الملكيات الزراعية تفتتًا ميكروسكوبيًا يؤدي إلى تبعثر استغلال الأراضي الزراعية Land Use بعثرة غير اقتصادية تنعكس على خطط الري والصرف وعمليات الحقل نفسها ابتداء من الحراث والبذار حتى مقاومة الآفات والحصاد، مما يؤدي إلى مضاعفة ومضاعفات الفردية الزراعية ويجب إمكانيات التعاونية الزراعية للقرية: جاء مشروع التجميع Rememberment الذي يتألف من جانبين: التجنيب والتركيز: التجنيب بإبعاد محاصيل معينة عن محاصيل معينة أخرى مثل كل منها للأخرى مشاتل للدودة والآفات. والتركيز بتجميع حقول كل محصول في حوض واحد لتسهيل كل عمليات الزراعة المشتتة. والتجميع يمكن أيضا للآلية. وقد بدأت الحركة بتجربة نواج المشهورة وسرعان ما انتشرت حتى تقترب الآن من التعميم. وقد أدى التجميع إلى زيادة محققة في عائد الفدان في كل المحاصيل، ويقدر أن تصل هذه الزيادة وحدها إلى ربع الإنتاجية عند اكتمالها.

ومن التجميع الزراعي داخل القرية نتوسع إلى التجميع الزراعي على مستوى القطر. فهل يمثل توزيع محاصيلنا الآن أنسب خريطة زراعية ممكنة؟ إن هناك تخصصات محلية وإقليمية واضحة في بعض المناطق، خاصة في النطاقات الهامشية في أقصى الشمال والجنوب، ولكن بوجه عام فإن الزراعة المصرية أقرب إلى الزراعة المنوعة التي تتألف من مركب متشابه العناصر غالبًا. وتأتي ضرورات التموين عاملًا مساعدًا في هذا الاتجاه حيث تفرض على كل الملكيات نسبة معينة من القمح لا تتعداها إلى أسفل ومن القطن لا تتعداها إلى أعلى –هي الثلث في كلتا الحالتين عادة. والنتيجة أن يضعف معامل الارتباط بين المركب المحصولي وبين المركب البيئي– أي يضعف التخصص أو يتلاشي. ولهذا عيوبه بالنسبة للأرض وبالنسبة للإنتاج على السواء. ولقد جاء الوقت لتخطيط المحاصيل على أساس إقليمي عريض يحد من نسب المحاصيل في مناطقها الحدية ويكثفها في مناطقها الطبيعية.

من المركب المحصولي الإقليمي ننتقل أخيرًا إلى المركب القومي. إن محاصيلنا التقليدية الآن معروفة وراسخة. وهي تتوازن فيما بينها في توزان دقيق حساس يفرضه اقتصاد المكان وثبات الرقعة الزراعية الكلية، فلا تغيير لأحدها إلا بتغيير مقابل في غيره، وليس من السهل مطلقًا التفكير الثوري في تعديلها. ولكن على التخطيط القومي والزراعي أن يبدأ -وقد بدأ فعلًا- أن يتساءل عما إذا كان هذا فعلا أمثل استغلال ممكن.

وهنا لابد أن ننظر إلى إطار أوسع من الإطار القومي: إلى الإطار العالمي بما يحدث فيه من متغيرات وتطورات تؤثر مباشرة على «أربحية» إنتاجنا لقد بعدنا كثيرًا عن الكفاية الإنتاجية الذاتية الغذائية، ولا سبيل إلى العودة إليها إلا على حساب القطن. ولكن القطن هو عماد الاقتصاد النقدي. وهو بدوره يلقى منافسات متزايدة في السوق العالمية. وعدا هذا فكثير من محاصيلنا تبدو حاليًا كأربح وأمثل استغلال للأرض، ولكن الحقيقة أن هذا أغفل حساب عنصر الماء ماء الري كلية. ولو أدخلناه لضاعت الميزة الموهومة لبعض المحاصيل على البعض الآخر. ومنذ سنوات اقترح البعض أن تقوم ثورة جريئة في المركب المحصولي مثل ما عرفت الدنمارك في في تاريخها الزراعي حين تحولت من الحبوب إلى مراعي الألبان، فهم يتخيلون مصر وقد أصبحت «كاليفورنيا أوربا» بما تنتجه للتصدير من فواكه مدارية وزهور وألبان .

ولهذا كله فإن تعديل المركب المحصولي في الزراعة المصرية ليس أمرًا سهلًا، ولكنه يحتاج إلى تخطيط بعيد المدى لاقتصاديات المحاصيل، ولهذا لم تؤخذ بعد اتجاهات حاسمة فيه. ولكن الشئ الثابت والذي ينبغي للجغرافي أن يلح فيه هو أن امتداد المركب الزراعي الحالي بكل عناصره ونسبه كما هي إلا مناطق التوسع الأفقي في المستقبل القريب ينبغي أن يمنع بتاتًا. وإنها لتكون سخرية تخطيطية -ولا نقول فضيحة تخطيطية- أن يبتلع المركب التقليدي صمام الأمن الأخير المتبقي لدينا. فالمناطق الجديدة ينبغي أن تتجه إلى المحاصيل التجارية أولًا، والمحاصيل التجارية المربحة ثانيًا، والمتلائمة مع البيئة ثالثًا. فنطاق الشمال الأقصى ينبغي أن نستفيد من مناخه باعتباره أعدل أقاليم مصر حرارة ورطوبة وأبعدها عن المدارية، بينما في الجنوب الأقصى ينبغي أن نركز على المحاصيل المدارية الحارة الثمينة ذات القيمة. وفي الشمال الأقصى مجال الزراعة المختلطة Mixed Farming التي لا تعرفها مصر حتى الآن، كما يمكن أن تكون حديقة معتدلة لمصر المدارية. وفي كل الحالات سيساعد على هذا التوجيه الجديد أن المناطق الجديدة ستكون قليلة السكان مما يحررها من ضغط الزراعة المعاشية التقليدية.

الصناعة

نستطيع أن نقول -ربما بقليل من مبالغة ولكن بكثير من صحة- أن الزراعة كما هي اليوم هي إلى حد كبير من صنع الإقطاع القديم بينما الصناعة هي إلى أبعد حد من صنع الثورة الاشتراكية. أي أن أضخم بصمة أصابع للثورة على الاقتصاد المصري أتت في الصناعة في الصناعة تحددت. ففي الثلاثينيات والأربعينيات، ولكن بوجه خاص منذ وأثناء الحرب لم تعرف مصر إلا دفعة صناعية، أما «الثورة الصناعية» الحقة فهي بنت العقد الأخير وحده، إن ثورة الصناعة في مصر هي أساسًا صناعة الثورة. وبين الثورة والصناعة علاقة وظيفية صميمة لا مجرد اتفاق: علاقة أصولية لا وصولية فالاستقلال الحقيقي في هذا العصر يزداد كل يوم وضوحًا أنه ذو ثلاثة أبعاد: يبدأ من السياسي ليجد وراءه الاستقلال الاقتصادي، ومن وراء هذا بدوره الاستقلال العلمي، فالعلم اليوم هو الزاوية القائمة في مثلث الاستقلال القومي، وهو المسمار المحوري في آلة القوة السياسية الحديثة. والعلم هو التكنولوجيا، والتكنولوجيا هي الصناعة. من هنا كان طبيعيًا للاستعمار أن يحارب التصنيع ويئده، وكان على التحرير أن يلده.

وهنا لابد أن نقف عند مغزى هذا الانقلاب من حيث فلسفة الفكر الجغرافي. فلكي يحتكر القوة، معروف أن الاستعمار احتكر لنفسه الحرف الثانية والثالثة وفرض على المستعمرات الحرف الأولية وحدها. هكذا كان تقسيم العمل الاستعماري، وهكذا كان التخصص الإمبريالي.

وكانت الدعوى التي يؤسس عليها هذا الابتزاز السافر دعوى جغرافية في التحليل الأخير، وهي أن ذلك توجيه الظروف الطبيعية وحتم البيئة. فمصر «بطبيعتها» زراعية، و«لطبيعتها» ليست للصناعة. وواضح على الفور أن هذا هو الحتم الجغرافي في أعتى صوره، ولكن الحقيقة أن الحتم الجغرافي -على علاته- طالما اتخذ من الناحية العلمية السياسية أو الطبقية كبش فداء لمصالح مكتسبة وحجة ملفقة لاستغلالات وأوضاع فاسدة. وكادت هذه الدعوى المغرضة أن تقر في الأذهان كحقيقة جغرافية من معطيات البيئة: «أن أجيالا متعاقبة من شباب مصر لقنت أن بلادها لا تصلح للصناعة

ولا تقدر عليها» (الميثاق) ولكن التجربة التحررية أثبتت خطأ هذه النظرية الحتمية الجامدة ولم تعد النظرية الاقتصادية الحديثة تميز بين دول زراعية ودول صناعية، هكذا صارمة وإلى الأبد، وإنما تميز بين مراحل تطورية، بين دول متخلفة ودول نامية ومتقدمة. وقد فجرت الثورة في مصر دعوى الاستعمار حتى فجرت الثورة الصناعية، وإذا كانت قد قابلتها صعوبات من قبل فتلك كانت «آلام المخاض»، وأما ما يصادفها من بعد فهذه «آلام النمو». لا وليس التصنيع هو مجرد انعكاس أو رد فعل «للوطنية الاقتصادية» Economic Nationalism كما يردد الاستعمار، وإنما انعكاس للطبيعة الكامنة ورد فعل جغرافي كما قد نقول.

وينعكس انقلابنا الصناعي على هيكل الاقتصاد القومي كله من ناحية وعلى هيكل الصناعة نفسها من ناحية أخرى، ثم على توطنها الجغرافي من ناحية ثالثة. فاما من الاطار القومية فقد سجلت الصناعة أعظم نسب نمو في نسب وقطاعات الإنتاج والدخل القومي. فمن 8.7 ٪ من قيمة الدخل القومي في 1950، ارتفعت الصناعة إلى 21.3 ٪ في 1960 – أي أكثر من تضاعفها في عقد.

وهذه النسبة الأخيرة تقابلها الزراعة بنسبة 31.2 ٪، والمعنى الواضح: أنه وإن كانت الزراعة لا تزال الحرفة الأساسية، فإن مصر قد أصبحت في معنى أو آخر «دولة صناعية»، وتدل آخر أرقام 2 – 1963 على نفس الاتجاه. فمن جملة الإنتاج القومي بما فيه القطاعات السلعية وقطاعات الخدمات بلغت نسبة الصناعة نحو 42.7 ٪ مقابل 20.2 ٪ فقط للزراعة. أما من جملة الدخل القومي فلاتزال الصدارة للزراعة: 27.8 ٪ مقابل 21.4 ٪ للصناعة. ولكن الانكماش النسبي في دور الزراعة في اقتصادنا واضح، وذلك لتوسع الصناعة في الدرجة الأولى، والخطة العشرية التي تهدف إلى مضاعفة الدخل القومي بين 1960 و1970 تهدف داخليًا إلى أن تقلب الحصص النسبية لكل من الزراعة والصناعة في الاقتصاد والدخل القومي بحيث تكون في النهاية من 24.5 ٪ للزراعة مقابل 31.3 ٪ في الصناعة. فإذا تم هذا فلا مفر من أن نقول حينئذ أن مصر الزراعية قد تركت مكانها لمصر الصناعية نهائيًا وإلى الأبد.

وطبيعي لا يزال دور الصناعة في العمالة وسيظل طويلًا محدودًا –كان يمثل 10.6 ٪ من القوة العاملة 1960 مقابل 54.3 ٪ للزراعة. وهذا لأن الصناعة –تكتيكيًا– كثافة بينما الزراعة مساحة. وإذا كانت لا تفسر إلا هذه النسبة المحدودة من العمالة، فإن ما تفسره من الكفاية الذاتية أقل، ومن الصادرات أقل وأقل فمن حيث الكفاية، بديهي أن صناعتنا لازالت تستهدف أساسًا الحد لا التخلص التام من الاعتماد على الأجنبي. ورغم أن هناك خطوطًا من الصناعة تحقق الكفاية التامة بل وتترك فائضًا للتصدير، فإن الصناعة في مجموعها بعيدة عن هذا حتى الآن، أما في الصادر فقد بدأت الصناعة تظهر في القائمة، أولا على استحياء ثم بعد ذلك في مضاء، حتى لقد سجلت متناقضة فذة حين أصبحت مصر –حقل قطن لانشكير التقليدي– تصدر المنسوجات والغزل إلى دول أوربا بما فيها بالذات بريطانيا! ومع ذلك فالصناعة حتى الآن لا تفسر إلا كسرًا ضئيلًا من قيمة الصادر، على أن الهدف الأخير من تحويل كل صادرنا من خام القطن في يوم ما إلى صادر مصنوع من الغزل والنسيج.

أما عن هيكل الصناعة نفسها فقد تأثر كثيرًا وبعيدًا بالثورة، فمن ناحية تغير التركيب الداخلي للصناعة الخفيفة من النمط البدائي إلى المتطور، ومن البسيط إلى المركب، فترتيب قطاعات الصناعة كلها في مصر كان الترتيب التقليدي للصناعات المتخلفة: الصناعات الغذائية في المقدمة، تليها النسيجية، وأخيرا المعدنية. ولم يكن ترتيب الأهمية والنسبة وحده هو العلامة المميزة، وإنما كذلك نوعية هذه الصناعات، فقد كانت الغذائيات تعني أساسًا الاستهلاك المحلي البسيط، بينما النسيجيات كانت أولية في طبيعتها بمعنى أنها ترادف القطنيات وحدها أو تكاد، وفي القطنيات كانت تعني الغزل اكثر من النسيج، أما المعدنيات فلم تكن إلا صناعة الحدادة والسمكرة التقليدية الحرفية واليدوية التي هي أبعد شيء عن الصناعة بالمعنى الحديث. كل هذا المركب قد انقلب في صميمه ترتيبًا وتركيبًا، فأولًا انقلبت الأولويات في الأهمية النسبية، فتقدمت النسيجيات إلى المرتبة الأولى المطلقة وتراجعت الغذائيات إلى المرتبة الثانية، وأعطت الصناعات المعدنية مكانها للكيماوية. ومثل هذا الترتيب في ذاته هو علامة تركيب الصناعة الراقية الحديثة. عدا هذا فقد تطورت طبيعة كل قطاع منها تمامًا.

ففي النسيجيات أضيفت خطوط الصوفيات والحرير إلى القطنيات، وفي القطنيات أخذت كفة النسيج ترجح الغزل، أي زاد الاتجاه من الاتجاه المصنوع إلى المصنوع التام. ونحن نصنع الآن نحو 30 ٪ من محصولنا من القطن. والغذائيات توسعت كمًا وكيفًا وتطورت في مستواها. أما الكيماويات فقد أضافت خطوطًا جديدة

من الإنتاج وتوسعت في الخطوط القديمة. وأصبحت المعدنيات تعني بلا تردد الصناعات الهندسية المعقدة بمعنى الكلمة.

ذلك كله لا يتعلق بالصناعة الخفيفة. ولكن تغيرًا جذريًا آخر لا يقل بل يزيد خطورة هو إضافة عالم جديد من الصناعات إليها، ونعني به الصناعة الثقيلة. وقد تكون الصناعة الثقيلة شيئًا أقل انتشارًا وامتدادًا، عمالة وإنتاجًا، ولكنها بالنسبة للصناعة الخفيفة كالصناعة بالنسبة للزراعة: هذه مساحة ولكن تلك كثافة، هذه شرنقة منتفخة وتلك نواة صلبة، فهي أساس أي تصنيع حقيقي وهي المقياس الصحيح له. ومن الأوليات الأوليات أن الأفران العالية هي قلاع الصناعة القومية. ورمز القوة الصناعية في العصر الحديث. ومن قبل كانت صناعتنا الخفيفة تحت رحمة السوق الخارجية من حيث الوقود والخامات. ولكن منذ صناعة الصلب والحديد، بدأ الاستقلال الصناعي الحقيقي. وإذا كانت الصناعة قد بدأت معتمدة على خام الحديد المحلي وفحم الكوك المستورد، فليس معنى هذا بالضرورة كما أشاع الشانئون أنها «صناعات سياسية»، فالتحليل الاقتصادي السليم يثبت أنها «صناعة جغرافية» بمعنى الكلمة: صناعة انبثاقية لا مفروضة. كما أنها بدأت أخيرا تستعيض عن الفحم بالبترول مسجلة بذلك طفرة ريادية من أولى ما في العالم. وهي منذ بدأت آخذة في التوسع والانتشار طاقة وتوزيعًا. فإذا كانت تسجل الآن ربع مليون طن إنتاجا، فإن هدفها القريب 2 مليون طن. وإذا كانت تتركز حاليًا في حلوان فقد بدأت الإعداد لوحدات أخرى في وسط الصعيد وأسوان. والكلام عن ثورة الصناعة ينقلنا إلى الكلام عن ثورة التعدين. ونقول ثورة لأنها في الواقع تمثل انتفاضة عارمة على الصحراء لتكشف عن أسرارها.

فرغم أن واقع الإنتاج حتى الآن لا يبلغ حد الثورة فقد كشفت عن رصيد في كثير من المعادن يبشر بها. على أن من أسف أن الثورة المعدنية المصرية تمتاز تقليديًا بأنها أقرب إلى قائمة مطولة لعيناتر -مجرد عينات- من المعادن فهي شديدة التنوع ولكنها قليلة الثراء. ولكن معدلات الإنتاج في أغلب المعادن زادت أو تضاعفت، ونسب التصدير منها زادت، ومثلها نسب التصنيع في هذا المصدر. ولعل أثمن عناصر هذه الثروة هي ثلاثية البترول -الحديد- الفوسفات التي تذكر في هيكلها بثورة المغرب العربي المعدنية. وأثمنها هو الآن البترول لا شك الذي ارتفع إنتاجه في عقد من نحو 2 مليون طن إلى نحو 6 مليون طن ولا ريب أن هذا الرقم الأخير يمثل معدلًا متواضعًا ضئيلًا بمقاييس الإنتاج في الشرق الأوسط، ولكن لا جدال أنه يمثل أرقى مراحل التصنيع والاستثمار في المنطقة كلها. فمن الحديث المعاد أن مصر هي الوحيدة في العالم العربي والشرق الأوسط التي استثمر فيها البترول الاستثمار المنتج الكامل ولعب فيها دوره الصناعي الكامل. فمنذ الحرب الأخيرة وهو القوة المحركة الأولى في كل تصنيع مصر ومحرك الثورة الصناعية، وهي أيضا التي تصنع كل بتروله الاستهلاكي وقد نمت لنفسها صناعة وطنية كاملة من البتروكيماويات، كما كونت على دلتاها شبكة أولية من خطوط الأنابيب السوداء والبيضاء، بل وفي مياهها أسطولًا من الناقلات. إن إنتاج البترول في الشرق الأوسط تعدين، ولكنه في مصر وحدها تصنيع، هو في الشرق الأوسط صناعة استخراجية ولكنه في مصر وحدها صناعة تحويلية.

يبقى بعد هذا جانب أخير ولكنه خطير من ثورتنا الصناعية: توقيع وتوزيع الصناعة فمن المسلم به أن أسوأ ما أصيبت به بداية الصناعة في مصر قبل الحرب أنها سلمت نفسها لضبط عوامل توقيعية بورجوازية ورأسمالية، فتكدست في المدينتين العاصمتين القاهرة والإسكندرية بلا مبرر سوى السوق ورأس المال متجاهلة الضوابط التوقيعية الحقيقية والأكثر خطرًا وبقاءً هي والمادة الخام والوقود والعمل. وبصرف النظر عما تضمنه هذا من عدم اقتصادية في التكلفة نقلت إلى المستهلك الصغير، فإنها قد جاءت بذلك لتؤكد وتضاعف الاقتصادية المركزية العنيفة والصارخة في مصر، وزادت من توسيع الهوة بين العاصمتين والأقاليم ومن المتناقضات بين المدينة والريف. وإذا كانت الصناعة النسيجية قد غامرت في المحلة فلم يكن ذلك إلا فلتة ريادية لم تتكرر. هكذا كانت اللاإقليمية أبرز عيوب صناعتنا قبل الثورة.

ولقد واجهت الثورة هذه الصورة المعوجة فبدأت في نشر الصناعة ونثرها في أوسع نطاق ممكن سواء في المدن الإقليمية أو في صميم الريف، لا تحقيقًا للأربحية الاقتصادية فحسب ولكن للأربحية الاجتماعية أيضًا بمعنى العدالة الإقليمية وتحقيق شبكة متكافئة من الفرص الإنتاجية والقيم البشرية. ولا ريب أن دور الصناعة في إمكانيات اللامركزية البشرية وفي الاتجاهات الإقليمية لا يفوقها أو يعادلها نشاط اقتصادي آخر، لأنها الوحيدة التي

يخضع جزء كبير من توقيعها للضبط والتخطيط البشري ولهذا فإن قيمتها في إعادة توزيع الأثقال والأوزان المادية والحضارية داخل إطار الدولة وفي جسم المجتمع قيمة حيوية كبرى، وإهمالها يمثل ضربة قاضية لآمال الإقليمية والإقليميين، وإنه لهذا السبب بالذات لابد أن نقرر أننا نخشى أن اتجاه الصناعة بعيدًا عن العاصمتين ونحو الأقاليم لازال يقصر دون أهداف الاشتراكية الإقليمية الحاسمة. ولنا فيما نشرته وزارة الصناعة أخيرًا أكبر دليل. فمن 727 مصنعًا أنشأتها الثورة في الإحدى عشر سنة الماضية لا نجد خارج منطقتي القاهرة والإسكندرية الصناعيتين إلا 203 مصنعًا، الغالبية العظمى منها من الصناعات الغذائية أولًا والحرفية والريفية ثانيًا، ثم الغزل والنسيج ثالثًا، أي من الصناعات البسيطة أساسًا، كما أن وحداتها صغيرة الحجم غالبًا. كذلك فإن كثيرًا من المشروعات الصناعية الكبرى قد وقع توقيعًا لا يمكن أن يزكيه الجغرافي أو أن يبرره رجل الاقتصاد. مما يكشف أحيانًا عن داء الاكتفاء باعتبارات التخطيط القومي وإهمال اعتبارات التخطيط الإقليمي -كأنما بينهما تعارضًا او حتى ثنائية. وصناعة الحديد والصلب في حلوان مثل بارز. وليس من مبادئ الاقتصاد الاشتراكي الخضوع والرضوخ لمبدأ الوفورات الخارجية المكتسبة. فهو في الصناعات كمنطق الأمر الواقع في السياسية: ليس عدلًا وإن بدا كفاية. وفي اعتقاد الكاتب الحالي أنه قد آن الأوان لكي تعلن مدينة القاهرة -وربما الإسكندرية- «مدينة مغلقة» للصناعة لمدة عشر سنوات مؤقتًا بحيث يجمد فيها كل توسع صناعي ويحول إلى الأقاليم ومدن الأقاليم لاسيما أن كهربة الريف بعد السد ستمكن لهذا الانتشار والمتبعثر من ناحية، كما ستجعل التركيز المخيف في العاصمتين أمرًا غير مفهوم اشتراكيًا أكثر من أي وقت مضى.

والتجارة الخارجية..

مرآة أمينة لهيكل الإنتاج الداخلي، وأكثر منها للقوة السياسية ولهذا تعكس تطورات انقلابية مماثلة، والواقع أننا نستطيع أن نقرأ كل ملامح ثورتنا السياسية والاقتصادية في قائمة تجارتنا الخارجية، فيمكن أن نقول أن تجارتنا قبل الثورة كانت مثالًا نموذجيًا -وإن لم يكن متطرفًا بالقياس إلى بلاد كثيرة من «العالم الثالث»- مثالًا نموذجيًا لما يعرف «بالتجارة الاستعمارية». فقد كانت تعكس كل خصائص الاقتصاد التابع الذي يخضع للسوق الخارجية ويقع تحت رحمة عميل بعينه أو أكثر. ويمكن أن نلخص هذه الخصائص في أربع هي اقتصاديات الخامات، واقتصاديات المحصول الواحد، والتبعية الاقتصادية، والعجز التجاري. ولكن هذه جميعا صيغت في طفره ثورية كاملة، فربما لا يعرف القرن العشرون دولة تغير فيها هيكل تجارتها الخارجية بالقدر الذي عرفته مصر.

ففي الثورة كانت قائمة الصادر كلها من الخامات والوارد قوامه من المصنوعات. وكان قوام الخام الصادر هو القطن وحده. مثلًا في 1938 بلغت قيمة القطن نحو 22 مليون جنيهًا من مجموع الصادرات البالغ 24 مليونًا أي بنسبة 91 ٪ تقريبًا! وفي 1955 كانت الأرقام 88.127.122 ٪ على الترتيب. وهذه تلك نسب تذكر بقوة الدولة الأفريقية المدارية المتخلفة. ولكن بعد هذا تطور الموقف كثيرًا، وأخذ القطن -وإن ظل ملكًا- يتراجع تدريجيًا ليفسح المجال لاقتصاد أكثر اتزانًا وأقل إعوجاجًا. ففي 1961 كانت قيمة القطن 104.6 مليون جنيهًا من مجموع الصادر البالغ 159.7، أي بنسبة 65.5 ٪ وهو تطور ضخم حقًا يعني أن الاستقلال السياسي قد ضوعف باستقلال اقتصادي.

كذلك كانت تجارتنا الخارجية تدور في دائرة «المتروبول» المغلقة وفي فلك الاحتكار الاستعماري بصورة تجعل من الاستقلال السياسي حتى إن وجد سخرية كبرى ووهمًا عريضًا، ولو أن ارتباط مصر بالمتروبول، كان أخف بكثير مما يتصور البعض ومما عرفت مستعمرات أخرى. فحتى في 1938 لم يزد ارتباط مصر ببريطانيا تجاريًا عن الربع أو الثلث من كل تجارتها الخارجية. فكانت بريطانيا تقدم 23 ٪ من واردتنا، وتأخذ33 ٪ من صادراتنا. وفي 1951 كانت هذه النسب قد انخفضت إلى 17 ٪، 19 ٪ على الترتيب، وهذه الدولة لا تزيد عن مجرد عميل من بين أو بعد عشرات أكثر منها أهمية في تجارتنا. ولقد أصبحت شبكة علاقاتنا التجارية صادرًا ووارداً تتوزع على جبهة عريضة جدًا تشمل أغلب دول العالم، وجزء كبير منها يرتبط بالكتلة الشرقية كالذي يرتبط بالغرب بينما جزء نام نشط يأخذ مكانه إلى جوارهما مع دول العالم الثالث وخاصة العالم العربي. بمعنى آخر إن عملاءنا اليوم انعكاس لسياسة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز ووجهة القومية العربية. وبذلك تحطمت نهائيًا علاقة منطقة النفوذ التقليدية اقتصاديًا كما تحطمت سياسيًا.

هناك بعد هذا الميزان التجاري الخاسر. فقد كانت مصر منذ عقود تعاني من ميزان خاسر مزمن حيث أن التجارة الدولية تتحيز باستمرار تحيزًا صارخًا لأسعار المصنوعات ضد الخامات. وقد كانت مصر تعتمد في موازنته لفترة طويلة على أرصدة الإسترليني المجمدة لنا

تهجير النوبيين أكبر عملية تهجير في مصر

في لندن. ولكن العجز قد زاد أخيرة زيادة كبيرة وأصبح ظاهرة مستمرة. ففي 1961 كانت الورادات 238.5 مليون جنيه، والصادر 161.2 بعجز قدره نحو 77.3 أو 193 ٪ من جملة التجارة الخارجية. وللوهلة الأولى قد يبدو أن هذا خطوة إلى الوراء وأنه نقطة سوداء في التركيب الاقتصادي للدولة ولكن هذه نظرة سطحية خاطئة. فالحقيقة أنه لا يدل إلا على مرحلة انطلاق اقتصادي نشطة كل النشاط حيث نستورد رؤوس الأموال الأجنبية على شكل قروض وسلع رأسمالية ائتمانية لمشاريع التنمية. فالعجز التجاري الحالي يدل على أننا إنما نشتري المستقبل بالحاضر، ويشير إلى عجز مؤقت ولكن لا يعني أننا دولة عاجزة، بل إن بعضًا من أخص خصائص التجارة الاستعمارية قد انقلب تمامًا في مصر. فالعادة في التجارة الاستعمارية أن الدول المتخلفة تمتاز بأن صادراتها تزيد وزنا على وارداتها لان الأولى من الخامات الثقيلة والثانية من المصنوعات الخفيفة. ويترتب على ذلك أيضًا أن العلاقة بين القيمة والوزن علاقة عكسية، وأن متوسط قيمة طن الوارد إلى الدول المتخلفة يعادل أكثر من أو عدة أمثال قيمة طن الصادر. ولكن هذه الظاهرات تنعدم بل تنعكس في مصر. وتمثل بذلك حالة نادرة في أفريقيا. ففي 1960-1961 كان مجموع وزن الصادرات 5.850.000 طن مقابل 6.170.000 للواردات. والسبب أن الواردات أصبحت تشمل نسبة كبيرة من خامات المناجم والمحاجر اللازمة للتصنيع وقدرًا من المواد الزراعية لعدم الكفاية الذاتية في الغذاء. ولذلك نجد تقاربًا معقولًا في قيمة وحدة الصادر والوارد، فهي الأولى 30.9 جنيهًا للطن وللثانية 35.2 جنيهًا، والسبب أن الصادر أصبح يشمل نسبة لا بأس بها من السلع المصنوعة (23.2 ٪).

في العمران

نال الغلاف البشري -ولم يكن له بد من أن ينال- من آثار الثورة علامات بعيدة المدى سواء في شكله أو توزيعه أو تركيبه. فإن التغيرات الإيكولوجية والاقتصادية والثورة الاجتماعية الاشتراكية كان لابد أن تترك بصماتها عميقة على جسم المجتمع وعلى تنضيده في إطار طبيعي. ولكن هذه الآثار تختلف من جانب إلى جانب. فمن حيث حجم السكان ورثت الثورة حالة من إفراط السكان المخيف تمثل خطرًا يتعدى فيه حجم السكان الموارد والإنتاج وينخفض مستوى المعيشة إلى ما يقرب من «خط الفقر» ويجعل جغرافية السكان في أغلبها فصلا في «جغرافية الجوع» وقد ذهب الإصلاح الزراعي وتحديد الملكية وإعادة توزيع الدخل القومي وقوانين يوليو الاشتراكية إلى مدى بعيد في سبيل تخفيف هذه الحالة المرضية. ولكن موجة الرواج تحولت إلى موجة من الزواج، وتغلبت خصوبة السكان على خصوبة التربة، فأخذ المد السكاني الزاحف يطغى وارتفع عدد السكان في العقد الأخير نحو 7 ملايين نسمة. وأصبحت العلاقة بين الموارد والسكان أشبه بشخص يصعد سلمًا آليًا هابطًا. ومن المحقق الآن أن التحدي الذي يهدد التنمية الاقتصادية إنما هو نمو السكان، وأن لابد إلى جانب تخطيط الإنتاج الاقتصادي من تخطيط الإنتاج البشري،

أو كما عبر البعض كثافتنا هي قدرتنا، ولهذا فلعل ضبط النسل هو أهم المبادئ التي تبنتها الثورة أخيرًا في مجال التخطيط الاجتماعي. وفي هذا يقول الميثاق: إن مشكلة التزايد في عدد السكان هي أخطر العقبات التي تواجه جهود الشعب المصري في انطلاقه نحو رفع مستوى الإنتاج في بلاده بطريقة فعالة وقادرة»، ويضيف أن «محاولات تنظيم الأسرة بغرض مواجهة مشكلة تزايد السكان تستحق أصدق الجهود المعززة بالعلوم الحديثة». أما عن نمط العمران فمرتبط بالتغيرات الجذرية التي تلحق نمط المعمور نفسه، ويمكننا أن نلاحظ في هذا الصدد عدة اتجاهات وخطوط حيوية. فأولًا بدأت الثورة ببتر ذيل المعمور في النوبة. فمنذ بدأ خزان أسوان والنوبة تتقلص وتتشرنق على نفسها باطراد منفصلة عن كتلة وجسم العمران في الوادي. وقد حدث تحرك ذيل النوبة في اتجاهين أو على مستويين، فهي أولا كانت تغرق ابتداء من الشمال إلى الجنوب مع كل تملية، بحيث أصبحت في النهاية جزيرة صغيرة منفصلة عن كتلة الصعيد ومعزولة على أقصى الحدود. وهي ثانيًا كانت تغرق من أسفل إلى أعلى، مهاجرة بذلك إلى كنتورات أي مستويات ارتفاع أعلى باطراد. وبهذا انتهت النوبة إلى أن تصبح جزيرة معزولة «معلقة» تعشش على جانبي النهر عند أقصى الحدود ومع السد آن لها أن تختفي نهائيًا في بقعتها وأن تنتقل في هجرة جذرية فتهبط مع انحدار النهر وتياره شمالًا إلى كوم إمبو حيث تمت عملية من أكبر عمليات إفادة التوطين Resettlement في المنطقة، وقد أتت عملية التهجير هذه كقطعة من التخطيط الإقليمي المقنن الذي جعل إعادة التوطين أيضًا تجربة في التحضير في التوطيد الاجتماعي وإذا كان في هذه العملية الجراحية العمرانية تكثيف للسكان في الوادي فإنها بتر لذيله وتقصير له. وقد يجوز لنا، وقد زالت نهائية همزة الوصل السكانية الضئيلة بين كتلتي العمران في مصر وفي السودان أن نقول أن تلك العملية قد حولت كتلة العمران في مصر من شبه جزيرة إلى جزيرة كاملة.

ولكن إذا كان ذيل المعمور قد بتر في الجنوب بضع مئات من الكيلو مترات الضيقة المختلفة شبه الخطية، فإن العمران في سبيله إلى أن يتمدد تمددًا ضخمًا في أقصى الشمال حين يتم السد واستصلاح البراري. ولعل هذه الحركة الآن في مرحلتها الجنينية من قبل. ولكن لن تمضي سنوات حتى تحدث أضخم حركة هجرة مدية في تاريخ العمران المصري منذ قرون، حين تنطلق عارمة موجات السكان الحبيسة في كظ وتزاحم الدلتا والصعيد. ولنا أن نتنظر حينئذ -على غرار «إذهب إلى الغرب أيها الشاب» في أمريكا- صيحة قومية تقول «إذهب إلى الشمال أيها الشاب».

وبديهي أن هذه العملية ستنتظم على الأقل بضع مئات من الآلاف من السكان، ومن ثم ستكون أعظم عملية تهجير في تاريخنا على الإطلاق تتضاءل بجوارها حركة تهجير النوبة إلى مجرد تجربة عينة. وعلى الدولة من الآن أن تحشد كل قواها في التخطيط الإقليمي لتواجه ذلك اليوم. وإذا كان تهجير النوبة قد قصر المعمور من ناحية وكثفه محليًا من الناحية الأخرى، فإن تعمير البراري سيؤدي إلى العكس، فأولًا سيطيل المعمور إلى الشمال بعرض يصل في متوسطه إلى المائة كيلو مترًا وعلى طول جبهة تبدأ من مشارف العريش وتنتهي إلى ختوم مطروح، ثم هو ثانيًا سيخلخل كثافة المعمور في الدلتا خاصة والوادي بمقدار ما ينقل من السكان من الجنوب إلى الشمال. وبهذا سيتحقق على الجملة اتجاه نحو مزيد من التجانس في توزيع الغلاف البشري وفي سمكه.

ولكن سيلاحظ على الفور من مجموع التغييرات الجذرية في كتلة المعمور -وهي التغييرات التي تتحدد أساسا في الأطراف القصوى سواء في الشمال أو في الجنوب- سيلاحظ أنها تعني في الحقيقة عملية «انتقال» زاحف نسبي لهذه الكتلة ككل من الجنوب إلى الشمال. أي أن جسم العمران سيتحرك حركة طفيفة غير منظورة، أشبه بالزحزحة أو الزحف، من عروض مدارية إلى عروض أقل مدارية ومن كنتورات عالية إلى كنتورات أوطأ قليلًا. إن الثورة تنقل مصر قليلًا نحو البحر المتوسط. وفي داخل هذه الحركة ستتم عملية إعادة توزيع داخلي تنقل السكان بدورهم من الضغط الثقيل إلى الضغط الخفيف أي من الجنوب إلى الشمال. وإلى جانب هذه الحركة المحورية الكبرى، ستحدث تغيرات ثانوية تتعامد عليها. فبدلًا من أن تتجه الهجرة السكانية من خارج الوادي من الواحات ومن أطراف الدلتا والصعيد إلى قلب الأرض السوداء، سيحدث العكس وتنعكس الهجرة من وادي النيل إلى هوامشه وإلى الواحات وسواحل البحر الأحمر، ومعها تتسع دائرى العمران ويقل الانحدار الرهيب الراهن في درجة الكثافة.

من شكل العمران ونمط السكان ننتقل الآن إلى النسيج الذي يتألف منه هذا العمران وإلى وحداته الخلوية، فنجد أن يد الثورة قد وصلت إليه في أكثر من ناحية. فأولًا يمكن أن نقول أن عصر الثورة كان عصر تمدين واتجاه

قبلة من فلاح على جبين عبد الناصر

نحو المدنية، فعند بدايتها كانت حياة المدن تنتظم نحو ربع أبناء الأمة، وهي الآن تتعدى الثلث ومن المقدر أننا لن نصل 1970 حتى يكون واحد من كل مصريين يعيش في مدينة. وفي رأينا أن التمدين في الحدود المعقولة نعمة وليس نقمة لأنه دليل التطور الحقيقي وارتفاع المستوى الحضاري بكل معانيه ومحمولاته. والمحركات التي تكمن خلف هذا الاتجاه هي عوامل التصنيع السريع وترشيد الزراعة و«تعصير» الحياة بوجه عام. ولكن الذي لا يدعو إلى الاطمئنان كليًة إن حركة التمدين لازالت تأخذ اتجاهًا عاصميًا أساسيًا، وتمثل بهذا امتدادًا لما كان في ظل الإقطاع فمثلًا بدأت الثورة والقاهرة الكبرى نحو مليونين ونصف، ومن حينها وصلت الآن إلى نحو أربعة ملايين. ولقد رأينا أن المركزية العاصمية في مصر كانت وظيفة مباشرة للإقطاع والملكية الغيابية التي حولت الأمة إلى ضاحية شاسعة للعاصمة وجعلت من مصر «إمبراطورية القاهرة» تقريبًا. ولقد كنا ننتظر مع إعادة توزيع الملكية وعودة الأرض إلى أصحابها أن تجف بعض الروافد الاقتصادية غير الشرعية التي تصب في القاهرة فتتباطأ في النمو لتعطي الفرصة للمراكز الإقليمية الموءودة للتنفس والحياة. ولكن مازال منطق التمدين عندنا هو اتجاه للأغنياء إلى أن يزدادوا غنى وللفقراء أن يزدادوا فقرًا.

وهنا نعود فنكرر أن الحل الإقليمي الوحيد هو عكس هذا الاتجاه بأن نضع «سقفًا» لنمو العاصمة و«أرضية» لنمو المدن الإقليمية. وطريق هذا بالتحكم في توزيع مشروعات التنمية وتوزيع الوظائف لأن المدينة في النهاية ليست إلا «حزمة من الوظائف» والشعار الذي لا مفر منه مرة أخرى هو إعلان القاهرة لفترة موقوتة «مدينة مغلقة» لكل نمو في كل نشاط يمكن أن يؤدي إلى زيادة في حجم السكان بها. ويجب أن يكون الحكم المحلي أداة مباشرة في عملية إعادة توزيع نمو المدن هذه، بل لعل هذه هي الوظيفة الأولى والمبرر الأكبر لهذا النظام الجديد، وسيتعين علينا أن نلقي اهتمامًا خاصًا بتنمية موانينا الآسنة على البحرين وغلق موانٍ جديدة إذا دعى الأمر، هذا عدا إنشاء مدن جديدة في المعمور الجديد في البراري حيث ستكون إضافة الثورة إضافة بكرًا أصيلة بالضرورة.

هذا عن المدن. أما الريف فأصعب بطبيعة الحال في محاولة إعادة تشكيل، وهو بهذا يمثل التحدي الحقيقي للثورة، ولازالت الجهود حتى الآن رقعية جزئية. ومن الإنصاف أن هنا بالذات نتراكم تركة تاريخ ألقى برمته ومن المؤكد أنها آخر ما سيمكن التصدي له في إعادة تشكيل كياننا لفداحة التكاليف وتعقد المشكلة. وقطاع الريف في ذاته آخذ في الانكماش النسبي مع التمدين، ولكنه أخذ في النماء والتوسع على الإطلاق. وقد كان هناك في بعض إطاراته إلى التبعثر من القرية إلى العزبة، ولكن التنظيم الاجتماعي والتعاوني للحياة الريفية الجديدة لا يحبذ هذا الاتجاه. ولسنا نعرف بعد بالدقة أثر إعادة توزيع الملكية الزراعية أو التجميع الزراعي أو -في المستقبل- كهربة الريف على نمط السكنى فيه. وعلى كل فقد بدأ الريف يعرف أوليات الحياة الحضرية من خدمات شبكية ماء أو إنارة ومن منشآت عمرانية ومعمارية كالوحدات المجمعة والمرافق المتطورة..إلخ، وكلها جراثيم مدن تطعم بها خلايا الريف وتمثل خطوة على الطريق نحو هدف الميثاق من وصول القرية إلى المستوى الحضري.

مراجعات

- **جرائم لارس ڤون تريير**

باسم عبد الحليم

- **أدب الأوبئة.. نصوص تنتصر لغريزة البقاء**

أسماء سعد

- **تسخير الروح في خدمة الرأسمالية**

عرض كتاب "الروح في العمل: من الاستلاب إلى الاستقلال الذاتي"

حسين الحاج

- **"أحمر لارنج": شارل عقل المهرِّج المجدِّد**

قراءة في رواية "أحمر لارنج"

حسام الخولي

- **"أشباح بروكسل": جغرافيا سردية للخوف**

قراءة في رواية "أشباح بروكسل"

منى أبو النصر

1

جرائم لارس ڤـون تريير

باسم عبد الحليم

منذ أول أفلامه في ثمانينيات القرن الماضي، وحتى أحدثها في عام 2018، قدَّم المخرج الدانماركي لارس ڤـون تريير تجربةً من أكثر التجارب السينمائية المعاصرة تقلُّبًا وإثارة للجدل. إن لـڤـون تريير سمعته في الاستفزاز المتكرر، ليس فقط بآرائه وتصريحاته الصادمة، التي لا يهتم كثيرًا بتصحيحها أو توضيح مغزاها، بل أيضًا بأفلامه التي تجاوزت نحو 14 فيلمًا روائيًّا طويلاً، وانطوت في مجملها على نظرةٍ شديدة التشاؤم للإنسانيَّة، وكذلك بأساليبه التعبيريَّة الحادة، إلى حد وصف أفلامه بـ«الفضيحة السينمائية».

أول أفلام ڤـون تريير الطويلة «عنصر الجريمة» The Element of Crime ، كان في عام 1984، بمشاركةٍ من نيلز ڤـورسيل في كتابة السيناريو. انتمى «عنصر الجريمة» جوهريًّا، ومع لمسةٍ سوريـاليَّة، إلى نوعية الفيلم نوار Film-Noir. وهو ما يبدو غريبًا على مخرج اشترك، في ما بعد في تأسيس حركة سينمائية؛ عادَتْ سينما النوعَ عداءً صارمًا، مثل «دوجما 95» Dogma 95، إلى حد إدراج قاعدة في بيانها التأسيسي، تُحرِّم على أعضاءها صُنْعَ أفلام تنتمي إلى نوعٍ سينمائي مُحدد. لكن الغرابة تزول بمتابعة مسيرة ڤـون تريير، والتي تكررت زياراتُ المخرج فيها إلى أنواعٍ وضروبٍ سينمائيَّة مختلفة أخرى.

يدور «عنصر الجريمة» حول المحقق فيشر (مايكل إلفيك)، الذي يخضع إلى التنويم المغناطيسي، لكي يتذكر آخر قضاياه في أوروبا. وفيها يلاحق فيشر، مُستَدلاً بالأساليب غير التقليدية التي يقترحها كتابٌ ألَّفه أستاذُه ومعلمُه أوزبورن (إزموند نايت) تحت عنوان «عنصر الجريمة»، أثرَ القاتل المتسلسل هاري جراي، الذي قتل عددًا من الفتيات الصغيرات من بائعات اليانصيب. بحسب الكتاب/ الدليل، يكون على فيشر أن يحاكي رحلة قام بها القاتل، وسجلها أوزبورن في تقرير

مشهد من فيلم «عنصر الجريمة»

مراقبة طويل. تصاحب فيشر العاهرةُ ذاتها التي صاحبت القاتل، ونتابع التداعي النفسي الذي يصيب المحقق من جراء مطابقته لذهن القاتل وعقله. تتحرك دراما فيلم «عنصر الجريمة» جغرافيًا من القاهرة إلى أوروبا. وتُظهر اللقطاتُ الأولى رجوعَ المحقق فيشر إلى القاهرة للتذكُّر، بعد انتهاء كل شيء، ثم نعود مع الفيلم إلى أوروبا، في استرجاعٍ طويل، لسرد ما حدث.

في «عنصر الجريمة»، يُصوِّر ڤون تريير أوروبا بوصفها خرائب ديستوبيَّة مُقبضة وسالبة للروح. وتتكرر تلك الرؤية القاتمة ذاتها، بتنويعاتٍ مختلفة، في الفيلمين التاليين «وباء»، و«يوروبا»؛ اللذان شكلا مع الفيلم الأول ما سيطلق عليه ڤون تريير «ثلاثية يوروبا»، في ما يشبه تخييلاً سينمائيًا كابوسيًا لحقَبٍ ماضية ومستقبليَّة مضطربة من التاريخ الأوروبي.

في «وباء» Epidemic، نتابع خطان دراميان: واقعي وخيالي. في الخط الأول يظهر ڤون تريير وشريكه في الكتابة نيلز ڤورسيل بشخصيَّتيْهِما الحقيقيَّتيْن، وهما يحاولان جمع التمويل اللازم لفيلمهما الجديد. تُفْقَدُ النسخةُ الوحيدة من سيناريو الفيلم، المُعنوَن بـ«ضابط البوليس والعاهرة»، في إشارةٍ واضحة إلى فيلمهما السابق «عنصر الجريمة»، فيختلقان في اللحظات الأخيرة قبل لقاء المنتج، سيناريو آخر من نوعية الخيال العلمي، يدور حول وباءٍ عالمي. في الخط الآخر، نتابع مشاهدَ السيناريو، ويلعب فيه ڤون تريير نفسه دور طبيب ينطلق إلى الريف لمساعدة وإنقاذ المصابين بالوباء. ويتصاعد دوار التقاطعات بين أحداث السيناريو وأحداث الواقع.

تفكك الفكرةُ الأساسية لفيلم «وباء»، العمليةَ الإبداعية لكتابة السيناريو، بعرض الصدام الأزلي بين مخيَّلة الفنان والواقع الإنتاجي المُعَرْقِل، وهي المخيَّلة التي تبلغ أشدَها في عرض الصراع مع الوباء في الريف. يجتمع ڤون تريير وڤورسيل مع المنتج، الذي يعترض على السيناريو المُقترَح لخلُّوه من مشاهد العنف والحبكات الفرعية وحالات الموت. حتى نصل إلى تتابعات النهاية السوريالِيَّة، حيث ينضم رجل وامرأة إلى ڤون تريير و ڤورسيل للمساعدة في عملية الكتابة، وتقع المرأة تحت سيطرة دراما السيناريو

مشهد من فيلم «يوروبا»

التي تبدأ في التحقُّق واقعيًا، فتنهي حياتَها بيدها. كما تبدأ أعراضُ الوباء في الظهور على ڤورسيل.

«يوروبا» Europa، الأخير من الثلاثية، هو الفيلم الذي سيحقق النجاحَ الأكبر لَدَى النقاد وجمهور السينما. في رحلةٍ عكسية لرحلة كارل روسمان، المهاجر في رواية فرانز كافكا «أمريكا»، يعود ليوبولد كيسلر (جين-مارك بار) إلى أوروبا، وتحديدًا إلى ألمانيا عام 1945، ما بعد الحرب العالمية الثانية، للعمل في شركة «زنتروبا» للقطارات، بدافع المشاركة في إعادة بناء ألمانيا المتضررة من جراء الحرب، فيُقَابَل بالصراعات العنيفة في ألمانيا تلك الحقبة. وتشتدُّ أسلوبيَّةُ ڤون تريير في تصوير فيلمه بالأبيض والأسود، لصُنْع جماليةٍ تناسب فيلمه التاريخي على مستوى الصورة.

لطالما جاهد السينمائيون لبلوغ المنظر الصحيح للفيلم التاريخي. ودفع المصور السينمائي لاسلو كوفاكس يومًا بأن على الفيلم التاريخي أن يبدو وكأنه قد صُوِّرَ فعلاً في حقبته، ثم أُخرِج من الدرج للعرض، مثل الطبعات العتيقة الباهتة. وفي «يوروبا»، يقرر ڤون تريير اللجوءَ إلى التصوير بالأبيض والأسود، والذي يمنح الصورةَ أناقةً خاصة، من أجل تلك الروح التاريخية لفيلمه، وكذلك إلى التصوير على خلفيَّةٍ صوريَّة معروضة بواسطة بروچيكتور؛ تتنافر نِسَبُها مع التكوين الأمامي للكادر، مع إضفاء بعض البقع اللونية إلى الصورة في الوقت نفسه، لخلق التغريب الذي يُبعِد صورته عن المطابقة مع الواقع، وهو تغريب يتلاءم تمامًا مع الجو الحلمي الذي تجري فيه دراما الفيلم.

*

في عام 1995، شارك لارس ڤون تريير مع زميله المخرج توماس ڤنتربرج، في تأسيس وكتابة مانفيستو حركة «دوجما 95» السينمائية. تأثُّرًا بالواقعيَّة، وبالموجة الفرنسيَّة الجديدة، نهضتْ الحركةُ على دوافع جذريَّة لصُنْع أفلام سينمائية تعتمد على القيم التقليديَّة للقصة والتمثيل والموضوع، ورفض استخدام أي مؤثرات أو تكنولوجيا خاصة مُساعدة، وعلى الرغبة في استعادة القوة للمخرج بوصفه فنانًا، كمعارضةٍ متطرفة لسلطة إستوديوهات الإنتاج.

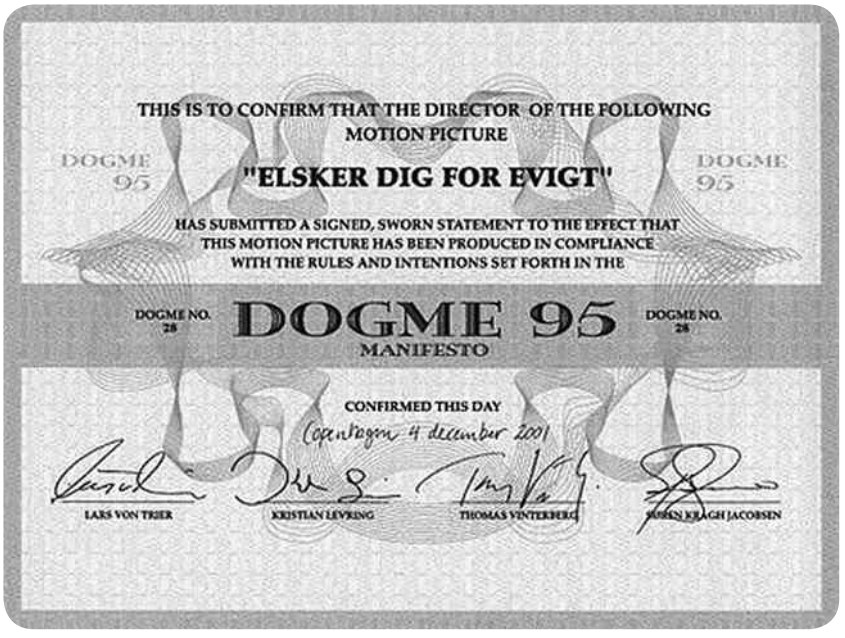

شعار حركة دوجما

اشتمل بيانُ الدوجما على قواعدٍ صارمة لما يمكن أن يُطلَق عليه «فيلم دوجما»، منها: التصوير وتسجيل الصوت في المواقع الطبيعية للفيلم، عدم استخدام موسيقى تصويرية مُضافة سوى تلك المُسجلَة في الموقع، استعمال الكاميرا المحمولة باليد في التصوير، الفيلم يجب أن يكون بالألوان، وأي مؤثرات إضاءة خاصة غير مقبولة بخلاف لمبة الإضاءة المُثبتة في الكاميرا، أفلام النوع مرفوضة، والتصوير يتم على فيلم 35 مللي، ولا يُنْسَب الفيلم إلى المخرج على الإطلاق. وبالنظر إلى تلك القواعد، يمكن وصف «دوجما 95» بالحركة الفنية الأكثر تصلُّبًا وجمودًا في تاريخ السينما.

تستدعي الكاميرا المحمولة على اليد جمالياتها الخاصة، إذ تمنح المشهدَ ملمس الفيلم التسجيلي أو النشرة الإخبارية، وتقوِّي حركتُها المهتزَّة غير المنتظمة من إحساس الواقع، من وجهة النظر الذاتيَّة للمشارك في الحركة. كما أنها فعَّالة التأثير، على نحوٍ خاص، في تصوير العنف. حيث تتلاءم حركة الكاميرا المُشوَّشة مع روح الحدث العنيف على الشاشة. وسيستثمر ڤـون تريير تلكَ الخواص طويلاً، في مشاركاته مع الدوجما، وفي غيرها.

كما قد يُتوقَع، تم تجاوز القواعد الصارمة للدوجما عند التنفيذ الفعلي، ومنذ الفيلم الأول «الاحتفال»، الذي صنعه توماس ڤـنتربرج في عام 1998. فقد اعترف ڤـنتربرج، بتغطيته النافذة في أحد مشاهد فيلمه، وباستخدامه مؤثرات إضاءة خاصة. وكذلك سيُقرُّ ڤـون تريير بإضفائه موسيقى تصويريَّة غير مُسَجْلة في الموقع، في فيلمه «الحمقى» The Idiots، المُصنف كفيلم دوجما لنفس العام.

مشهد من فيلم «الحمقى»

يصوِّر «الحمقى» مجموعةً من الأفراد، يدَّعون التأخرَ العقلي في طقس شبه احتفالي، وينخرطون في ممارسات جنسية، ثنائيةً وجماعية، وهم على هذه الحالة. أثار الفيلم عاصفةً من الانتقادات، بدأت في عرضه الخاص بمهرجان كان السينمائي، حيث نهض أحدُ النقاد من بين صفوف المشاهدين صائحًا: «ما هذا الخراء!»، كما تصاعدت الكثيرُ من الأصوات المُنَدِّدة بالتصوير بالغ القبح للتأخر العقلي. وبدايةً من فيلم «الحمقى»، سيكتسب ڤون تريير سمعته كأحد أكثر مخرجي السينما إزعاجًا وتطرُّفًا.

إن ما اعتُبِر في تنظيرات الدوجما استعادةً لسلطة المخرج من إستوديوهات الإنتاج، بدا في الواقع نكوصًا عما اكتسبه الوسيطُ من تطور تعبيري على مدار تاريخه. لقد صارت الدوجما في نظر الكثيرين، وعند التجربة الفعلية، تخريبًا قطعيًا للفن السينمائي. وفي ما بعد، ستُوصَف من قِبل أحد النقاد المرموقين، هو الناقد الأمريكي أرموند وايت، بالحركة التي قَرَّبتْ صناعة الأفلام «من بورنو الهواة»، وسيعتبرها ساقطةً من تاريخ السينما.

*

يمكن النظر إلى الأفلام التي سينجزها ڤون تريير في السنوات التالية على مرحلة الدوجما، بوصفها انقلابات حَديَّة متتابعة على قواعد الدوجما نفسها. يمثل فيلمه «راقصة في الظلام» Dancer in the Dark، في عام 2000، أول تلك الانقلابات. وفيه اختبر ڤون تريير المزجَ بين نوعيْن سينمائيَّيْن جماهيريَّيْن بالأساس: الميلودراما والميوزيكال.

لطالما كانت الميلودراما من أكثر الأنواع ارتباطًا بفن الفرجة في صورته الأولية جدًا، الجماهيرية جدًا. وبينما تتطلب الكوميديا مُشاهِدًا ذكيًا، لالتقاط المفارقات

مشهد من فيلم «راقصة في الظلام»

الكوميدية والاستجابة لها، لا يحتاج إدرارُ الدموع من أعين الجمهور إلى القدر نفسه من الذكاء. لكنها، أي الميلودراما، لا تخلو من خطورة، إذ تخلق أفقًا من التوقع الدرامي لمآلات الشخصيات يتطلب إشباعَه في نهاية الفيلم، ولو بالقدر الأدنى من الترضية، وهو ما لا يتحقق في «راقصة في الظلام». تدور الحكاية الأساسية للفيلم حول امرأة عاملة (المغنية والموسيقية الأيسلندية بيـچورك)، تهوى الغناء والرقص، تُتَهَم ظلمًا بقتل جارها الضابط وسرقة أمواله، ونتابع الملابسات التي أدت إلى هذا الاتهام. إن الشخصية تُظلَم وتُعاني، لكنها لا تحظى بتطويبها النهائي من تلك المعاناة. وبسقوط جسد البطلة المظلومة من فوق منصة الإعدام، تسقط كل إمكانية لخلق معنى من تلك الميلودراما الموسيقية. يُضفي ڤـون تريير، على المشهد الختامي، لوحة مكتوبة: «يقولون إنها الأغنية النهائية، لا يعرفوننا. ليست الأغنية النهائية، إلا إذا سمحنا بذلك». فما المقصود؟ هل يحثنا المخرج على فعلٍ ما؟ وما هذا الفعل بالضبط؟ إن المغزى وراء النهاية المُحبِطة للمتفرج يظل غامضًا رغم ذلك.

على ناحية أخرى، يتناقض البذخُ البصري المُفتَرَض في فيلم الميوزيكال مع أسلوب ڤـون تريير الإخراجي. يبدأ «راقصة في الظلام» بالبطلة وصديقتها تشاركان في بروفة لمسرحية مُقتبَسة عن فيلم الميوزيكال الأيقوني «صوت الموسيقى». البروفة مُشوَّشة وهزلية، والبطلة تتخبط في رقصها، كأن المشهد بأكمله محاكاة واقعية لأسطورية الفيلم الشهير. في مشهد آخَر، تسخر إحدى شخصيات الفيلم من الموسيقى التي تظهر وتختفي فجأة في الأفلام الموسيقية الراقصة. ويحاول ڤـون تريير تجاوزَ هذا الخلل كما يعرضه على لسان شخصيته، بأن يستخرج إيقاع الموسيقى التي ترقص عليها البطلة من الأصوات الطبيعية في موقع التصوير: صوت ماكينات المصنع، والدق على المسامير، والإيقاع المتتابع لعجلات القطار على القضبان الحديدية. إن مَن يتعرَّض لفيلم «راقصة في الظلام»، لا يستطيع تجنُّب هذا السؤال: كيف يمكن نقد نوع سينمائي، في فيلم يحاول الانتماء إلى النوع نفسه؟!

في مشروعه السينمائي التالي «أرض الفرص»، وهي الثلاثية التي أُنجِزَ منها فيلمان فقط: «دوجفيل»

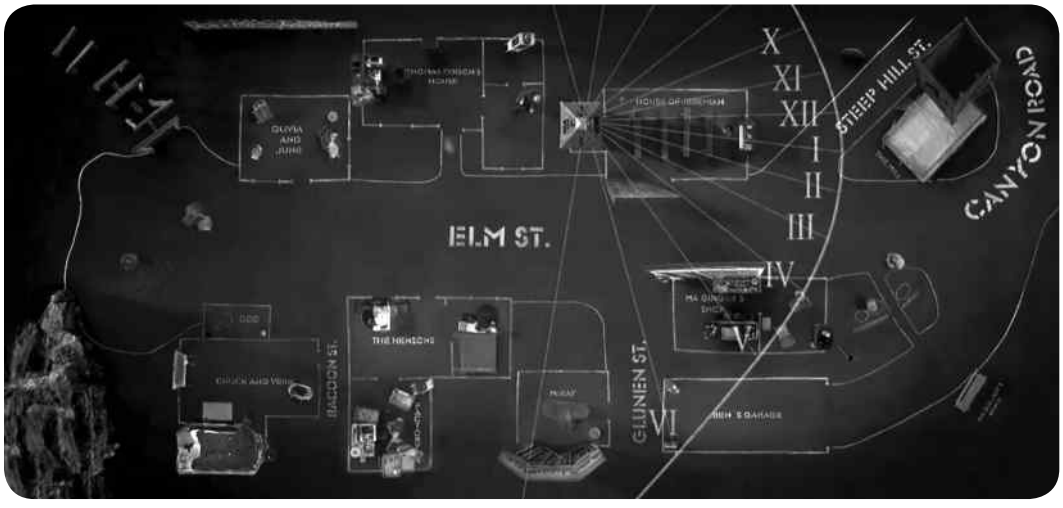

تخطيط قرية دوجفيل

(2003) Dogville و«ماندرلاي» Manderlay (2005)، وتنتظر الاكتمال حتى الآن بفيلمها الثالث والأخير «واشنطن»، يحطم ڤون تريير، وفي الصميم، قاعدةً أخرى من قواعد الدوجما؛ هي قاعدة «التصوير في المواقع الطبيعية للأحداث»، واضعًا شخصياته في مسرح مينيمالي يكاد يخلو من الديكورات؛ فقط يُشار إليهًا بخطوطٍ وعلامات محددة كروكيًّا على أرض المسرح، لينسج دراما ممتدة، في 9 فصول وبرولوج تمهيدي، حول الفتاة الغنية جريس (نيكول كيدمان) التي تهرب من سطوة أبيها (جيمس كَان) وعصابته الإجرامية لتختبئ في قرية صغيرة اسمها دوجفيل. بتوجيهٍ من توم (بول بيتاني)، ابن القرية المثقف الغارق في النظريات، تَعرض جريس خدماتها على أهل القرية، في مقابل السماح لها بالاختباء بينهم. لكن استغلال أهل القرية لها يتزايد، حتى يصل إلى الاستغلال الجنسي، فتقرر جريس الهرب، وتفشل، فيُصعِّد أهل القرية ضدها إلى حد ربطها من عنقها بالطوق الحديدي لكلب الحراسة.

تُعرَض دراما الفيلم على طريقة الروايات الأوروبية للقرن التاسع عشر، إذ يستبق عنوان كل فصل بتلخيص التطورات القادمة. ويساهم في تأكيد هذا الطابع صوتُ الراوي (جون هارت) مُعلقًا على الأحداث وشارحًا دوافع الشخصيات وأفكارها الداخلية. يجمع الأسلوبُ ذاته بين فيلمي «دوجفيل» و«ماندرلاي»، وكما حَمَلتْنا النبراتُ المحايدة القديرة للممثل جون هارت، عبر الوقائع المتتابعة للفيلم الأول، تستمر معنا في الفيلم الآخر.

يحمل «دوجفيل» إدانةً قوية للتسامح المسيحي، في شكل أمثولة درامية عن الشر المتأصل في الإنسان. ويدفع ڤون تريير بأن الشر ينمو في أي مكان، ما دامت قد توفرت له الظروف الملائمة. في نهاية الفيلم الإشكالية، يصل الأبُ وعصابته إلى دوجفيل، ويستنقذ ابنته جريس من أسر أهل القرية، ويدور بينهما نقاش طويل حول ضرورة القوة وتفوقها. تُمثل جريس التسامحَ في أنقى صوره، ومن ثم أضعفها؛ التسامح المُتخاذل عن الفعل، وعن إيقاع

تخطيط الديكور لفيلم «ماندرلاي»

العقاب بالمخطئ. ويمثل الأبُ القوةَ النيتشوية المتفوقة. إن الشر، بحسب ما يرى الأبُ، أصيل في الإنسان. وبينما ترى جريس أن المغفرة هي الحل، يتمسَّك أبوها بضرورة السَوط للَجم تلك الطبيعة الشيطانية. يقود النقاشُ جريس إلى السوط أيضًا، فتنفِّذ، بنفسها، إعدامًا جماعيًّا لأهل القرية، عقابًا لهم على جرائمهم تجاهها، ثم تغادر القريةَ مع أبيها.

وُصِفَ «دوجفيل» بأنه يطرح خطابًا هجائيًّا معاديًا للحياة الأمريكية. إن الطابع الأمريكي الذي يتخفى طيلة الفيلم، يُعاد ربطه بالأحداث عن طريق مجموعة من الصور للحظات مختلفة من التاريخ الأمريكي، على تترات النهاية، وكأننا نعاين أخيرًا الصورَ الحقيقية للشخصيات التي شاهدناها تُعْدَم منذ لحظات، من أهل قرية دوجفيل.

في فيلم «ماندرلاي»، يستكمل ڤون تريير رحلة جريس مع أبيها وعصابته، إلى موقع آخر، بعد مغادرتهم دوجفيل. يستبدل الفيلم الجديدً فريقه التمثيلي الرئيسي، بـالممثلة برايس دالاس هوارد في دور جريس، ووليام دافو في دور الأب، ويعيد توظيف لورين باكال وجيريمي ديفيس وكلوي سيفجني في أدوار جديدة أصغر، مختلفة عما قاموا بتمثيلها في الفيلم الأولً.

في «ماندرلاي»، تصبح أمريكية الموضوع أكثر وضوحًا، بسبب تناوله لمسألة أمريكية تمامًا هي «العبودية». تقف السيارة التي تقل جريس وأباها أمام مزرعة عبيد في ألاباما، وفي أثناء انتظارهم للتحرك مجددًا، تخرج امرأة سوداء من البوابة الرئيسية للمزرعة، وهي تصرخ بأن أحد العبيد على وشك التعرض للجَلْد عقابًا على سرقته زجاجة نبيذ. تدخل جريس، لتكتشف أن المزرعة ما زالت تعمل بنظام العبودية، رغم مرور نحو 70 عامًا على نهاية الحرب الأهلية الأمريكية، وإلغاء نظام الرِق، محكومةً بدليل مكتوب سُمِّيَ «قانون السيدة». تَصر جريس على البَقاء في المزرعة، بصحبة بعض رجال أبيها المسلحين ومحاميه الخاص، للتأكد من التحول الكامل لهؤلاء العبيد إلى الحرية.

يضع «قانون السيدة» قواعد للسيطرة على عبيد المزرعة، وفقًا لتقسيمهم إلى 7 أنماط محددة بحسب شخصياتهم. أولها، كما يعرض الفيلم، هو الزنجي الفخور، ويمثله زنجيٌّ واحد في المزرعة هو تيموثي، وآخرها الزنجي المُهرج (الذي يستطيع تغيير نفسه إلى الصفة التي يرغب مالكه في أن يكون عليها). لكن تتالي الأحداث المعقد، يقود إلى اكتشاف أن الزنجي الفخور رقم 1، هو في حقيقته نمط الزنجي المُهرج رقم 7. ثم يأتي الاكتشاف الأخطر، وهو أن «قانون السيدة» قد كُتِب بيد أحد هؤلاء العبيد أنفسهم، وأكبرهم سنًا، لصياغة وتنظيم العلاقات داخل مجتمع المزرعة، والإبقاء على السلام الاجتماعي بين السادة والعبيد.

الرسالة التي ينطوي عليها الفيلم تبدو مزعجة، بتجاوزها لمكتسبات المساواة داخل المجتمع الحديث النابذ للعبودية. كنهاية «دوجفيل»، تُقَابَل جريس، الشخصية المثالية، بصلابة قبح الواقع الذي ترفضه، فتتحول مثاليتها إلى نوع من الغضب المُدمِر. لكن في «ماندرلاي»، تبدو النهاية مُصمَّمةً مسبقًا لكي تقود جريس إلى الشعور ذاته. إن الفيلم ككل، أضعف من جزئه الأول بكثير، بسبب تلك النهاية المصنوعة، وبسبب الطاقم التمثيلي البديل، الأقل حضورًا بما لا يُقاس. وعلى خلاف جزئه الأول، كان «ماندرلاي» إخفاقًا كبيرًا على المستويْن النقدي والجماهيري، حيث فشل في اقتناص الجوائز أو تحقيق إيرادات كافية. وربما كان فشله الذريع من ناحية الإيرادات، هو ما حال دون تنفيذ جزئه الثالث حتى الآن، «واشنطن». كما يُعَد «ماندرلاي» من أقل أفلام ڤون تريير شهرة وتحصيلاً للإعجاب لدى جمهور السينما.

في عام 2006، يعود ڤون تريير لمناوشة سينما النوع مجددًا، بفيلم كوميدي هذه المرة، هو فيلم «رئيس الكل» The Boss of It All. يقوم الفيلم على فكرة شديدة الطرافة، حول صاحب شركة يخلق وهمًا لدى موظفيه بأن للشركة مالك آخر يعيش في أمريكا ويتواصل مع الشركة عن طريق البريد الإلكتروني، لكي ينسب إليه كل القرارات الإدارية التي لا تلقى شعبية أو ترحيبًا لدى هؤلاء الموظفين. الآن يريد صاحب الشركة أن يبيعها، ويصر المشتري المُحتمل أن يقابل المالك الوهمي شخصيًا، فيستأجر صاحب الشركة ممثلاً فاشلاً لتمثيل الدور أمام المشتري وموظفي الشركة.

الفيلم على درجة عالية من الإتقان في نوعه السينمائي، وحقق صدى جيدًا لدى النقاد حين عرضه، لكنه لا يحظى بشهرة واسعة لدى محبي سينما لارس ڤون تريير، مع أنه قد يكون مثيرًا للاهتمام أن يُعاد اكتشافه مجددًا، واكتشاف الكيفية التي طوَّع بها ڤون تريير نوع الكوميديا، لكي يلائم أسلوبه السينمائي المعتاد.

تجد الفكرة التقليدية عن الثلاثيات السينمائية؛ كونها امتدادًا حكائيًا متواليًا، ما يناقضها في عمل ڤون تريير. إن ما يجمع الأفلامَ المُندَرجة في ثلاثيات عنده، وهي جل إنتاجه تقريبًا، هو الوحدةُ الثيمية والأسلوبيَّة، غير أن هذه الوحدة لا تمنع مُعاملة كل فيلم بوصفه قطعةً فنيَّة مستقلةَ، اللهم إلا ثلاثية «أرض الفرص» غير المُنجزة بالكامل. بل وقد يختلف النوع السينمائي من فيلم إلى فيلم، كما نجد في ثلاثية «يوروبا» مثلاً، وكما نجدً في ثلاثية «الاكتئاب»؛ آخر ثلاثيات ڤون تريير المكتملة، وأكثرها شخصيَّة، إذ كتبها وأنجزها ڤون تريير في فترة كان يصارع فيها الاكتئاب الحاد بالفعل.

بدأ ڤون تريير ثلاثية «الاكتئاب»، بفيلم «نقيض المسيح» Antichrist، في عام 2009. يستوحي الفيلم عنوانَه من عنوان كتاب نيتشه الشهير. وللفكر النيتشوي حضور واضح في سينما ڤون تريير، بصيغته الأكثر راديكاليَّة،

مشهد من فيلم «نقيض المسيح»

المُحتقرة للضعف الإنساني. اعتمد «نقيض المسيح» على نوعية سينما الرعب لخلق جوِّه المقبض. يقدم الفيلم شخصيتين فقط: زوج وزوجة، وقد جُهِّلَتْ أسماؤهما، فتجَرَّدا إلى رمزين لنوعَيْهما: رجل وامرأة. وتدور أحداثه حول امرأة تعاني من أزمة نفسية حادة، إثر موت طفلها وشعورها بالذنب تجاه هذا الموت، ويحاول زوجها المحلل النفسي مساعدتها على تجاوز الأزمة. جسد دورَ الرجل ويليام ديفو، وجسدت دور المرأة شارلوت جنسبيرج، بأداء فائق القوة حصدت به جائزة التمثيل بمهرجان كان السينمائي لعام 2009.

يتناول «نقيض المسيح» عدة ثيمات بالتوازي: ثيمة الاكتئاب والمرض النفسي، وثيمة علاقة الإنسان بالطبيعة. بعد أن تُصرح المرأة إلى زوجها المعالج النفسي، بأن أكبر مخاوفها هي الغابة، يصحبها إلى كوخهما الخشبي الموجود في غابة «عدن»، وللاسم دلالته الرمزية، لاستكشاف تلك المخاوف معًا. وفي عدن، تتناوب الزوجَ رؤى سوداوية من الطبيعة، في أشجار وحيوانات الغابة، بينما تبدأ الزوجة في إظهار سلوكًا جنسيًا عنيفًا، ونوعًا من السادومازوخية تجاه الزوج.

الطبيعة في «نقيض المسيح» تحمل رعبًا عميقًا للزوجة، لدرجة أنها تصفها بـ«كنيسة الشيطان». ويبدو العالم شيطانيًا ووحشيًا، وسائرًا نحو الموت والفناء، حتى أصغر وأدق تفاصيله. يزداد حضور الغابة ورعبها وطأة، بتحليلها إلى عناصرها المكونة لها. ثمار البلوط تموت وتتساقط على الكوخ، والثعلب يمزق بأنيابه جسده نفسه، حتى الغزالة التي تَلد مولودتها بين الدم والطين. يكتشف الزوج بين الأوراق المتروكة في الكوخ، دراسات زوجته تمهيدًا لأطروحتها العلمية حول تاريخ العنف ضد المرأة، والمتمثل في محاكمات وإعدامات الساحرات في القرون الوسطى، وتُصرِّح له الزوجة أن تلك الدراسات قادتها إلى الإيمان بأن الشر موجود بداخل كل النساء، في قناعة متطرفة ضد نوعها ذاته. ما يصنع من «نقيض المسيح» تحفة سينمائية قوية، هي تلك الجرأة في الاقتراب من أفكار جوهرية في صراع الإنسان

بالطبيعة من جانب، وفي صراع الرجل مع المرأة من جانب آخر. ويصل هذا الأخير تحديدًا إلى ذروته، حين ينفجر عنف المرأة: أولاً ضد زوجها، لخوفها من أن يتركها، فتشق ساقه بمدق حديدي غليظ، وتربطها بحَجَر مَسَنٍّ ثقيل. ثم ضد نفسها، فتقطع بظرها بمقص صدئ، في لقطةٍ صارخة القسوة، لعلها الأعنف في الفيلم.

استمرارًا في تناول موضوعة الاكتئاب، يصنع ڤون تريير فيلم «ميلانكوليا» Melancholia في 2011. الاكتئاب هذه المرة له طابع وجودي كوني؛ يتجلى في كوكب عملاق على وشك الاصطدام بالأرض وإفناء الحياة عليها. يقسم ڤون تريير فيلمه إلى فصلين، يحمل كل فصل اسم إحدى الشخصيتين الرئيسيتين: جوستين (كريستن دانست) وكلير (شارلوت جنسبيرج). في الفصل الأول الخاص بجوستين، نتابع حفل زفافها، الذي لا يكتمل، على مايكل. تعاني جوستين من اكتئاب حاد تجاهد لإخفاءه عن مايكل، بمساعدة كلير. لكنّ الوضع الضاغط على أعصابها، لحفل الزفاف الذي يجمع أباها وأمها المنفصلان، ومديرها البغيض المتطلب، يحول دون ذلك. بين كل هذا، تتابع جوستين تغيرات ملحوظة في النجوم ومواضعها، وبالتحديد نجم معين أحمر اللون، يُسمى «قلب العقرب». في نهاية الفصل الأول، ينفصل مايكل عن جوستين في نفس الليلة، وتلاحظ اختفاء النجم خلف الكوكب الذي يقترب من مدار الأرض.

في الفصل الثاني، يصبح السبب وراء اختفاء «قلب العقرب» مُعلنًا للعالم. وفقًا لحسابات العلماء، سيمر كوكب «ميلانكوليا» بجوار كوكب الأرض في حدث كوني نادر، ثم يمضي لحال سبيله دون أي دمار للأرض. يثير اقتراب الكوكب أعصاب كلير، التي تتابع على الإنترنت نبوءات البعض بأن الكوكب سيمر بجوار الأرض ويبتعد، ثم يعود مجددًا ويصطدم بالأرض. وبين تطمينات زوجها جون لها ولابنهما الصغير ليو بتقديرات العلم، وحالة جوستين النفسية التي ساءت حتى العجز الكامل، يتزايد توتر كلير ورعبها. يبتعد «ميلانكوليا» بالفعل، لكنه يعود محققًا النبوءة المشؤومة. يتركهم جون ويختبئ، ثم يبتلع علبة أقراص منهيًا حياته بنفسه.

مرة أخرى يستلهم ڤون تريير نوعًا سينمائيًّا شائعًا، هو نوع الخيال العلمي، ليضع داخله رؤيته الخاصة. في اللقطات الأولى للفيلم، نتابع تتابعًا بصريًا خياليًا، يَعرض ضمن ما يعرضه، لقطة لاقتراب الكوكب العملاق ثم اصطدامه الفعلي بالأرض. في البداية يقدم لنا ڤون تريير نهايةَ فيلمه، بينما تقتضي تقاليد النوع نفسه ألا يُكْشَف عن النهاية لإثارة توتر المشاهدين حتى اللحظة الأخيرة، عن الكيفية التي سينجو بها الأبطال. يتجاوز ڤون تريير عن هذا التقليد، ويعلن من البداية أن العالم لن ينجو، ثم يتفرغ لعرض الكيفية التي تتصرف بها جوستين وكلير في أثناء اقتراب ميلانكوليا.

بينما تتزايد عصبية كلير في التعامل مع النهاية المحتومة، تتحسن حالة جوستين النفسية فتصير أهدأ وأصفى في تقبلها للنهاية. إن العالم شرير من وجهة نظر جوستين، ويستحق الفناء. وتصبح هي مَن يساعد أختها كلير في تقبل ما يحدث. يلاحظ ليو الصغير اقترابَ الكوكب، فتطمئنه جوستين أن بوسعها بناء مخبأ سحري يقيهم خطر الاصطدام، وتبنيه فعلاً وسط عراء حديقة القصر، من أعواد خشبية تتساند على بعضها لتصنع ما يشبه خيمة دون قماش، يجلس بداخله جوستين وكلير وليو الصغير بالفعل، متشابكي الأيدي، بينما يصطدم ميلانكوليا بالأرض.

تتألق كريستن دانست بشدة في دور جوستين. وللمرة الثانية على التوالي، يقتنص ڤون تريير لممثلته الأساسية، كريستن دانست هذه المرة، جائزة التمثيل الأولى من مهرجان كان السينمائي.

مشهد من فيلم «ميلانكوليا»

يختتم ڤون تريير، في عام 2013، ثلاثيته بفيلم «شهوانيَّة» Nymphomaniac، أطول أفلامه على الإطلاق، وكان من المفترض أن يُعرَض باعتباره فيلمًا واحدًا، لكنه بلغ من الطول حد أن ڤون تريير اضطُرَ إلى أن يقسمه إلى فيلمين يعرضان منفصلين. صدر الفيلم في عدة نسخ: نسخة طولها نحو 4 ساعات مقسمة إلى نصفين للعرض العام، ونسخة أخرى بقطع المخرج، طولها نحو 5 ساعات ونصف الساعة، عُرِضَتْ في بعض المهرجانات الدولية، وتم إطلاقها بعد العَرض العام الأساسي للفيلم.

في «شهوانيَّة»، يستعمل ڤون تريير أسلوبًا مختلفًا في السرد يعتمد على التداعي الحر الذي تروي به بطلة الفيلم جو (شارلوت جنسبيرج) حكايتها على سيلجمان (ستيلان سكارسجارد)، الأعزب المثقف، بعد أن يعثر عليها ملقيةً في أحد الأزقة الجانبية في حالة يُرثى لها، فيستضيفها في بيته.

يُمكن اعتبار «شهوانيَّة» قصة تقدم في العمر Coming of Age Story مثالية. تسرد جو قصة حياتها على سيلجمان منذ الطفولة، في ليلةٍ واحدة، مع التركيز على غُلمَتِها الجنسية، التي ترى أنها أودت بها إلى ما صارت عليه. وفي كل لحظة من حكايتها المليئة، يُعلِّق سيلجمان عليها بالتحليل وربطها بأفكاره وقراءاته كمثقف مَعزول عن الواقع. إن سيلجمان، الأعزب الذي لم يمارس الجنس في حياته مطلقًا، يصبح صورة معكوسة في المرآة لجو.

تبدو الاستطرادات الثقافية المتأملة التي يعلق بها سيلجمان مقصودة لذاتها في أغلبها، وبعضها بعيدًا تمامًا بالفعل عما تسرده جو، لدرجة أنها لا تمنع نفسها من التعليق المقابل عليها بالسخرية من تهافتها الواضح. إن التعليقات المتأملة لسيلجمان، وهو تمثيل لصوت المخرج نفسه لوضع آرائه داخل الفيلم، تبدو أثقل كثيرًا من الدراما، رغم قوة بعض هذه التأملات في ذاته، بعيدًا عن الحكاية.

سيصبح العرض المباشر للأفكار والأراء الشخصية للمخرج سمة تتكرر مجددًا في الفيلم التالي مباشرة، «البيت الذي بناه جاك» The House That Jack Built (2018)، والذي يحكي تفاصيل جرائم القتل التي يرتكبها جاك (مات ديلون) المهندس المعماري

مشهد من فيلم «شهوانية»

والقاتل المتسلسل، تقاطعًا مع محاولاته المتتابعة لبناء بيت يعجز عن العثور على مادته المناسبة للبناء. يستوحي ڤون تريير هيكلَه الأساسي من «الجحيم» لدانتي أليجييري Dante's Inferno، ويصمم فيلمه كعدد من الحلقات الدرامية، يسردها جاك على الشاعر الروماني فيرجل (برونو جانز)، محاولاً تفسير جرائمه القاسية له. ومثل «شهوانيَّة»، يتمحور «البيت الذي بناه جاك» حول شخصية رئيسية، تُبنَى أبعادها طبقةً بعد طبقة، كدراسة للشخصية Character Study.

يقوم فيرجل هنا بالدور ذاته الذي قام به سيلجمان؛ دور المحلل والمعلِّق على الحكاية التي يحكيها البطل. لكن تعليقه، وعلى عكس تعليق سيلجمان الهادئ المتأمل، يبدو ساخطًا. يُصر جاك على المقارنة بين جرائمه والفن، وهو ما يرفضه فيرجل. يجمع جاك جثثه في مخزن تبريد ضخم دون غرض واضح. غرض يفسره له فيرجل في ما بعد، بأن تلك الجُثث هي المادة المناسبة لكي يبني بيته بها، ذلك البيت الذي سيكون معبرًا له لكي يدلف بصحبة فيرجل إلى جحيم سفلي بالفعل، عبر فتحةٍ في أرضية البيت.

يقدم ڤون تريير داخل الجحيم فصلاً ختاميًا فائق الإبهار على مستوى الصورة لفيلمه، مستوحيًا إياه من تخيلات الجحيم في الميثولوجيا الرومانية. وهناك يلقى جاك مصيره، بالسقوط من على حافة جرفٍ صخري، يقبع أسفله ما يشبه البركان المشتعل. وفي الفصل الختامي، يصبح الفيلم بأكمله أشبه بتاريخ مُفصَّل للبيت الذي يبنيه جاك؛ تاريخ ما يعتبره «عمله الفني المكتمل».

بمزاوجته المربكة بين دراما أفلامه وأفكار من الفلسفة وعلم النفس والميثولوجيا، عادةً ما يخلق ڤون تريير مُنتجًا سينمائيًا يستعصي على التفسير والفهم الواضح من قِبل مشاهديه ونقاده. ومثل جاك، تبدو أفلامه أشبه بجرائم يراكمها ليبني بها مسيرته السينمائية المثيرة، والتي يصعب مع كل التقلبات الحادة التي خاضها في أثنائها، التنبؤُ بفيلمه القادم، أو بجريمته المقبلة.

2

مستشفيات ميدانية في إيطاليا لاستقبال مرضى كوفيد- 19

أدب الأوبئة..
نصوص تنتصر لغريزة البقاء

أسماء سعد

يشتبك الأدب باستمرار مع الحياة، يتصادم مع الأعطاب المحتملة التي قد تصيبها ليصوغ من تداعياتها إمكانات جمالية قد تساعد على تجاوز هذه اللحظات المُتعثرة في الخوف والألم والقلق من مُستقبل مُظلم. ويضع الأديب نفسه في بؤرة الأحداث، كما لو كان هو ذاته موضوعًا لحالة الوباء، فيرى في نصوصه بطولة مطلقة في مواجهة الضعف والتلاشي الإنسانيين ضد المجهول، وهو ما أنتج لنا قطعًا أدبية فريدة تنتمي إلى قصص الديستوبيا وأدب الأزمات.

تعتبر الرواية الفضاء الأوسع لتشكيل المُتخيَّل حول طبيعة الأوبئة، استنادًا إلى توظيف الحدث في وعاء لغوي مدعوم بالخيال، مستعينة بقدرتها الفنية على إعادة تشكيل الحدث عبر زوايا المغامرة وتأجيج منطق الغموض.

ثيمة أساسية

طالما شكَّلت لنا الأعمال الأدبية مهربًا من ضغوط الحياة، وكثيرًا ما وجدنا في فعل القراءة أحد أشكال العزاء والسلوى والرفقة، إلا أن بعض القصص والروايات اكتسبت جاذبيتها من تجسيد الأوبئة وتناول أجواء كارثية يكتنفها الغموض والغرابة، ضمن اتجاه واقعي، رسم من خلاله المبدعون صورة دقيقة لأوقات تشبه وضعنا الراهن في ظل جائحة كورونا.

وعلى الرغم من اختلاف بعض المعالجات لثيمة "الأوبئة" في الأعمال الأدبية، سواء أعمال استبقت وتنبأت بما قبل وقوع الكارثة، أو أعمال استفاضت في وصف أحداث على نحو يبعث القشعريرة في الأبدان، أو حتى تلك التي ترصد عالم ما بعد التعافي من الصدمة، فإن المشترك الفريد بينهم، هو التعبير بشكل بليغ عن تلك اللحظات التي تستيقظ فيها غريزة البقاء من سباتها.

ويحتفظ موضوع الوباء بخصوصية في الحقل الإبداعي، كتقليد راسخ في التاريخ الأدبي، قبل انتشار فيروس كورونا بزمن طويل؛ إذ أبدع عدد من الروائيين والشعراء في نسج قصص إنسانية تتأرجح بين الألفة والفراق، وأحاسيس الفجيعة أو الانتصار، أو فقدان حبيب أو النجاة بآخر في زمن الوباء.

وقد اكتسب "أدب الأوبئة" جاذبية خاصة، مردها إلى أنه وفَّر للكثير من أساطين الرواية، مادة خصبة لذواتهم ومن ثَم للقارئ أيضًا، من الخيال والجموح في الإبداع واللعب على وتر الإنسانيات، مع إتاحة مساحات يفضلون خوضها من المساواة بين البشر، ووقوفهم جميعًا على مسافة واحدة من الخطر، مع احتمالات متساوية لمواجهة الشر وسط تلاشي الفروق بين القوي والضعيف، الذكي والبسيط، ضمن سياق شديد الحساسية وظروف بالغة القسوة.

الوفيات في الولايات المتحدة الأعلى في العالم

أدب الأزمات

بمقاربة بسيطة بين تفشي الجوائح والأعمال الأدبية المرتبطة بها، نجد أن هناك حالة "انتعاش" لما يوصف في الأوساط الثقافية بأنه "أدب الخوف أو الوباء أو الأزمات"، وأن تفشي الأوبئة على وجه الخصوص يعقبه غزارة في الإنتاج الأدبي، منطلقًا من قدرة الروايات ونصوصها على خلق حالة من التعاطف الإنساني خلال المعاناة، حتى لو أن تلك الأعمال لم تظهر في أثناء حدوث الكوارث، بل بعدها بزمن طويل أو قصير، مع الوضع في الاعتبار قدرة أدب الرعب والديستوبيا، على توظيف السرد الروائي في رسم صورة لجائحة مزلزلة تحدث في لحظة زمنية معقدة ومتشابكة، خصوصًا وأنه من المعروف عن رواية الرعب قوة حبكتها حين تعتمد على قصص واقعية لأزمات البشرية.

وتعمد تلك الأعمال على تخزين الوقائع في وجدان البشرية بقدر إتقانها لسمات السرد والخيال؛ إذ تتعاظم أهمية كتابات الخيال العلمي في أوقات الأزمات على وجه الخصوص. ويدفع البعض بأن أدب الأزمات والكوارث كالتحفة أو القطعة الأثرية التي تزداد قيمتها مع مرور الزمن، على الرغم من أنها قد لا تحظى بهذه الأهمية لدى الناس من معاصريها في وقتها الذي وُجِدتْ فيه.

لوحة تجسد انتشار الموت الأسود في أوروبا

أيقونات الجوائح

حظيت الأعمال الأدبية التي تتناول الأوبئة والجائحة باهتمام مضاعف في الوقت الحالي، إذ لاقت رواجًا وزاد الإقبال على العناوين الروائية الوبائية، وسط اتفاق ضمني على ضرورة التعامل مع النصوص الأدبية باعتبارها "نقطة ارتكاز" لاستعادة التوازن على الصعيد النفسي، إذ دومًا ما تذكرك هذه الأعمال بأن البشرية لم تتوقف عن الانخراط في حروب ضروس ضد الأمراض والأوبئة القاتلة، وأنه كلما خسرت جولة، عادت لتستأنف دورة الحياة وسير الحضارة من جديد.

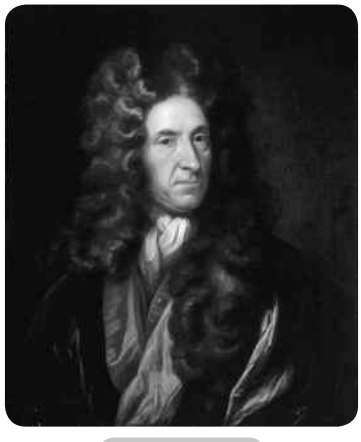

دانييل ديفو

ومن ضمن بواكير الأعمال التي تناولت اجتياح الأوبئة للعالم، تأتي رواية "دفتر أحوال عام الطاعون" التي صدرت في عام 1722 للكاتب الإنجليزي دانييل ديفو، والتي رصد فيها ببراعة متناهية كيف استقبل البشر "صدمة" ظهور وباء فتاك فيما بينهم، فيما يشبه التوثيق الدقيق لأحداث اجتياح الطاعون للندن في عام 1665.

وقد ورد في هذا العمل، مايشبه التسلسل الزمني الذي نعرفه اليوم تمامًا، حين بداية ظهور مرض غريب يخلف أول حالة وفاة يُشتبه في أنها ناجمة عن وباء تواترت شائعات عن انتشاره في إحدى المقاطعات الهولندية، ثم تضرب موجة متصاعدة السكان بحلول فصل الربيع، وسط تزايد بلاغات الوفاة التي كانت تُلصق في الأبرشيات، لتسارع السلطات بإجراءات كالتي نعاصرها اليوم، من حيث وقف إقامة "كل الولائم العامة، ومنع وجبات العشاء في الحانات، وتعطيل الأنشطة الترفيهية". والمثير للغرابة أن ديفو ذكر في روايته ما يكاد يتطابق مع معالم الوضع الراهن "لم يكن هناك ما هو أكثر فتكًا بسكان هذه المدينة، أكثر من إهمالهم المفعم بالكسل"، حتى يصل بنا إلى طور التعافي أخيرًا، وتمكن الناس من العودة إلى الطرقات واستعادة المدينة لصحتها.

ألبير كامو

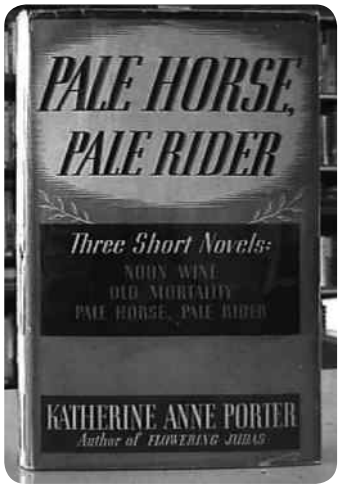

غلاف إحدى طبعات رواية حصان شاحب فارس شاحب

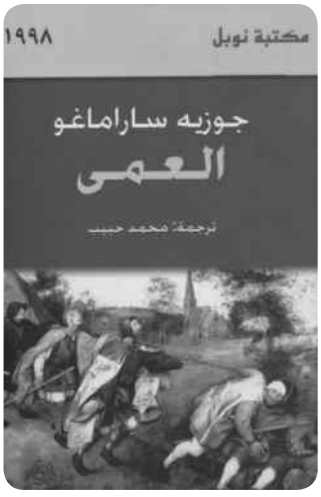

غلاف إحدى طبعات رواية العمى

بعدها بسنوات طويلة لا يجد ألبير كامو خيطًا روائيًّا لأحد أشهر أعماله، أفضل من ذلك الذي نسجه حول تفشي وباء عصف بحياة الجانب الأكبر من سكان مدينة وهران الجزائرية، ضمن مسارات للحكي تزخر بالكثير من أوجه الشبه مع أزمتنا العالمية الحالية.

الهاجس الأساسي للراوي في هذا العمل، يتقاطع مع ما نعاصره اليوم؛ إذ يظل يردد "لا فكرة لدي عما ينتظرني، أو الشكل الذي ستكون عليه الأحداث فيما بعد، ما أعرفه في اللحظة الحالية، أننا في حاجة إلى علاج". وتضم الرواية ما تشير إليه بأنه "البطولة الصامتة" للفرق الطبية التي دفعت بنفسها إلى الصفوف الأولى من المواجهة، في الوقت الذي كان يتكتم المسؤولون على المراحل الأولى من انتشار الوباء، في إحجام عن الاعتراف بغرابة انتشار جثث الفئران النافقة في الشوارع، فيما كان يشبه المؤشرات الأولى لانتشار الطاعون.

بعدها جاء العام 1939، معلنًا عن قطعة أدبية فريدة، رواية "حصان شاحب، فارس شاحب"، والتي قدمتها الكاتبة الأمريكية كاثرين آن بورتر، عن الوباء الذي ضرب العالم في عام 1918، وهو "الإنفلونزا الإسبانية"، وتسبب في القضاء على 50 مليون من سكان الأرض.

في الرواية، نجد آدم صديق بطلة الرواية "ميراندا" يبدو كما لو أنه يصف لها حالنا اليوم، فيقول "الأمور على أسوأ ما يكون.. كل المسارح، وتقريبًا جميع المحال والمطاعم مغلقة، أما الشوارع فتغص بالجنازات طيلة ساعات النهار، وتكتظ بسيارات الإسعاف طوال الليل".

أما الروائي البرتغالي جوزيه ساراماجو، فقد بنى عالمًا كاملاً متخيلاً يضربه الوباء في روايته "العمى"، إذ يسرد أزمة صحية طارئة تضرب المدينة التي رسمها، ولم يُسمِّها مثل شخوص روايته، ليتوسع الحائز على جائزة نوبل، في التعرض للوباء في شكل أمراض كثيرة تضرب المجتمعات وسلوكياتها تمامًا كما تضرب الحكومات وسياساتها. في مقطع من الرواية يسرد "تبدي الحكومة أسفها لاضطرارها إلى القيام بالسرعة القصوى لما تعده واجبها الحق، لحماية الشعب بكل الوسائل الممكنة في هذه الأزمة

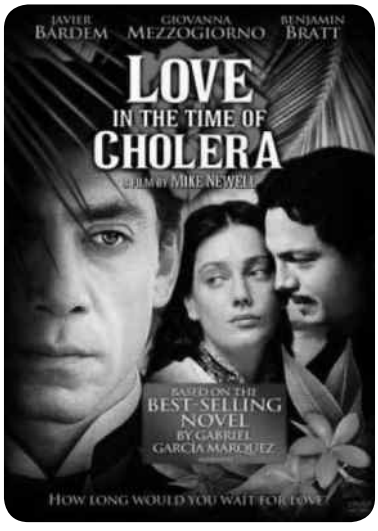

أفيش فيلم «الحب في زمن الكوليرا»

مارجريت آتوود

الحالية، التي تبيَّن أنها تحمل مظاهر وباء عمى، يعرف مؤقتًا بالمرض الأبيض".

وفي هذا السياق لا يمكننا تفويت العمل الأيقوني، الذي امتزجت فيه الرومانسية بإعلان ظهور الوباء الفتاك "الكوليرا" في رائعة جارثيا ماركيز "الحب في زمن الكوليرا"، إذ تتفجر رهافة الحب في بؤرة خطر الفناء الذي يُسببه "الكوليرا"، فتنبثق إرادة الحياة الغالبة عبر موضوع "الحب". وقد وزع ماركيز اهتمامه، وبثَّ شكواه من الحروب الأهلية والفساد دون أن يهمل توظيف ثيمة الوباء، ليصل إلى بطل القصة الذي تمكَّن بعد 53 سنة أن يكون برفقة حبيبته على ظهر مركب، ليجدا نفسيهما وقد توقفت حركة المركب عند مرفأ أحد الأنهار، وعندما سأل القبطان عن سبيل لتجاوز ذلك أجاب "السبيل الوحيد الذي يتيح القفز فوق كل شيء هو وجود مصاب بالوباء على متن السفينة" ورفع العلم الأصفر، في إشارة إلى الوباء، وإلى أنه زمن الكوليرا.

وحديثًا، تتخذ رواية "عام الطوفان" الصادرة عام 2009، من الأوبئة والكوارث قوامًا أساسيًّا لها، إذ تتناول الكاتبة الكندية مارجريت آتوود، أجواءً تخيلتها في عالم ما بعد تفشي وباء شرس، تخيلته "خبيثًا له القدرة على الانتقال عبر الهواء، وكأنه يطير بجناحين، ليجتاح المدن كما الحريق المستعر"، وتوقعت أنه سيكون سببًا في فناء غالبية سكان الأرض، بفعل ما اعتبرت أنه "طوفان دون ماء".

ثم وبغرابة شديدة، تناولت رواية "عيون الظلام" فيروس كورونا، فيما يشبه التنبؤ، فقد عاد العمل الذي أبدعه الكاتب الأميركي دين كونتز إلى الواجهة بقوة، فالرواية الصادرة عام 1981، والمصنفة ضمن أدب الرعب، تكاد تتطابق أحداثها مع ما يجري في الواقع الراهن بشكل مثير للدهشة، وتصدم القارئ بقدرتها على التنبؤ بالمستقبل، إذ أن محتواها عن فيروس ينطلق من مدينة ووهان الصينية على وجه الخصوص، له قدرة على الانتشار السريع، وما يلبث أن يصبح خطرًا عالميًّا متناميًا.

دين كونتز

ويورد الكاتب الذي اشتهر برواياته التي تحمل طابع التشويق والغموض، في روايته عيون الظلام، أن المختبر الذي تتحدث عنه داخل الرواية، يقع على بعد 22 كيلومتر فقط من مركز تفشي فيروس كورونا المستجد، وهو ما يكاد يشبه ما جرى.

ولم يكن تفشي فيروس كورونا مقتصرًا على زيادة انتشار الفيروس فقط، بل امتد إلى زيادة الإقبال والاهتمام بالنصوص سالفة الذكر. وقد أوردت صحيفة لوموند الفرنسية أن روايتي (الطاعون) لألبير كامو، و(العمى) لجوزيه ساراماجو، قد شهدتا انتعاشًا ملحوظًا في المبيعات في مكتبات إيطاليا، منذ اندلاع الأزمة الصحية الحالية. كما ذكرت صحيفة لاربيبليكا الإيطالية، أن رواية (الطاعون) قفزت من المركز الـ71 على بوابة المبيعات عبر الإنترنت في إيطاليا إلى المركز الثالث، فيما ارتفعت مبيعات رواية (العمى) بنسبة 180 ٪، واحتلت بذلك المركز الخامس على موقع أمازون في إيطاليا.

حضور عربي

على الرغم من تعدد الروايات الأيقونية الخاصة بالأوبئة في الأدب الغربي، كان هناك حضور عربي، وكان لأديب نوبل المصري نجيب محفوظ نصيبًا في صياغة أدب الأوبئة وما بعدها؛ إذ تطرق محفوظ في ملحمته الشهيرة

غلاف إحدى طبعات رواية الحرافيش

الحرافيش، إلى الكيفية التي يمكن أن تكون عليها نهاية العالم، إذ قام بتشييد أحداث الرواية في عالم ما بعد فتك الطاعون بالمصريين وتدميره لكل شيء، وأن رجلاً وحيدًا استطاع أن ينجو من كل ذلك، ليمضي بنا في مسار نتعرف من خلاله مع الرواية على كيفية بناء الحضارة من جديد وكيفية انهيارها، والنقاط التي يتشابه فيها البشر ويكررون أخطاءهم مهما كانت ظروفهم أو صفاتهم، فالبشر هم البشر مهما فعلوا أو كانوا.

هناك أيضًا رواية "إيبولا 76" للروائي السوداني أمير تاج السر، الذي احتفظ ببصمته الخاصة في رواية أكثر واقعية، برصد مكاني وزماني حقيقي، جاعلاً الفيروس قاتلاً بامتياز "وحده إيبولا الذي يرعى في دم عامل النسيج ودماء الآخرين الذين اقتنصهم من البارحة يعرف ويخطط وينفذ متى ما استطاع". كذلك قدم الكاتب الراحل أحمد خالد توفيق "شربة الحاج داوود"، وفيه سرد مجموعة من المقالات المصنوعة بشكل أدبي ممزوج بحس علمي تبسيطي، تتمحور حول الأوبئة والأمراض، بأسلوب بسيط وشيق، حتى إن الكتاب يحتوي مقالاً بعنوان "ماذا لو زار مصر فيروس ما؟"

غلاف إحدى طبعات رواية إيبولا 76

يتحدث فيه عن الوضع الصحي في مصر، وكيف سيتم التعامل مع الأوبئة إن اجتاحت مصر.

وذلك بخلاف عدد ليس بالقليل من الروايات التي جسَّدت الجوائح والأمراض المزمنة؛ كما في رواية "يوميات امرأة مشعة" للقاصة المصرية نعمات البحيري، و"استئصال" للروائي المغربي الطاهر بن جلون، و"ساقي اليمنى" للشاعر المصري وائل وجدي، والقاص السوداني علي الملك في نصه القصصي "للمستشفى رائحتان".

إلهام العزلة

وسط كم هائل من التقلبات والشكوك، فإن يقينًا يفرض نفسه الآن، وهو أننا أمام تجربة حياتية مختلفة، في واقع يفرض معطياته بإلحاح شديد على الكاتب والمثقف، والذي وإن كان يعاصر مع الباقيين تجربة لم تمر بها الإنسانية منذ أكثر من 100 سنة، فإنها منحته، أكثر من غيره، فسحة من الوقت وهدنة ربما يطول أمدها لنسج خيوط إبداعه، وفرصة تدعوه إلى استغلال الحجر الإجباري، وتحويله إلى عزل إيجابي ومثمر على الصعيد الإنتاجي الأدبي.

وقد سادت حالة من الاتفاق على أن الأدباء والروائيين، كذوات كاتبة محكومة بحساسيتها المفرطة تجاه المستجدات الجارية، لن تمر عليهم التجربة الوبائية الاستثنائية مرور الكرام، وإنما ستترك أثرًا عميقًا داخلهم، ربما يكون دافعًا مثاليًا للبدء في تحريك آلتهم الإبداعية لإنتاج أعمال أدبية؛ شعرًا وقصة ورواية، وربما تتسبب صدمة العزل التي نعيشها في ظهور أشكال أدبية وطرق تعبير جديدة ومختلفة.

وقد نكون في القلب من هذه اللحظة الراهنة عاجزين عن إيجاد صيغ التعبير المناسبة والأفكار الأكثر تعبيرًا عن الوضع الحالي بشكل دقيق، لكوننا في بؤرة الحدث، ولا نزال داخل الدائرة، لكن ما يخبرنا به تاريخ أدب الأوبئة، أنه مع بداية استنشاق البشر لهواء خالٍ من الفيروس القاتل، وبنهاية فترة الحجر التي دخلتها البشرية أكثر من مرة، سيكون هناك صدى لتلك الفترة على صفحات الروايات، وستبرز آثارها وتتجلى بقوة، في أعمال أدبية وفنية، وذلك شريطة أن يملك المبدعون زمام اللحظة الراهنة، ويعمدون إلى استثمار وقت الحجر في القراءة والكتابة على الهامش، والدخول في حالة امتلاء بهذه التجربة الفريدة والقاسية في الوقت ذاته، لنكون بذلك في وضعية تخزين الكلمات والمشاعر للغد، انتظارًا لأعمال أيقونية تتناول فترة كورونا العصيبة، وتضيف أرففًا جديدة إلى مكتبة أدب الأوبئة والأزمات.

غلاف الطبعة المترجمة من كتاب الروح في العمل

تسخير الروح في خدمة الرأسمالية

عرض كتاب "الروح في العمل: من الاستلاب إلى الاستقلال الذاتي"

الناشر: دار أقلام عربية، القاهرة
الطبعة الأولى 2020
المؤلف: فرانكو بيفو بيراردي
ترجمة: أحمد حسان

حسين الحاج

فرانكو بيفو بيراردي

سبينوزا

إذا كنت ممن انتقل موقع عملهم إلى المنزل بعد انتشار فيروس كورونا، وتطلب ذلك رفع مستوى خدمة الإنترنت لديك ومرونة في ساعات العمل وإجراء اجتماعات عمل مطولة باستخدام وسائل اتصال سمع-بصرية، والآن يسيطر عليك شعور بالإرهاق المستمر جراء التحديق في شاشات الحواسيب والهواتف، فربما يمكنك أن تضع كل هذا جانبًا وتختلس وقتًا لقراءة كتاب «الروح في العمل». قد تستعجب هذا العنوان وتتساءل: أي روح وأي عمل؟ ما علاقة الروح بالعمل؟ الحقيقة أن هذا العنوان التجريدي يختصر واقعًا يهيمن على حياتنا المعاصرة وربما يقدم تشخيصًا حقيقيًا لما نعيشه في عصر الرأسمالية المتأخرة.

إن ما يعنيه مؤلف الكتاب فرانكو بيفو بيراردي بالروح في العمل أن الطاقات البشرية التي اعتبرها فلاسفة تنويريون، مثل سبينوزا، ممثلة للروح كاللغة والقدرات الذهنية والخيال والشعور، أصبحت الآن أداة إنتاج أساسية لإنتاج القيمة في اقتصاد الرأسمالية الإدراكية الرقمية (يستعمل بيراردي «رأسمالية العلامات/ السميورأسمال» لوصف هذه الرأسمالية، إذ تتحول هذه الطاقات التي تُحرك الجسد إلى رموز وعلامات في العالم الرقمي)، يقول بيراردي:

سيلفيا فريدتشي

إخضاع الروح للعمل: هذا هو الشكل الجديد للاستلاب. تقع طاقتنا الراغبة في أحبولة المشروع – الذاتي، ويتم تنظيم استثماراتنا الليبيدية طبقًا لقواعد اقتصادية، ويتم أسر انتباهنا في تقلقل الشبكات الافتراضية: فكل شذرة من النشاط الذهني لابد من تحويلها إلى رأسمال. (ص 32).

يتناقض هذا الطرح مع الحياة المعاشة في ظل الرأسمالية الصناعية؛ التي يقتصر كدح عمالها في أغلب الأحيان على ساعات العمل الثماني في المصانع، حيث تعمل أجسادهم كتروس مؤجرة كي تدير الإنتاج في الماكينات الكبيرة، لكن بينما يستغل أصحاب العمل أجسادهم لتشغيلها، تظل أرواحهم حرة خارج عملية الإنتاج. يجادل بيراردي أن هناك تغيرًا جوهريًّا قد حدث منذ سبعينيات القرن الماضي، عندما أصبح الإنتاج الاقتصادي معتمدًا بصورة متزايدة على العمل الذهني لا اليدوي، وهذا يتطلب صياغة مفاهيمية جديدة للحقل السياسي. فمنذ أن قامت التكنولوجيات الرقمية على العمل الإدراكي، أخضع العمل الذهني

أنطونيو نيجيري

إلى دورة إنتاج القيمة. ومن ثم، أصبحت النماذج الفكرية والحركية لليسار، وريثة القرنين الأخيرين، غير فعَّالة في ظل هذه المعطيات الجديدة.

يعتبر مؤلف الكتاب أحد أهم منظري تيار الماركسية الاستقلالية الذاتية الإيطالي، إلى جانب منظرين آخرين مثل سليفيا فيدريتشي وأنطونيو نيجري، وكان مُقربًا من المنظر الفرنسي فليكس جاتاري. وينقسم كتابه، «الروح في العمل»، إلى قسمين، كما ينقسم كل قسم بدوره إلى قسمين آخرين، ينتقل كل قسم من التاريخ الفكري والمفاهيم النظرية العامة إلى تنظير ماركسي ثقافي مخطط بدقة وممتزج بتغطية جيدة لسوسيولوجيا العمل المعاصر.

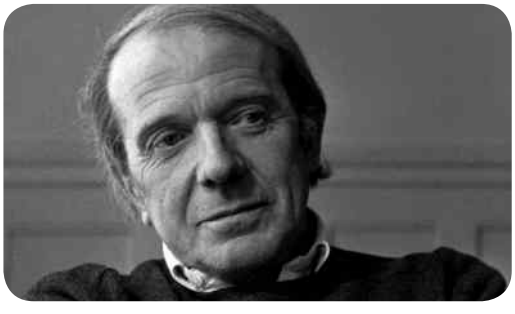

چيل دولوز

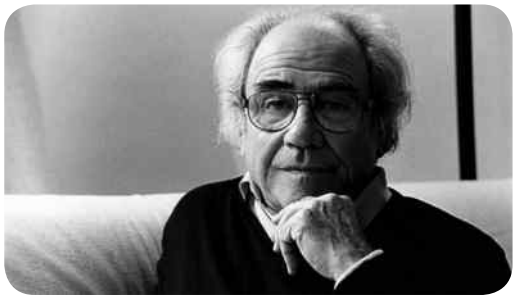

چان بودريار

وبصورة أكثر دقة، يقدم القسم الأول تاريخًا موجزًا للنقاشات الفكرية حول مفهوم المثقف وتعريفات الاستلاب والاغتراب من الهيجيلية للوجودية مرورًا بالماركسية، متتبعًا من خلالها أفكار تيار الماركسية الاستقلالية الذاتية الإيطالي في الستينيات وصعود العمل الإدراكي في السبعينيات.

ويقدم في القسم الثاني عرضًا لنظريات فلاسفة ما بعد البنيوية الفرنسية؛ مثل بودريار ودولوز وجاتاري، رابطًا ذلك بفرضيات عظمى حول انتشار التقلقل في الإنتاج الرأسمالي المعاصر.

بالنسبة إلى بيراردي، فإن التحولات التي لحقت بوظيفة المثقف الاجتماعية ومكانته يجب تفسيرها الآن من خلال مقطع ماركس في كتابه المعنون بالأسس (الجرندريسه) حول «الذهن العام» (وهو مفهوم مركزي بالنسبة إلى تيار الماركسية الإستقلالية الذاتية الإيطالي)، فقبل نهاية ستينيات القرن العشرين، كان المثقف يقف خارج أي وظيفة إنتاجية مباشرة، إذ وضع لينين المثقف على رأس الحزب الطليعي، أما سارتر فقد أكد على حق المثقف في اختيار القضايا العامة التي يرى أهمية الانخراط فيها حتى وإن لم تكن مجال تخصصه. لكن بيراردي «كنتيجة للوصول الجماهيري إلى التعليم، وللتحول التقني والعلمي للإنتاج، أعاد تعريف دور المثقفين: لم يعودوا طبقة مستقلة عن الإنتاج، ولا أفرادًا يتولون مهمة اختيار أخلاقي خالص وإدراكي حر، بل ذاتًا اجتماعية جماهيرية، تميل إلى أن تصبح جزءًا لا يتجزأ من السيرورة العامة للإنتاج» (ص 40)، وهذا يعني أن العمل الذهني، «لم يعد وظيفة اجتماعية منفصلة عن العمل العام، بل يصبح وظيفة تقاطعية Transvers، ضمن نطاق مجمل السيرورة الاجتماعية، يصبح خلق واجهات Interfaces تقنية ولغوية تضمن سيولة كل من السيرورة الإنتاجية والتواصل الاجتماعي» (ص 42).

چان بول سارتر

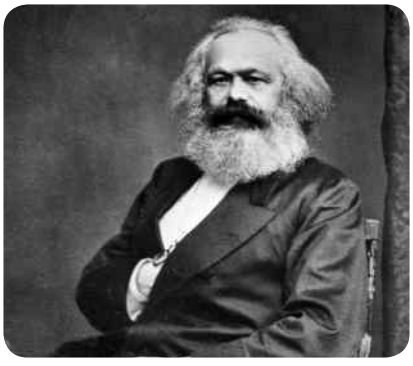

كارل ماركس

يدعي بيراردي أن حركات الطلاب في نهاية الستينيات أثبتت وجود هذه الجماهير المثقفة الجديدة، وأن الذهن العام أصبح قوة إنتاجية مركزية في الاقتصاد الرأسمالي، بينما تزايد رفض العمال للعمل المغترب وبحثوا على استقلالهم وفرصة للتطور الجماعي خارج مواقع العمل. يقارن بيراردي بين مفهوم الاغتراب بالنسبة إلى ماركس الذي يمثل انفصالاً بين الحياة والعمل، يغترب فيه العمل عن حياة العمال، والابتكار الجديد لتيار الاستقلالية الذاتية الإيطالي في قلب هذه النظرة إلى رؤية اغتراب العمال عن رأس المال بصفته قاعدة للتأكيد على حياة مختلفة. كذلك يربط بيراردي هذا الانقلاب بانقلاب آخر في مجال التحليل النفسي، متعلق بتحليل الفصام في أعمال جيل دولوز وفيلكس جاتاري، إذ لا ينظرون إلى مريض الفصام بصفته نتيجة سلبية لذاتية متشظية، بل إنها تنتج ذاتًا أخرى نشطة ذات علاقات أكثر تقاطعية.

يتخلى بيراردي عن النموذج المعياري الماركسي التقليدي للطبقة العاملة ويركز أكثر على الشريحة الجديدة من العمال الذهنيين التي تطورت في مجتمعات العالم الأول وهو يشير إلى هذه الشريحة بصفتها «عمال إدراكيين/ كوجنتاريا»، ويرى المستقبل قادمًا من بين أيدي هؤلاء العمال، وبالمثل فإنه لا يرى أن تناقضات الرأسمالية الداخلية هي التي تسببت في الأزمة الاقتصادية التي ضربت العالم في 2008، لكن نتيجة لإرهاق هؤلاء العمال بساعات عمل أكثر، ولذلك، يستخدم كلمة «اكتئاب نفسي/كساد اقتصادي» بدلاً من استخدام كلمة «أزمة»، ويقدم تحليلاً نفسيًا لهما، متأثرًا بأفكار دولوز وجاتاري. لقد سخر النظام الرأسمالي المزج الجديد بين الطاقات الجسدية والذهنية للتغلب على ثنائية الجسد والروح عن طريق تأسيس قوة عمل تستخدم اللغة والإبداع والشعور لصالحها، بينما تخفي جسدها وراء شاشات الهواتف والحواسيب، وقد أدى ذلك إلى انعدام قدرتها على التفكير خارج حدود النظام، وتضخم الشعور بالعجز بين عمالها في عالم مرقمن خال من البدائل. الآن توحد وعي العامل الإدراكي مع الرأسمالية، ومن ثَم أصبح غير قادر على التمرد ضدها، ومستوعبًا تمامًا في دائرة الإنتاج والاستهلاك.

تتمثل الإشكالية بالنسبة إلى بيراردي في أن انفجار تكنولوجيا المعلومات في نهايات القرن العشرين أدى إلى شلل نفسي واكتئاب لاحق في روح العامل الإدراكي، لأن مدى تدفق المعلومات وسرعتها يتسع أبعد من قدرة العقل البشري على الاستيعاب. نجد في الهواتف الخلوية مثالاً جيدًا لشرح هذا المنطق الشبكي الجديد للإنتاج المعاصر، ربما لأنها أهم أحدث السلع في العشرين سنة الماضية، فهي تجعل من العامل الإدراكي متاحًا طوال اليوم كي يؤدي شذرة صغيرة في عملية الإنتاج وقتما يستدعيه رأس المال. ومن ثم يتسبب خضوع العمل الإدراكي إلى التنافس والمرونة والسرعة (في ظل استيلاء الشركات على العالم الافتراضي) في الخراب الاجتماعي والنفسي، فنرى المنافسة وتقلقل العمل والتدفق السريع للمعلومات تقودنا إلى الهلع، الذي يتبعه انسحاب نحو الاكتئاب. يدون بيراردي:

«الاكتئاب هو إخماد الرغبة بعد تسارع مصاب بالهلع، حين لا تعود تستطيع فهم تدفق المعلومات الذي يحفز عقلك، فإنك تميل إلى ترك مجال الاتصال، معيقًا أي استجابة ذهنية ونفسية». (ص. 247)

يبدي بيراردي ملاحظاته في الطرق التي تصيبنا بها رأسمالية العلامات بأمراض الاستلاب (وتعالجنا منها في الوقت ذاته). يقترح بيراردي أن ارتفاع معدلات الاكتئاب والإنتاج الهائل لأدوية مضادات الاكتئاب علامة على مقاومة الإنسانية لنظام من الإنتاج الرمزي الذي يستغل ذاتيتنا، لكن لا أدوية للاكتئاب قد تطمح

في معالجة جذور الاكتئاب بنجاح التي تكمن في واقع استلاب العامل الإدراكي. هنا تظهر المشكلة بقوة، فهذا سباق نحو القاع حيث يستديم الاستغلال والمعالجة كل منهما الآخر بلا نهاية. يقترح بيراردي تحولاً علاجيًّا نحو التحليل الفصامي، متبعًا دولوز وجاتاري، فيقترح أن العلاجات النفسية يجب أن تكون مشروعًا مستمرًا نحو الاستقلالية الذاتية في مواجهة استعمار الرأسمالية للرغبة. ويخلص بيراردي في محاولة لإيجاد طرق بديلة للخروج من هذا المأزق إلى أنه:

«ربما كانت الإجابة أن من الضروري أن نبطئ، ونتخلى أخيرًا عن التعصب الاقتصادوي ونعيد التفكير جماعيًّا في المعنى الحقيقي لكلمة «ثروة». فالثروة، لا تعني شخصًا يملك الكثير، بل تشير إلى شخص لديه الوقت الكافي للتمتع بما وضعته الطبيعة والتعاون الإنساني في متناول كل فرد. إذا استطاعت الغالبية العظمى من الناس فهم هذه المقولة الأساسية، إذا استطاعوا التحرر من الوهم التنافسي الذي يفقر حياة الجميع، فإن أساسات الرأسمالية ذاتها ستبدأ في التهاوي». (ص 194).

يمكننا أن نجد أن هناك غيابًا ملحوظًا في هذا الكتاب، وهو غياب ذكر أي رابطة بين رأسمالية العلامات وبقية الأنماط الرأسمالية الأخرى، فبينما يشرح بيراردي عملية الاستلاب في رسملة العلامات، هذه التحليلات يجب أن تقدم مع احتراس بأن العمل الإدراكي ليس هو العمل السائد، وأن هذا التحليل يشمل جانبًا من جوانب الرأسمالية. وبينما يمكن للعولمة أن تغير هذا بمرور الوقت، يجب أن ندرك أن رأسمالية العلامات ذاتها تعتمد على استلاب أكثر مادية للعمال الذين يصنعون الهواتف والحواسيب في شرق آسيا.. إلخ. فإن كان لابد لتلك الرأسمالية أن تكون طفيلية على «أرواح» العمال الإدراكيين، يجب عليها أن تكون طفيلية على أجساد آخرين كي يستديم استمرارها الذي يسلب تلك الأرواح.

يمكن رؤية عمل بيراردي بأكمله بصفته محاولة لفهم ماذا تغير في الطبقة العاملة منذ سبعينيات القرن العشرين وتأثير تغيرها في انتشار أنماط العمل ما بعد الصناعي والتكنولوجيات الرقمية التي جعلت التقلقل شيئًا ممكنًا. قبل السبعينيات ظلت الرغبة خارج رأس المال، وبعدها، أصبحت الرغبة تعني التحقق الذاتي من خلال العمل، وفقدت الطبقة العاملة خارج العمل قواها التنظيمية المتعددة منذ ذلك الحين. يهدف كتاب «الروح في العمل» إلى تفسير هذا الانقلاب الشامل وأن يفحص التحول المتواصل للأمراض النفسية التي تصيب مجتمعنا المعاصر، وبذلك يرينا، «كيف حدث أن الحزن، عند نقطة بعينها، قد انتصر، وانهار المعمار الجماعي الهش للسعادة» (ص. 143)، لذلك لا يعد الكتاب مهمًا لمن يهتمون بحالة العمل في المجتمع ما بعد الصناعي فحسب، بل لمن يهتمون أيضًا بالصحة النفسية لهذا المجتمع.

4

غلاف رواية أحمر لارنج

"أحمر لارنج": شارل عقل المهرِّج المجدِّد

قراءة في رواية "أحمر لارنج"
الناشر: دار الكرمة، 2020
الكاتب: شارل عقل

حسام الخولي

شارل عقل

ثمة هوس عالمي يشغل عقول وأفكار الكتَّاب ومنتجي الفنون عمومًا، وهو يتجلى الآن على ما يبدو بشكل أكثر حضورًا وقتامة من أي وقتٍ مضى، وذلك في تساؤل تأسيسي مركَّب: كيف تبدو قيمة المنتَج الفني أمام صانعه وجمهوره بتجاهل أعدادهم (القليلة أو الكثيرة)؟ ثم ما قدر الموهبة التي يحملها الفنان/ الصانع للتأكد من وجاهة قراره بالاستمرارية كمحترف متفرغ، أو الاكتفاء فقط بممارسة الفن كلعبة مسلِّية في أوقات الفراغ؟ هل يعبث بعمره وإمكاناته التي قد لا يُستبعد كونها متواضعة "مديويكر" متوسطة، أو حتى تالفة تصلح للتذوق لا لإنتاج أشياء أصيلة، ومن ثَم يمكن التغاضي عن تأثيرها المحدود إن وُجد، أم أنها تحفر طريق وعرة، وليس عليها أن تنشغل بالالتفات الحالي إلى تقديرها، فسوف تؤتي ثمارها مع الزمن لتخلِّد أسلوبية صاحبها بعد ذلك ومنهجه في إنتاج النص/ المقطوعة/ الفيلم؟ هذه حيرة قديمة تكاثفت على الجميع تلقائيًّا نتيجة انفتاح

JAZZ

لم يُسبق لمساحات أوجدتها مواقع التواصل المختلفة، جعلت الإنتاج الفني (المكتوب والمسموع والمصور) أقل بيروقراطية، وأوسع صدرًا وأكثر تقبّلاً للجميع، فانسحبت بديهية ذلك الحراك إلى مساحات تجريبية متحررة، جعلتنا نرى من خلالها جرأة المستعد والمتطفل على القدر ذاته من حسن الاستقبال، بينما لم تستطع، أو لنقل لازمت قلق ورهبة التساؤل بشأن مدى كفاءة الموهبة أمام سيولة الإنتاج وسهولة عرضه تلك.

على ما يبدو يمكننا من هذا المنطلق الحديث حول رواية "أحمر لارنج" الصادرة حديثًا عن دار الكرمة للنشر، وإلى جانبها نُمدِّد سرديتنا للإشارة إلى تجربة كاتبها؛ التي تحمل في سياقها الأشمل على الرغم من حداثتها أسباب وجيهة للاختيار الحر غير العشوائي والتجريب الطموح والمقامرة المغرية. في مطلع الألفية التي نعيشها كان هناك وجود موسيقي هامشي لمجموعة تُنتِج ما يعرف بـ"موسيقى الجاز الانطباعية" كموسيقى مصرية ما بعد حداثية يقدمها مجموعة من التجريبيين، بعضهم من غير المتخصصين وآخرون من ذوي المرجعيات الأكاديمية، ضاعت معظم أعمالهم في أثناء انتقال الموسيقى من "الأنالوج" التماثلي إلى "الديجيتال" الرقمي. وهو تحوُّل تبدو كيفيته غير مفهومة لغير المتخصص، لكنه كان جذريًّا في مستقبل الإنتاج الموسيقي وطرق التوزيع التقليدية؛ أصبح يطلب على سبيل المثال من فرقة موسيقية محلية كانت تنتج ما يحلو لها لاستهلاك جمهور شديد الصغر تعرفه وتعرف ذوقه، أن تنتقل -بالديجيتال- إلى جمهور أوسع غير ممركز مجهول الهوية ومتنوع الذوق يحكم على مدى مشروعيتها وكفاءتها فقط بالنظر للمنتج النهائي والحكم عليه ومن خلاله، دون رحمة أو إدراك للسياق والإمكانات التي تحركها، وتتحكم في عوامل إنتاجها؛ كتوقيت التدريب ومدى التفرُّغ التي تحتاج إليه الموهبة، واستقطاب «أسطوات» المجال لوزن الكفة مع الهواة في داخل الفرقة الواحدة، وغير ذلك.

بعد جولة ميدانية في أداء صُنَّاع تلك الموسيقى الانطباعية ما بعد الحداثية، دوَّن الكاتب السكندري المصري شارل عقل في روايته «نصوصًا مجمعة من الأيقونات الموسيقية لتلك الموجة الطليعية وما واجهه أصحابها من صعوبات إبداعية واجتماعية وأحيانًا بيولوجية» ليحكي من خلاله عن هؤلاء الذين ابتلعتهم ظرفية تاريخية تتجاوز قدرتهم على التكيُّف والتلاؤم، انتقلت بفجوة زمنية مباغتة في وقت أصبح «الوله بموسيقى أو فرقة ما، التي كانت تشكّل الهوية، بدأت تندر في حقبة الإنترنت، نتيجة لتشعُّب المصادر وفيض الفرق والمشاريع الموسيقية الجديدة، الجديرة بالمتابعة والآخذة في الزيادة، أصبحت فترة الانبهار أقصر، والتحولات أسرع، والبحث والتجميع والقراءة أكثر شمولية وسطحية، والارتباط بفرقة أو فنان أهدأ وأفتر والتجميع أكثر طمعًا وطموحًا، دون دراية للوقت المستلزم لاستهلاك تلك الوسائط، وبالانبهار الكلابي سريع التشتت صوب كل جديد أو غريب»[1]. كل ذلك في حبكة سردية يمكن اعتبارها روائية بالرغم من شطحاتها التجريبية في طريقة كتابتها غير السائدة التي جعلتها تسحب رمزيتها لتشمل صنّاع الموسيقى والفنون عمومًا.

معضلة الذكورية المجروحة

في الرواية غوص داخل مشاعر العشوائية والخوف والتردد والجرأة التي تملأ مخيال التاريخ الثقافي بسرديات وقصص لا نهائية، اكتشفت ذاتها كاملة داخل مشاعر شبابية بكر، وفترات يحاول فيها الإنسان إعادة فهم ذاته وتشكيلَها: سردية تبدأ من لحظة انتهاء علاقة عاطفية لم يكن صاحبها يدرك أنه غير مستعد لها، مع أصدقاء على مشارف رجولتهم وتحمل مسؤولية جديدة عليهم، يجمعهم انعدام الثقة في حجم الموهبة التي تعطيهم ضمانة اعتبارهم موسيقيين حقيقيين، لكن مع مساحة كافية من الوقت للتجربة والتأكد من صحة كل الأشياء يدعمه حب فطري للإنتاج الفني الموسيقي. كل ذلك كان قادرًا على إنتاج مشروع موسيقي بات يهدف إلى «أستاذية العالم»، أو ربما السخرية منها ومن أصحابه داخل قصة روائية كـ«أحمر لارنج».

على نحو مجازي وفعلي يختار الأبطال أن يظلوا على الهامش؛ تجد اختياراتهم للآلات التي يعزفونها غير رئيسية أو غير مشهورة أساسًا ربما -في سياقهم تحديدًا- للتأكيد على رمزية مساحات ذكوريتهم الجريحة داخليًا، غير المكتملة وغير المدركة تمامًا لأنها لم تثبت نفسها بعد. أو ربما كما يبرر البطل ذلك «لأنني أكره الخيلاء والاستعراض ناسبتني [آلة] الأكسليفون، فهو على عكس جميع الآلات التي تشعر حين تعزفها بأنك خاص ومتألق... ينفرد الأكسليفون بأكثر الهيئات الموسيقية مللاً، فحتى أمهر عازفيه، سوف يبدو في أكثر حالاته وإبداعه مثل الموظف لا يفعل شيء سوى الجلوس"[2].

مقطوعات موسيقية للقراءة

الكتاب مقسَّم -باعتباره موسيقيًّا- إلى مقطوعات لا فصول؛ عشرة مقطوعات منفصلة متصلة، سوف تستمع خلالها إلى أسماء تخييلية مربكة توقفك في كل مرة للتأكد من صحتها "القائل نعمًا وهلمّا وتعريشة الذهبي والجناس التام"، وأسماء أكثر غرابة تحتوي العبث والسخرية المناسبة والأكثر ملاءمة لتخبُّط أصحابها أبطال الفرقة الموسيقية الحقيقية المتخيلة في آن، والتي يمكن فهم سياقهم من الراوي الذي كان "محل لقاء الأصدقاء بغير ميعاد والمأوى لكل من بلا مأوى ومقصد كل خالي الذهن أو الوقت أو العمل"[3] بكل رحابة صدره وهو يصف صديقيه الأبطال الأكثر تأثيرًا معه أنهما "بقدر ما كانت خطورة القائل تكمن في تعامله بالمنطق مع كل الاقتراحات الهوجاء وقدرته على الحجاج ببلاغة لتسهيل تنفيذ فكرة غبية، ممهدًا الطريق بالمنطق والحجة، بقدر ما كان هلمّا هو وقود التجربة، لا يضيع الوقت في الحذلقة، أكثرنا عملية بلا شك، يكره كل ما يجبره على التأمل والتريث يصيبه الانتظار بالتوتر والتردد بالغيظ، ولا يعتبر التكتيك ووزن الأمور سوى حنجلة"[4].

لذلك، وكاتفاق ضمني يبرر قراءة الرواية، يظهر تقبّلهم وروايتهم في المشي على خطى أحدهم الذي لديه ذائقة فنية "تتسع لكل شيء، تستوعب كل شيء وتقدر كل شيء". هؤلاء المجربون الأوائل الذين يحاولون إثبات ذواتهم بالحكي حول كل الأشياء دفعة واحدة حتى تنقطع أنفاسهم تارة لما داخلهم من أشياء تحتاج إلى التعبير عنها وأخرى لاختلاق لفت الانتباه إليهم كغرباء يغرسون أقدامهم في المشهد الفني، كصنَّاع وأصحاب موهبة، وأخيرًا في التسليم باحتمالية عدم فهم بعض

مشهد من فيلم لمبة نيون

الأشياء على الرغم من توقّع الاستمتاع الكامل بها. وفق تجربة موسيقيينا، وزاوية تناولهم الروائي، ربما تتساءل بشأن حتمية فشل التجارب الجديدة عمومًا وولادتها الميتة، هي وما يمكن أن تشكّله، ما يعني في حالتنا تجربة إنتاجهم الموسيقي المبتسر دون قصد أو ذنب أو مساعدة كما ينبغي. هذه تعجيزات وإن كانت مُدركة بالضرورة لغالبية منتجي الفنون في شتى مجالاتهم يدَّعي كثيرون محوريتها في كل بقاع الأرض وعدم اقتصارها على النطاق المحلي أو الإقليمي، فإن الكاتب هنا يُبروز معضلات متجاوزة لأبطاله بفجاجة يكثّفها وجودهم أبناءً لعالم ثالث قليل الوجود فنيًّا، لأسباب كتلك التي تخص محدودية حركتهم، ونظرة مجتمعهم إليهم، وشبه انعدام للفرص المتاحة أمامهم لأنه «لكي تكون موسيقيًّا متخصصًا ليس لديك كثير من الاختيار: تصبح عازف في فرقة شعبية تلتقط رزقها من الموالد والأفراح لجمهور ليس غرضه تقصّي المواهب، أو العمل في فرقة كلاسيكية أوركسترالية، وهو اختيار محدود جدًا لندرة الفرق التي تتلقى أجورًا في المنطقة العربية، أو ترضى بعمل ذي ربح معقول، مستغنيًا عن تحقيق الذات أو الاعتراف الجماهيري»[5].

حكايات ذاتية في قالب خيالي

تجربة "أحمر لارنج" خرجت من رحم تجربة شخصية أساسًا للكاتب؛ الذي عمل في فترة من الوقت مبرمجًا موسيقيًّا، ومنتجًا ومسوِّقًا للموسيقى لفترة أهَّلته لمعايشة أبطال غالبًا ما استوحى منهم رواية مخلوقة من تفاعله الشخصي. لم تكن تلك المرة الأولى في سحبُه مساحة التفاعل الشخصي إلى الكتابة الفنية بالرغم من بدايته البعيدة من حيث الكتابة في المدونات ككثيرين، ثم تقديم فيلم قصير موجود على موقع «يوتيوب» تحت عنوان «لمبة نيون»[6] ثم انتقاله دون مقدمات إلى الكتابة الأدبية الشخصية. في أواخر عام 2017 تقريبًا كنتُ داخل مكتبة دار الكتب خان، التي صدر عنها كتابه الأول: غذاء للقبطي، ضمن سلسلة «بلا ضفاف» المعنية بنشر التجارب الأدبية الخارجة عن التصنيفات المتعارف عليها في مختلف الأشكال: قصة ورواية وشعر ومقال. الكتاب يحكي قصة رحلته الذاتية داخل المطبخ القبطي وأكلاته شديدة الخصوصية. كانت الفكرة تبدو لطيفة، ونوعًا ما جذابة، إلى جانب حجم الكتاب الصغير وشكله الجديد وفكرة سحب المطبخ وتناوله بخيال سوسيولوجي أدبي داخل العالم المسيحي الذي لم يقدَّر لي أن أعيشه أو أسمع عنه على الرغم من قربه الدائم. وهذا ما جعله إجمالاً يبدو وجبة غير دسمة خفيفة الظل، فالتهمته في جلسة واحدة، وهو ما حدث مع «أحمر لارنج» أيضًا، بينما بعد الأخير كنت أكثر يقينًا من أهمية تجربة صاحبها المجدد المهرج «خفيف الظل».

ربما على العكس من تعقيدات يحكي عنها كل كُتَّاب التليفزيون والسينما الجدد وما يواجهونه من بيروقراطية وتدخلات خانقة، كانت على أقل تقدير سترفض أو تحد من هذا الجنون الجامح والتهريج المبالغ في تجريبيته، فجعلته يميل إلى كتابة تجربته روائيًا، وبحرية تسمح بهذا الكم من التهريج والتجريب

الحر، لتقديم أفكاره التي تعطي إحساسًا طاغيًا بعدم افتعال الظُرف والإضحاك، ربما فقط بسبب المعايشة الشخصية التي تبصّره أكثر بسقف وحدود شخصياته. وبات التساؤل الأكثر إلحاحًا ضمن السياق الأشمل لتلك التجربة: هل يمكن التأسيس عليها ومن خلالها أم تجاهلها ونبذ تهريجها الفج و«قلشاتها» شديدة المعاصرة التي قد تعجِّل بموتها؟ وقد أجابت تجربة «أحمر لارنج» وأثبتت شيئًا مُركبًا شديدة الأهمية.

الجانب الأساسي المستمد من «أحمر لارنج» بالتحديد كان التأكيد على تجربة صاحبها المبشِّرة، لا كموهوب فحسب، قدر امتلاكه لكثير من الثقة والجرأة التي تجعله يتحرك بثبات كيفي وبطء نسبي داخل مساحات تتداخل خلالها التجربة الشخصية بالتخييل الروائي، وإخراج منتج نهائي ممتع مجهول التصنيف، غير معتمد على وصفات كتابية وأفكار مضمونة النجاح يقبلها جمهور لا يمل التكرار، ربما لتصبح سببًا في إعادة النظر مرة أخرى إلى مساحات تجريب قد تجد فرصتها في سرديات كهذه التي تنطلق من شخصيات أصحابها مثقلة بخيال أدبي أو سينمائي في قولبة الأفكار مرة أخرى. تجارب جديدة تذكرنا بتجربة مثل تجربة عادل أسعد الميري تحديدًا؛ الذي تحرك في غالبية أعماله من مساحات احتكاكه الشخصي بموضوعات كتبه؛ إن كان الأخير ككثيرين واجهته صعوبات، وأحيانًا رفض، مع كل مساحة تجريبية تخصه متجاهلة الإشادة النقدية، فلا مناص من تمنياتنا أن تتغير الأمور مع تغير الزمن، وتتحرك دور النشر على اختلافها أكثر وأكثر للتفكير في كل جديد ومربك يُعرض عليها أو تسعى إلى إنتاجه. هذه التجريبية التي يفرضها اختلاف الزمن والملل أحيانًا ولا تُطلب في ذاتها، والتي قد تفشل حتى لدى البعض أو ربما لن تجد نجاحها المرجو مع من حققوها قبل ذلك، ستظل جديرة بالمقامرة والمجازفة والعنصر الأكثر نجاحًا في استقطاب جمهور مختلف وجديد يعني انتصار الناشر والكاتب معًا.

هوامش:

1 – يراجع الكتاب صفحة 170

2 – يراجع الكتاب صفحة 69

3 – يراجع الكتاب صفحة 165

4 – يراجع الكتاب صفحة 103

5 – يراجع الكتاب صفحة 47

6 – فيلم «لمبة نيون». إنتاج عام 2013. المؤلف: شارل عقل. المخرج: عماد ماهر.

https://bit.ly/2MEuy9a

5

غلاف رواية أشباح بروكسل

"أشباح بروكسل".. جغرافيا سردية للخوف

عرض رواية "أشباح بروكسل"
الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2020
المؤلف: محمد بركة

منى أبو النصر

الطيب صالح

لعل العلاقة الجدلية بين الشرق والغرب واحدة من أبرز ثيمات رواية «أشباح بروكسل» للكاتب المصري محمد بركة، وهي أيضًا واحدة من أبرز تحديات الرواية، التي يبدو أن مؤلفها قد بحث مليًّا في حلول لتفادي التورط في تلك التحديات الروائية، فالعلاقة بين الشرق والغرب في حد ذاتها ثيمة مُكررة ومطروقة، وتم تناولها في العديد من الأعمال الأدبية العربية، لا سيما علاقة الحب التي تجمع شرقي بغربية، ومآلاتها ثقافيًّا واجتماعيًّا وإنسانيًّا، لعل أبرزها «عصفور من الشرق» لتوفيق الحكيم، ورواية «أصوات» لسليمان فياض، و«موسم الهجرة إلى الشمال» لعَلم الأدب السوداني الطيب صالح، وهي أعمال اعتبرت أيقونات لتلك الثيمة الأدبية، وهي على رأس قائمة تطول من العناوين.

إلى جانب ثيمة الشرق والغرب المُكررة، فإن بطل الرواية، الذي هو أيضًا اللسان السردي لها، هو صحفي مصري يُنتدب إلى العاصمة بروكسل، ليخوض رحلة صحفية تتعرض للعديد من المشاهد التي يقابلها

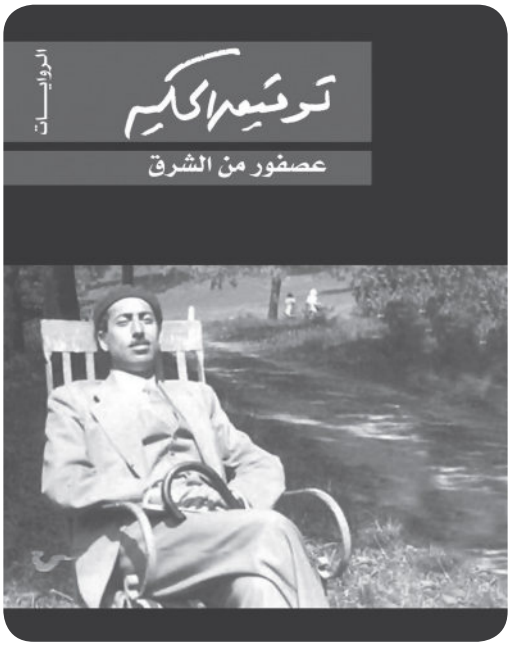

غلاف إحدى طبعات رواية عصفور من الشرق

اللاجئون إلى أوروبا، والهجرة غير الشرعية، والعمليات الإرهابية التي زعزعت الاستقرار الأوروبي، وعمليات الاشتباه الواسعة ضد العرب، لتجمع الحابل بالنابل، وغيرها من المشاهد التي ملأت الفضاء الصحفي ولا زالت، وهي هنا في الرواية تجد آخر أمام السرد، فهي تمثل مساحة أفقية رئيسية للأحداث ضمن مهمة بطل الرواية «مكاوي» الصحفية، وفي الوقت نفسه فإن الاستسلام لقبضة تلك المساحة ذات الملامح الصحفية الواقعية والتقريرية أحيانًا، كان من الممكن أن يقضي على فنيات الرواية، وهو الأمر الذي أدركه الكاتب فحاول خلق مساحة موزاية للسرد، تُسلط الضوء على شخصية البطل وعالمه، وخلفيات حياته المُمتدة مع الفرص الضائعة، وألاعيب الوقت والمكان، والحاضر المرتبك لدرجة فقدان الاتزان، وذلك بالاستعانة بتقنيات تنحاز

مقر الاتحاد الأوربي في بروكسل

للوصف الجمالي، ما منح النص الروائي قدرة على مقاومة تحدياته السردية والانطلاق دون قيوده، والعزف بخفة على أوتار اليوميات والذاكرة والوصف والتقاط المعاني.

بدايات شاعرية

بطل الرواية «مكاوي» لا يُعاني أزمة هُوية بمعناها التقليدي؛ فهو يرحل عن مصر في مهمة صحفية، ظاهرها مهمة ربما يحسده عليها زملاؤه، إذ يتجه إلى عاصمة الاتحاد الأوروبي بكل ألقها الكلاسيكي وتحضرها الشديد، أما باطنها فهو إبعاده عن العمل بالصحيفة عبر تهميشه وإقصاء صوته المُشاكس في جريدته القومية المُحافظة، فيذهب إلى مأموريته الجديدة إلى بروكسل حاسمًا موقفه من صحيفته، وكذلك حاسمًا لموقفه الاجتماعي؛ فهو مُنفصل عن زوجته أم ابنته، ويختار الكاتب أن يظهر منذ الأعتاب الأولى للرواية تماهي بطله في علاقة عاطفية شفيفة، استهل بها الكاتب روايته بإيقاع خفيف، ولغة لامعة عبر مشهد خلال جولة استكشافية يشارك بها «مكاوي» و«كارلا» ضمن رحلة جماعية تقصد محمية طبيعية ذات زهور نادرة وطيور مُهاجرة، وعلى الرغم من أن مظاهر الطبيعة الخلابة مسيطرة على المشهد فإن المؤلف يضع القارئ سريعًا في قلب هذا التوتر المُزاحم لسياق العلاقة بين عربي وغربية، حتى ولو كانت تلك العلاقة لا زالت في بدايات الحب الشاعرية الأولى.

بروكسل

صنيع المطر

رواية «أشباح بروكسل»، صادرة في 2020 عن الهيئة العامة المصرية للكتاب، وهي العمل الثامن في رصيد الكاتب محمد بركة الذي يتنوع بين القصة والرواية. يصنع بركة في روايته الأحدث كثيرًا من محطات المجاز الجمالية التي يُشيد بها عالمًا موازيًا لعالمه مع صديقته الإيطالية «كارلا» وعالم مُهمته الصحفية، من بين مواطن المجاز تلك التقاطه لحركة المطر، ما بين نعومة وقسوة، وصنيع الطقس كحركة توازي صنيع حركة الأحداث وتقارب إيقاعاتها وحذرها، فالمطر في الرواية حارس لحب مجنون أحيانًا، وكما يذكر «وتحت المطر الذي يتساقط عنيفًا وكأن شيئًا ما أغضبه، نركض مثل مجاذيب السيدة زينب وأولياء سيدنا الحسين دون مظلة في الحواري الضيقة ذات البلاط الأسود والمباني العتيقة الملاصقة لعاصمة حكمت يومًا ما ثلاثة أرباع الكرة الأرضية». وفي مواضع أخرى يمرَّر الكاتب المطر في السرد كمُحرض على تأمل صخب الحياة الجديدة للبطل، ونوستالجياه التي تقتحم يومياته الباردة في بروكسل، حيث المطر هناك قاعدة لا استثناء، يتأمل في واحد من مشاهد هطول المطر الرمزية في الرواية «أحببت المطر.. ظل أحد مصادري السرية للحصول على هذا المزيج النادر من السعادة والعزلة معًا.. كنت كتكوتًا لم يخرج بعد من البيضة، وأنا أركع على فراشي المُلاصق لنافذة تُطل مباشرة على الطريق، لأراقب انفجارات حباته الفضية.. كلما مسَّت صفحة المياه في ترعة صغيرة تروي حقول البرسيم.. رومانسيًّا أبعث برسائل معه إلى الطبيعة، وساذجًا أجهل ما سيحدث بعد دقائق للطرق والشوارع الطينية في البلدة، التي يقول أهلها إنه ما أسهل أن تغرق في شبر ميه» في تراسل شجي محفوف برغبة البطل في الانزواء في كنف دائرته النادرة من السعادة والعزلة معًا.

يستدعي البطل «مكاوي» حقول البرسيم، ورائحة الطين وهو في قلب العاصمة بروكسل في مقر إقامته الجديد الذي يفصل بينه وبين مكتبه الصحفي خمس دقائق، فأسئلة الهُوية والمكان تُزاحم هذا البطل، إلى الحد الذي لا يمكن التحرر منها، حتى وهو في غمرة يوميات وتجارب جديدة، وحتى في علاقته بـ«كارلا» التي تتأرجح على مدار الرواية، فهو الغارق في الأسئلة، وهي الفنانة والمصورة الغارقة في الأحلام، وهي الملامح الشخصية التي لا يُصرح بها السرد بقدر ما يُلمح بها عبر تفاصيل يومية عادية، كأن يقول على لسان بطله «وضعت رأسها على كتفي وراحت سريعًا في النوم كما هي عادتها التي أحسدها عليها من كل قلبي أنا المنذور للأرق وعذابات النوم المتقطع».

مُدن عجوز

يُضيف المؤلف محطة أخرى بالإضافة إلى بروكسل والقاهرة التي لم تظهر في الرواية سوى في ذكريات صاحبها، وهي روما؛ موطن كارلا، التي يذهب لزيارتها، ويُفاجئ بأن توقعاته الساحرة عن روما كانت تفيض عن واقعها، ويغرق في مقارنة هوامش تلك المدينة العجوز بعاصمته القاهرة، وهي مقارنة لصيقة بالنزعة الشخصية

مدرج كولوسيوم في روما

لبطل الرواية الغارق داخل ذاته ومشاهداته، يقول «روما هي النسخة الأوروبية من القاهرة، أو لنقل إن الأخيرة تُعد النسخة الشرقية من الأولى، أي أنه باستثناء جرعة الفوضى التي زادت في العاصمة المصرية، ونسمات النظام التي لا تزال تهب على نظيرتها الإيطالية، فأنت أمام مدينتين عجوزين ولدتا للأب نفسه مُتعدد العلاقات الغرامية، البحر المتوسط يفصل كلتيهما عن ساحله ما يقرب من ساعتين، غير إن إحداهما جاءت شبه شقراء، بينما الأخرى شبه سمراء، وفي الحالتين بقيت الأم مجهولة».

القاهرة

ولعل تلك القراءة التي يتركها الكاتب محمد بركة منطوقة ولامعة داخل عقل بطل الرواية، واحدة من مُرتكزات الرواية، التي تتأمل المكان، وروابطه التاريخية، وسياقاته الرمزية، فيجمع بين القاهرة وروما برباط الدم، وديمومة الأنوثة، ولعل هذه المقاربة بين المدينتين «العجوزين» هو ما جعل الكاتب يختارهما كخلفية ومرجعية مكانية لبطلي قصة حب الرواية، حيث الطابع الثقافي المشترك، ذلك الذي يسعى إلى إيجاد مسارات للقاء على ضفاف البحر المتوسط، وكأن انحياز الكاتب هنا للقاء والتواصل الممكن دائمًا، تواصل روحي وجسدي، ما بين جنوب وشمال، شرق وغرب، مد وجزر، انطلاق وانكماش، جميعها أوجه للعلاقة بين «مكاوي» و«كارلا» على مدار الرواية.

زحام وعزلة

تنزع شخصية مكاوي إلى التأمل النابع من خلفيته الصحفية والثقافية، والرومانسية أيضًا، فهو يتأمل علاقته بكارلا التي يخشى وقوعها في فخ الفقد، ولا يستطيع مصارحتها بتلك الهواجس. تتيح له زيارة روما فرصة أخرى لتأمل ذاته، هو المسافر من النقيض للنقيض، من الفوضى إلى الانضباط، من زحام القاهرة إلى عزلة بروكسل، من الشمس إلى الغيوم، لتكون روما هي محطته الانتقالية «من جنوب مُثقل جئت منه وشمال يشف ويرف في نسيم الرفاهية حللت به». في وعي كامل بجغرافيات التغيير التي تعصف بحياته.

أوربا قبلة اللاجئين من الجنوب

مظاهرات تطالب الحكومة بتسوية وضع اللاجئين في بلجيكا

احتجاجات اليمين في بلجيكا ضد المهاجرين

يطرق الكاتب أبواب اللاجئين وملفاتهم المُكدسة عبر مهمة «مكاوي» الصحفية في بروكسل، الذي يقترب من معسكرات اللجوء العشوائية، والنشطاء البلجيك، واللجوء الاقتصادي المُتحايل الذي يرتدي قناع اللجوء الإنساني، يلتقي بطل الرواية في لحظة تشتت داخل مخيمات اللجوء بـ «هيثم العراقي» اللاجئ الذي يُحرك المياه الراكدة في تحقيقه الصحفي، بعد أن يشرع أمامه بابًا واسعًا من الحكايات التي مرّ بها بداية من عصابات الهجرة، مرورًا بهروبه من السواحل التركية إلى بلجيكا المُتحررة نسبيًّا من التحرش العنصري لتعددها الثقافي، والثمن الباهظ الذي دفعه لمغامرة الوصول لها «فليست الجنة الأوروبية كُلاً واحدًا وإنما حتى في الفردوس الناس طبقات» حسب اللاجئ العراقي الذي صار عين مكاوي على دراما الهجرة.

يجعل الكاتب من خيط اللجوء وحكاياته، التي يتتبعها مكاوي صحفيًّا، واحدًا من خيوط السياق المشهدي في بروكسل أو «المدينة الرمادية» كما كان يسميها، فبروكسل التي يصفها لاجئ بأنها الأقل في التحرش العنصري، تدخل في موجات من عمليات «الذئاب المنفردة» التي اجتاحت أوروبا في فترة من الفترات، لتتصاعد معها كوامن الغضب تجاه كل ما هو عربي، وإسلامي، وتوجس أكبر تجاه اللاجئين، يُسجل البطل (بروكسل تحت الحصار) العنوان الأشهر في الصفحات الأولى، للمرة الأولى تشهد المدينة تظاهرات حاشدة ضد كل ما يمت للعرب والمسلمين بصلة. تراجعت الحكومة الفيدرالية عن خطط سابقة لاستيعاب خمسين ألف لاجئ مسلم. وحين كان أحدهم يجادل بأنه ليس كل المسلمين إرهابيين، يجد الجميع يصرخ بوجهه: نعم، ولكن الصحيح أيضًا أن كل الإرهابيين مسلمون.

لم يعد المتسولون من أوروبا الشرقية يطاردون الخارجين من المركز الإسلامي بعد صلاة الجمعة بالكلمة العربية الوحيدة التي يحفظونها: صدقة! صدقة! وقد تبنت البلاد مصطلح الدواعي الأمنية بمعناه الشرق أوسطي، أي أن يظل فضفاضًا دون تحديد لتستخدمه السلطة في التنكيل بمعارضيها. وتحت هذا العنوان المطاط شهدت المملكة الهادئة التي اعتادت أن تستحم في نهر التسامح أكبر برنامج لترحيل الأجانب.

لغة شعرية على الرغم من الخوف

وجد الكاتب في سرد تلك التطورات التي نمت داخل المدينة الأوروبية، لا سيما بعد وقوع هجوم على مفاعل نووي بشمال بلجيكا، ما يوقظ المارد الكامن، لتبدأ حملة مداهمات تشكيكية ضد كل من هو عربي، فأوجد

محاولات للخروج من فخ الكتابة التقريرية المباشرة، مخافة تحويل الرواية إلى منشور سياسي، أو رصد وثائقي لأحداث بعينها حتى لو كانت مفصلية، وربما هذا ما جعله يصنع لبطله «مكاوي» سياقًا دراميًّا موازيًا لفوضى المدينة الرمادية، حيث يجد فيه نفسه متورطًا في ابتزاز يُهدد مهنته ووظيفته وسمعته، ما يجعله يبحث لنفسه عن خطة إنقاذ، وهجرة جديدة بحثًا عن النجاة، تتزامن مع رفع حالة الاستنفار الأمني في البلاد إلى الدرجة الرابعة «القصوى»، في تصعيد سردي للحالة الخاصة لمكاوي، والسياق السياسي والاجتماعي والإنساني في بروكسل، باعثًا برائحة الخوف لتضرب الأجواء في مقتل.

تحتفظ لغة الرواية حتى مع احتدام الحدث السياسي والشخصي للبطل، بأسلوبها الشعري المتأمل في الجماليات المُحيطة، أو المُتخيلة التي يضعها الكاتب على لسان بطله، فوصف الطبيعة، كما أشرنا سابقًا إلى ثيمة «المطر»، متواصل على مدار الرواية، في وعي من الكاتب باعتداده بالوصف، وتقصي الجماليات كأسلوب أدبي لا ينفصل عن السياق السردي المُرتكز على أحداث واقعية، وحرص عليه أكثر مخافة التورط في الانسحاب السردي لصالح الأحداث الصحفية في الرواية التي هي من صميم مهمة البطل، وكذلك في صميم رحلة الرواية.

فترى البطل وكارلا وهم في وداع بروكسل مُدججين بالخوف، يجران حقائب صغيرة تمنحهما بعض الخفة التي تعوض ثقل القلب والخيبة، ولكن هذا لا يُنسي البطل أن يُلقي بنظرة أخيرة على بروكسل، بطابعه الشخصي المتمعن في التقاط التفاصيل الشعرية التي تعكس دومًا مشاعره بذكاء كمرآة صدق «الثلوج قبلات ناعمة تطبعها على خدك امرأة مجربة تعرف فضيلة البطء وتتمرد على عصر السرعة. الرذاذ معلق بالرموش، وهداياه التذكارية معلقة بمداخن البيوت والواجهات الزجاجية المضاءة طوال الليل. ملاءة بيضاء هائلة تفرش الطرقات والأشجار».

أشباح الحياة

مع تصاعد الحدثين الخاص والعام في الرواية، ودخول الرواية في نفق النهاية تكون ثيمة «الخوف» قد تمكنت من عروق السرد، لتتسع دائرة تأويل ثيمة «الأشباح» التي عنون بها الكاتب روايته «أشباح بروكسل» فالأشباح في معناها الأقرب ربما تُحيل إلى عناصر «الذئاب المنفردة» الإرهابية، التي تُشعل الفوضى والقتل والدماء في ضربات قاسمة سرعان ما يتبخر أصحابها في أداء يُحيل للصورة الذهنية لـ«الأشباح»، وفي رؤية أخرى ربما تنطلي ثيمة الأشباح على جميع التساؤلات، الوجوه، الابتزازات، الدفاع عن الذات، القصة القديمة التي انتهت بالانفصال في مصر، زخات المطر، جميعها «أشباح» تذوب وتهب في الوقت الذي لا تقرره، فالبطل الذي تنتهي الرواية بمشهد يجمعه وكارلا في المطار استعدادًا لسفر جديد، لم يقرر من الأصل أن يأتي إلى بروكسل، لم يسع إليها، لم يرى نفسه يومًا في مشهد مُطاردة عابرًا بوابات المطارات بخوف، ورعدة، فهو مُشتبه به، وضحية ابتزاز، ربما الأشباح قابعة داخل أسوار عقله الذي لم يتوقف عن سؤال «من أنا.. وأي شيء جئت أبحث عنه في أوروبا؟». صورة الشبح مُتمكنة منه حتى في أقصى درجات قربه من كارلا، كما حدّث نفسه مرة عن تعلقها به بقوله « كانت تلح دائمًا على الإشارة إليّ، أنا الذي تعبت من الالتزام ولم أعد أعرف معنى للانتماء، باعتباري مكونًا أساسيًّا من مكونات وجودها. حاولت مرارًا أن أقنعها أنني مجرد موجة أخرى ستتحطم عما قريب على الشاطئ، وأنها لا يمكن أن تتعلق بشبح عابر، لكني توقفت عن محاولاتي حين لاحظت أنها لا تزيدها إلا عنادًا وإصرارًا على إثبات العكس».

مي زيادة

ولعل هذا البطل الروائي الذي يصف نفسه ذات مرة بـ«الشبح العابر»، هو البطل المُتنقل غير المستقر بحال، بما يقترب من واحدة من التأملات الذاتية التي كتبتها الأديبة الفلسطينية اللبنانية الرائدة مي زيادة (1886 – 1941) عن نفسها ذات مرة تقول فيها «وُلدت في بلد، وأبي من بلد، وأمي من بلد، وسكني في بلد، وأشباح نفسي تنتقل من بلد إلى بلد»، أشباح البطل كذلك تتنقل معه من بلد إلى آخر، فهو مزدحم بأشباح المكان، والحب، والمهنة، والإخفاق، والابنة البعيدة، والرغبة، والآخر، وهي جميعها ثيمات لم تصل إلى درجة من اكتمال المعنى، ما يستقر بهم كأشباح؛ أشباح الحياة، التي تأملها الروسي أنطون تشيخوف (1860–1904) ذات يوم في مقارنة مع أشباح الموت، تساءل «لماذا شقي هاملت بأشباح ما بعد الموت، في حين أن الحياة نفسها مسكونة بأشباح أشد هولاً؟».

المشاركون في هذا العدد

- **أسامة دياب** ..... باحث في الاقتصاد السياسي
- **أسماء سعد** ..... كاتبة وصحفية مصرية
- **أسماء يس** ..... مترجمة وشاعرة مصرية
- **باسم عبد الحليم** ..... كاتب مصري
- **جمال حمدان** ..... جغرافي وأكاديمي مصري
- **جوزيف شونارا** ..... محاضر في الاقتصاد السياسي في كينجز كوليدج في لندن
- **حسام الخولي** ..... كاتب وصحفي مصري
- **حسين الحاج** ..... مترجم مصري ومحرر بموقع كتب مملة
- **خالد يوسف** ..... صحفي مصري مهتم بالرياضة والسينما
- **ماجد وهيب** ..... كاتب وقاص مصري
- **محمد جاد** ..... صحفي مصري متخصص في الاقتصاد
- **محمد عبد النبي** ..... روائي ومترجم مصري
- **منى أبو النصر** ..... صحفية مهتمة بالثقافة والأدب
- **وليد الخشاب** ..... أستاذ الدراسات العربية، جامعة يورك، كندا